لاديسلاف مناتشكو

حديث ليلي

•• 22.7.2017 ••

ترجمة: رامي البيروتي



لاديسلاف مناتشكو

حديثٌ ليليّ

رواية

ترجمها عن السلوفاكية:
رامي البيروتي



Noční rozhovor

by: Ladislav Mňačko

حديثٌ ليليّ - رواية

تأليف: لاديسلاف مناتشكو
ترجمها عن السلوفاكية: رامي البيروتي
التدقيق اللغوي: عمر الخولي
الإخراج: فايز علام
تصميم الغلاف: مناف عزام
ISBN: 7 - 19 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

This book has received a subsidy from SLOLIA Committee,
the Center for Information on Literature in Bratislava,
Slovakia.

- 1 -

«هنالك رسالة لحضرتكم»، نبَّهتني موظَّفة الاستقبال الشابَّة في الفندق لدى تعبئتي الاستمارة. كانت رسالةً من صديقٍ أتيتُ لزيارته في هذه المدينة الألمانية، يخبرني فيها بكلِّ أسفٍ أنه اضُطرَّ بشكلٍ مفاجئ إلى مغادرة المدينة لعدَّة أيام، ولكنه سيعود يوم الأربعاء بكلِّ تأكيد، ولحينها يمكنني أن ألقي نظرةً على المدينة فهنالك الكثير ممَّا يستحقُّ المشاهدة هنا، وألحَّ على أن أنتظره.

وهل لديَّ خيار آخر؟ إلقاء نظرةٍ على المدينة لم يكن بالنسبة إليَّ أمراً مغرياً على الإطلاق، ولكن سأتدبَّر أمري، لقد تحمَّلت ثلاثة أيَّامٍ أسوأ من هذه، ولحسن الحظِّ جلبتُ معي عدَّة رواياتٍ بوليسية، فهي وسيلةٌ ممتازةٌ لمكافحة الشعور بالوحدة والضَّياع في مدينةٍ أجنبية.

صعدت إلى غرفتي واستحممت، ثمَّ تناولتُ الغذاء في المطعم. كانت وجبة ستيك المعتادة. بعدها استغرقت في قيلولةٍ لساعة؛ سأنام قليلاً ثمَّ أقرأ حتى حلول الظلام وبعدها أذهب إلى السينما، إن كانوا يعرضون شيئاً، أو إلى حانة النبيذ إن وُجد شيءٌ مماثلٌ هنا أصلاً.

لم أنمْ. لم أستطع النوم، نادراً ما يحدث لي ذلك. تقلَّبت من طرفٍ إلى آخر لعلَّي أنام، لكن ذلك كان ضرباً من المحال. لطالما كنت أنام بعد الظهر؛ إنها من عاداتي القديمة السيِّئة، أحياناً قد لا يُتاح لي الوقت لهذه القيلولة، ممَّا يفسد مزاجي لما تبقَّى من اليوم. يحدث ذلك غالباً، عندما أُضطرُّ إلى الذهاب إلى مؤتمرٍ أو الاهتمام بضيفٍ ما، ولكن لم يسبقِ لي أن استلقيت ولم أتمكَّنْ من النوم.

لكن هذه المرة لم أتمكن من النوم. تقلَّبت في فراشي ودفنت رأسي في وسادتي كمحاولةٍ أخيرة، ولكنَّ أيّاً من هذا لم ينفعْ؛ فأخذتُ كتاباً، كان لفيليب مارلو الذي أحبُّه، ومع ذلك لم يثر اهتمامي هذه المرَّة. لم يجعلني أنعس ولم يثر اهتمامي. غريب، من الممكن قراءته مراراً وتكراراً في أيِّ مكان، الشيطان وحده يعلم لماذا لا يمكن قراءته بعد ظهر يوم الأحد في سرير فندقٍ في مدينةٍ ألمانية؟

على كلِّ حالٍ، يوم الأحد هو يومٌ مزعجٌ جدّاً في أيِّ مكان، حتى في دياري. فيه شيءٌ مميَّزٌ ومبهمٌ يجعله يختلف عن باقي الأيَّام. ففي الأيَّام العادية أنا لا أضطرُّ أبداً إلى أن أكون عند الثامنة في موعدٍ ما ومن ثمَّ عند العاشرة في موعدٍ آخر، ووقت عملي أحدِّده بنفسي، فعادةً ما يكون ذلك في ساعات المساء والليل فلا أضطرُّ إلى ضبط المنبِّه كي أستيقظ صباحاً عند وقتٍ محدَّدٍ، ومع ذلك أصحو دائماً قبل الثامنة، فأذهب إلى المدينة وأطوف على محطَّاتي المعتادة، أجلس هنا وهناك، ويقدِّمون لي القهوة أينما حللت. أستمع إلى أحدث النمائم لأعيد نشرها على بعد جادَّتَين من هنا. أنتظر حلول الظهر لأذهب إلى

المطعم وبعد الظهر كي أنام. أمَّا مساءً، فإن كنت في مزاجٍ جيِّد، أجلس للعمل الذي في وسعي أن أنهيه متى يحلو لي أو أؤجِّله أو أرميه بعيداً عند ساعات الصباح الأولى.

أمَّا في يوم الأحد فكلُّ شيءٍ مختلف، لا يوجد مكانٌ أذهب إليه لاحتساء القهوة والنميمة، فمعارفي إمَّا يغطُّون في نومٍ عميقٍ أو غادروا المدينة، والذهاب إلى المطعم لتناول الغذاء بات أمراً متعذِّراً؛ لأنَّ الناس اعتادوا في السنوات الأخيرة على تناول الغذاء خارج منازلهم، ومع عدد المطاعم القليل بات عليك انتظار دورك في كلِّ مكان، وأنا لا أطيق انتظار أيِّ شيء. طبعاً سيقلُّ ازدحام المطاعم لاحقاً لكن ذلك سيترافق مع تقلُّص لائحة الوجبات المتوفِّرة. لذا أفضِّل في يوم الأحد البقاء في المنزل وإعداد طعام الغذاء بنفسي وقراءة روايةٍ بوليسيةٍ بعد الظهر. فهنالك دائماً روايةٌ بوليسيةٌ يوم الأحد، ألتقي فيها مع بيري ميسون أو مع مارلو أو بوارو. وفي أحيانٍ نادرةٍ قد أذهب لحضور مباراة كرة قدم...

أمَّا يوم الأحد في مدينةٍ أجنبيةٍ فهو الأسوأ على الإطلاق. يومٌ بلا نهايةٍ يمضي فيه الوقت متثاقلاً يأبى أن يمُرَّ. فما أنت بفاعلٍ في مدينةٍ أجنبيةٍ لا تعرف فيها أحداً ولا يعرفك أحد؟ أتتسكَّع في الشوارع؟ لا لقد توقَّفتُ منذ زمنٍ بعيدٍ عن التفكير في لقاء المرأة المنشودة أو أن أعيش المغامرة المرتقبة. لا أصدِّق أنه يمكن مثلاً للقطارات أن تتصادم أو لأحدٍ ما أن يُقتل أو يُولد أو يُدفن يوم الأحد. عليك أن تمضيه بطريقةٍ ما، بأيِّ شكلٍ من الأشكال، بطريقةٍ ستكون على الأرجح سيِّئةً أكثر

منها جيِّدة ومملَّةً أكثر منها ممتعة. خاصَّةً عندما يجد المرء نفسه وحيداً في مدينةٍ أجنبيةٍ ألمانية، وبالتحديد هذه المدينة.

لو كان ماكس صديقي هنا لاختلف كلُّ شيءٍ على الأرجح. كنا لنجلس على الشرفة، إن كانت لديه واحدة، ونحتسي البالينكا[1]، إن كانت لديه زجاجة، ونتحدَّث في موضوعٍ ما أو نكتفي بالصمت والتأمُّل. لكن ماكس ليس هنا، فقد ترك لي رسالةً لدى مكتب الاستقبال في الفندق تفيد بأنه اضطُرَّ إلى السفر على عجلٍ وسيعود بعد ثلاثة أيَّام، وأنا لا أستطيع النوم ولا القراءة، ربَّما تقصَّد ماكس القيام بذلك، ربَّما لم يكن مضطرَّاً إلى السفر أصلاً؛ وإن توجَّب عليه ذلك فمن المؤكَّد لن يكون ملحَّاً لهذه الدرجة. ربَّما تذكَّر كيف أقسمتُ بألا تطأ قدمي أرض هذه المدينة الألمانية أبداً. لا بدَّ من أنه الآن في مكان ما يضحك من كلِّ قلبه شامتاً ويقول: حسناً يا عزيزي، استمتعْ وتمتَّعْ حتى الثمالة بهذه المدينة الألمانية!

أخذ السرير يضيق بي، والأسوأ في كلِّ هذا أن المرء لا يملك القوَّة الكافية ليقفز منه. بالطبع سأقفز، سيتوجَّب عليَّ ذلك ومن المؤكَّد أني سأخرج إلى البولفار لأتجوَّل متسكِّعاً بين ألمان يوم الأحد بحيويَّتهم وأهمِّيتهم وتشتُّتهم ومللهم المقيت. وسأستشيط غضباً وألوم نفسي وأسألها: لماذا أنا هنا؟ عمَّ تبحث، ماذا تريد هنا؟ وسأفكِّر بلهفةٍ في أريكتي المستهلكة في منزلي.

---

1 – Palenka: اسم تطلقه الشعوب السلافية على أي نوع من المشروبات الكحولية المقطرة وخاصة من الفاكهة. (المترجم).

بكلِّ تأكيدٍ قفزتُ من السرير أخيراً. وفي مكتب الاستقبال سألتْني الفتاة الودودة: «أتريد شيئاً يا سيِّدي؟ أتحتاج إلى شيءٍ ما؟ قد تهمُّك بطاقةٌ لحضور الأوبرا أو معرضٍ ما؟ ألا تريد شيئاً؟ ألا تحتاج إلى أي شيء؟».

أومأت برأسي. لا أحتاج إلى أيِّ شيء. لا أريد أيَّ شيء.

- «لقد طلب منا عناية البروفسور أن نعتني بحضرتك جيِّداً».

* «أقدِّر ذلك جدّاً، ولكن شكراً».

مضيت بخطواتٍ متثاقلةٍ نحو المخرج، ورأيت في المرآة المثبَّتة على عمود البهو كيف كانت الفتاة ترمقني بنظرات تفحُّصٍ أو فضولٍ أو ربَّما إعجابٍ حتَّى. خطر لي حينها شيءٌ أفضل من مجرَّد التسكُّع في مساء يوم أحدٍ بائس.

* «متى ستنتهين من عملك اليوم؟». فاجأتُ فتاة الاستقبال تلك بسؤالي غير المتوقَّع.

- «عند السادسة. اليوم بشكل استثنائي عند السادسة»، وابتسمتْ. شعرتُ بالاستياء قليلاً من ابتسامتها تلك، وبأن السؤال لم يتركْ فيها أيَّة حيرة. بل إنها أجابت بكلِّ ثقةٍ ومباشرة بدون إلحاح. شعرتُ بالاستياء أيضاً من تلك الاستثنائية في جوابها، لأنَّ موعد تبديل موظَّفي الاستقبال في أيِّ فندقٍ في العالم يكون الساعة العاشرة مساءً، فوجود هذه الاستثنائية يعني حتماً بأن لديها ترتيباً ما، لذا من المؤكَّد أنها طلبتْ من زميلها في الوردية المسائية أن ينوب عنها اليوم استثنائياً عند السادسة.

* «للأسف». قلتُ لها ذلك وأنا أشاهد كيف تألَّقتْ حدقتا عينيها اللعوبتين، وكيف تقول في نفسها: ما الذي كنت تنتظره أيُّها الهرُّ العجوز؟

- «لمَ الأسف؟». سألتْني ببراءةٍ مصطنعة.

* «لأن موظَّفي الاستقبال في الفنادق يبدِّلون ورديَّتهم عادة عند الساعة العاشرة. وبما أن عملكِ ينتهي عند السادسة فإن لديك ما تقومين به بالتأكيد».

- «ليس لديَّ ما أقوم به. كان لديَّ دوامٌ صباحيٌّ اليوم وطلبتْ مني زميلتي أن أنوب عنها خلال الفترة المسائية حتى الساعة السادسة».

كانت تضحك عليَّ، ولم أكن أستحقُّ غير ذلك. طبعاً كان من الممكن أن يكون الأمر هكذا، قالت لها زميلتها: أحتاج إلى وقت فراغٍ بعد الظهر، نوبي عني، وبالمقابل سأقوم بـ... إنه أمرٌ عاديٌّ وطبيعيٌّ، لكن يمكن قول ذلك بألف طريقةٍ وطريقة. بشكلٍ مباشر، غير مكترث، مملٍّ أو ساخرٍ حتى.

* «وبعد السادسة؟».

- «ماذا بعد السادسة؟».

* «بعد السادسة من المفترض أن تقومي بشيءٍ ما بعد انتهاء عملك. كالعودة إلى المنزل وتناول طعام العشاء والذهاب إلى السينما أو الاستلقاء والقراءة أو الخروج وقضاء الوقت مع فتاكِ، لديك فتى، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها. إذاً لديها فتى.

* «للأسف. أردت دعوتكِ إلى العشاء. كنت آمل أن يكون لديكِ وقتٌ أو اهتمامٌ أو ربَّما رغبة».

- «سيكون ذلك من دواعي سروري». قالتْ. أزعجني ذلك. هذه اللعبة لديها قواعدها القديمة والمبتذلة، لكنها صارمةٌ ودقيقة. الفتاة الشابَّة التي يقوم بدعوتها شخصٌ غريبٌ أكبر منها لتناول العشاء يجب عليها على الأقل التلاعب قليلاً. لكن يبدو أنها تلَّقت الكثير من هذه الدعوات فمن المؤكَّد أنها تعرف ماذا يعني يوم الأحد في فندقٍ دولي. فهي تشاهد وتختبر مثل هذا اليوم لعدَّة مرَّات في العام، حيث ترى ضيفاً أكبر في العمر وهو ينزل باتِّجاه البهو يحادثها عن الطقس ليخرج من الفندق ثمَّ يعود بعد خمسة دقائق يعتريه الضجر، فيمشي متثاقلاً تائهاً في أرجاء البهو، ثم يأخذ من صندوق الإعلانات نشرةً بمواعيد رحلات سابينا[1]، ويسأل نفسه لماذا هو هنا وليس في مكانٍ ما في مونتفيديو. من المؤكَّد أنَّ يوم الأحد رائعٌ في مونتفيديو، يوم الأحد رائعٌ في كلِّ مكانٍ حول العالم، في كلِّ مكانٍ عدا الذي يتواجد فيه المرء حالياً. يتنهَّد بعمقٍ ثمَّ يدع المصعد يأخذه إلى الطابق الذي يقيم فيه، ومن ثمَّ يعود ليظهر مجدَّداً في البهو ويتابع مسلسل الضجر هذا حتى حلول الليل ليخلد بعدها إلى النوم... أو يتوقَّف في مكتب الاستقبال وبعد خمس دقائق يدعو فتاة الاستقبال لتناول العشاء... وما المشكلة في أنها لم تتردَّدْ وكسرتْ قواعد اللعبة التي لم تعد اليوم ساريةً على الأغلب والتي كانت ربَّما ساريةً يوماً ما؟ إنها لذيذةٌ وجميلةٌ ولطيفة...

---

1 - Sabena: الشركة البلجيكية لخدمات الملاحة الجوية، كانت الناقل الوطني لبلجيكا من عام 1923 حتى إفلاسها في عام 2001. (م).

* «أتعنين ذلك حقاً؟». سألتها.

- «ماذا؟ لم أفهمْ».

* «أقصد... العشاء. الدعوة لتناول العشاء...».

- «لمَ لا؟».

* «ولكن... ماذا بشأن الفتى؟ لقد قلتُ إنَّ لديك فتى...».

توقَّفت عن الضحك الساخر وارتسمت الجدِّية على محيَّاها.

- «إنه في مكان بعيد».

فعلاً، لم أفكِّرْ في ذلك. يحدث أحياناً أن يكون الأزواج أو العشَّاق أو الأحباب بعيدين عن بعضهم البعض. وعندما يكونون بعيدين...

* «حسناً إذاً... إن لم يكن لديك شيءٌ أفضل للقيام به...».

- «ليس لديَّ شيءٌ أفضل. ولكن، من فضلك ليس هنا، كما تعلم إدارة الفندق لا تحبِّذ رؤية...».

يبدو لي أنها لم توافقْ فحسب، ولكنها بدتْ وكأنها تتطفَّل. ربَّما من الأفضل التراجع عن الدعوة وتحويلها إلى مجرَّد مزحة. ولكن لماذا؟ لماذا؟ إنها لذيذةٌ وجميلةٌ ولطيفةٌ ويافعة... وفي نهاية الأمر هي مجرَّد فتاة استقبال... هنالك أناسٌ تمثِّل فتاة الاستقبال بالنسبة إليهم نوعاً محدَّداً من النساء، صورةً نمطيةً وأفكاراً مسبقة، فتاة الاستقبال هي فتاة الاستقبال التي... أنا لا أفكِّر فيهنَّ بهذه البساطة ولكنَّ هذا لا يعني أن فتاة الاستقبال هذه لا يمكن أن تكون فتاة الاستقبال تلك... وهنا يكون الإغراء أقوى والفرص أوفر...

* «أتعلمين..»، قلت موضِّحاً، «لا أحبِّذ تناول العشاء بمفردي».

كان مظهرها الساخر مني يتساءل: لمَ كلُّ هذا الحديث؟

- «إذاً أين؟».

* «هنالك مقهى جديد في البولفار».

- «السادسة والنصف؟».

* «السادسة والنصف».

شعرت بأني أحمق أو أخرق، لقد كشفتْني وكشفتْ ارتباكي، ربَّما لن تأتي، ربَّما لم أعدْ أُثير اهتمامها.

عند الباب التفتُّ إلى الخلف.

* «ماذا كان هنا من قبل؟ أتعرفين؟».

- «لم أفهمْ».

* «هنا في هذا المكان، حيث يوجد هذا الفندق».

- «لا أدري، أعتقد بأنه كان فندقاً على الدوام».

لن تأتي. إنه لفي حُكمِ المؤكّد عدم حضورها.

* «إن لم أخطئْ كانت هنا كنيسةٌ قديمةٌ صغيرة فيما مضى».

- «لا أدري، لستُ من هنا...».

* «حسناً عند السادسة والنصف إذاً؟».

- «عند السادسة والنصف...».

قالتها بلا أيِّ حماس. لن تأتي. ربَّما شعرتْ بتفكيري حول أنواع فتيات الاستقبال.

- «حتى الذين هم من هنا، لم يعودوا الآن يعرفون ما الذي كان

قائماً في الأرجاء من قبل». ردَّتْ عليَّ فأومأتُ برأسي وخرجتُ إلى برودة وكآبة ورطوبة يوم الأحد هذا.

كنت أمشي في طريقٍ رئيسٍ واسعٍ وحديثٍ في مركز المدينة الجديد. وعلى جانبَي الطريق انتصبتْ أبنيةٌ سكنيةٌ من ستَّة طوابقَ، ومبانٍ إداريةٌ، ومراكزُ تجاريةٌ، ومكاتبُ سياحيةٌ، ومقاهٍ في الطابق الأوَّل، وفندقٌ جديدٌ آخر، وخرسانةٌ وزجاجٌ وأسفلتٌ وألمنيوم، وواجهاتٌ ضخمةٌ لمراكزَ تجاريةٍ... لكن الشوارع كانت خاوية. هنا وهناك كنت تلمح شخصاً وحيداً يمرُّ مسرعاً إلى مكانٍ ما، وأباً شاباً يحمل طفلاً على ذراعيه، ومجموعةً من السيَّاح المرهقين الذين صعدوا بسرعةٍ إلى حافلاتهم. إنه يوم الأحد وأنا في شارع المدينة الرئيس.

وجدتُ نفسي في القسم القديم والتاريخي من المدينة. لم يبقَ منها الكثير. القصر الملكي، كان فيما مضى واحداً من القصور المعروفة في أوروبا ومن أكثرها شهرة. أعادوا ترميمه بشقِّ الأنفس وقاموا بإصلاحه وتركيبه حجراً حجراً ليعود إلى شكله السابق. ففيما مضى كان يعجُّ بحيوية الأشكال الباروكية، لكنه بشكله الحالي يوحي بالإهمال والكآبة والسواد. لا يمكن للباروك أن يكون أسود، الباروك في حاجة إلى الضوء والبريق والألوان المبهجة.

في الطرف المقابل كانت هنالك مجموعةٌ من البنَّائين يعملون على البازيليكا. الأعمال فيها مستمرَّةٌ ليلاً نهاراً وحتى في يوم الأحد. راقبتهم وهم يرفعون مكعَّباتٍ رمليةً ضخمةً على سقالةٍ عالية. لقد قاموا مجدَّداً بشدِّ الهيكل المعدنيِّ الضخم للقبَّة وتلحيمه، فلقد اضطرُّوا إلى إعادة بنائها بأكملها حيث لم يبقَ أيُّ شيءٍ من تلك القديمة. لم يغطُّوها

بعد بالصفائح النحاسية، لكنَّ ملاكاً ذهبياً عاد لينتصب في أعلى قمَّتها، لم يكن صليباً، وإنما ملاكٌ بجناحين مفرودين يقف على قدمٍ واحدةٍ والأخرى ممدودةٌ نحو الخلف في الهواء ليبدو طافياً في الهواء محلِّقاً فوق المدينة، كأنه يريد تغطيتها وحمايتها بجناحيه الذهبيين الكبيرين. منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ كان هذا الملاك على قمَّة البازيليكا، معلماً من معالم المدينة المميَّزة، كما هو برج إيفل بالنسبة إلى باريس، أو حي هرادتشاني بالنسبة إلى براغ، أو نجمة مبنى الأدميرالية بالنسبة إلى لينينغراد، أو مبنى البرلمان بالنسبة إلى بودابست أو دولاب الهواء الكبير في براتر بالنسبة إلى فيينا. من المؤكَّد أن عدد الصور الملتقطة من هذا الموقع الذي أنظر منه إلى أعمال الترميم، قد بلغ مئات الملايين إن لم يكن المليارات. الملاك الموجود على قمَّة القبَّة، غير المنتهية بعد، ليس أصلياً على الأرجح. لا يمكن أن يكون أصلياً. إنه مصبوبٌ في قالبٍ مأخوذٍ عن نسخةٍ محفوظةٍ في مستودعٍ للفنِّ القديم. ربَّما قاموا بتجديد الملاك مستندين إلى رسوماتٍ قديمةٍ أو سكيتشات أو صورٍ فوتوغرافية.

استقرَّ نظري على الطرف الآخر من الميدان، حيث كان يوجد هنالك فيما مضى مَصرِفٌ مهيبٌ لم يبقَ منه شيءٌ الآن، ويشيدون مكانه اليوم برجاً شاهقاً. كان مصرفاً مرموقاً وعريقاً مغطى حتى سقفه بالرخام الأحمر، مع برجٍ يمتدُّ أعلى المصرف، وعلى قمَّته ينتصب تمثالٌ أيضاً، لم يكن لملاكٍ هذه المرَّة، بل لفورتونا آلهة الحظِّ والنجاح مع قرن الخصب المقلوب.

لم يعد هنالك وجودٌ للمصرف ولا لمبنى "أسيكورازيوني

جينيرالي"[1] المجاور له. إنهم يشيّدون شيئاً ما غير معروفٍ حتى الآن في مكانهما. كان هنالك برجٌ لمبنى "أسيكورازيوني" وعليه تمثالٌ أيضاً، مجسَّمٌ لعملاقٍ مفتول العضلات يحمل بيديه كرةً أرضية. كان تمثالاً يضاهي بأبعاده أبطال رياضة كمال الأجسام.

تماثيلُ عدَّةٌ كانت توجد هنا أعلى المركز التجاريِّ ومبنى البلدية... كلُّ هذا يستحضره المرء في ذاكرته عندما ينظر إلى الملاك المذهَّب أعلى قبَّة البازليكا غير المنتهية بعد. هل كان أصلاً مذهَّباً حينها؟ ألم يكن بلون صدأ النحاس الأخضر؟ لا كان مذهَّباً، لكن تمثال الفارس الملكي في وسط الميدان كان بلون صدأ النحاس الأخضر. كان تمثالاً على طراز الروكوكو[2]، مع حصانٍ بهيئة الروكوكو وملكٍ من زمن الروكوكو. ملكٌ بدينٌ مع باروكةٍ كبيرةٍ على رأسه وبنطالٍ ضيِّقٍ ومعطفٍ مخرَّمٍ، ويحمل في يده -عوضاً عن السيف- ما بدا أنه مخطوطة ورقية قد تكون ميثاقاً أو معاهدةً أو إعلاناً ما. ومع مرور الزمن صَنع التآكل الذي سبَّبه صدأ النحاس أشكالاً عجيبة على سطح التمثال، حيث أصبح للحصان الذي يمتطيه الملك عينان وأذنان وحوافر خضراء مع بقع خضراء على مؤخَّرته. لم يعد هنالك أيُّ أثرٍ للتمثال. حتى قاعدته المصنوعة من الرخام الأسود والتي كان ينتصب عليها... اختفت.

يبدو أن الانقلابات والثورات والحروب ليست في صالح

1- Assicurazione generali: من أكبر شركات التأمين في العالم تأسست عام 1831 في مدينة تريستي الإيطالية. (م).

2- فن ينتمي إلى الزخرفة في العمارة والديكور الداخلي والخارجي، ظهر في القرن الثامن عشر، ويعد امتداداً لعصر الباروك. (م).

التماثيل. فهي واحدةٌ من الأهداف الرئيسة لنزعات التدمير والقتل البشرية. فقد شكّلتْ عيون وأنوف الحكام وبطون الأحصنة والنهود والمؤخَّرات المدوَّرة لحوريات الماء البرونزية العارية أهدافاً محبَّبة للجنود الثملين وهدفاً رخيصاً للانتقام الثوري. فعلى قواعد التماثيل الضخمة يمكن بشكلٍ جيِّدٍ اختبار القوَّة التدميرية للمواد المتفجِّرة الحديثة، وباتت مشاهد الحشود الغاضبة وهي تدمِّر النقوش بأيديها، والدبابة المربوطة بحبلٍ معدنيٍّ ملفوفٍ حول رقبة زعيمٍ مشهورٍ أو مفكِّرٍ إنساني، ظاهرةً شائعةً في التاريخ الحديث للميادين الأوروبية. واحد...اثنان... والتمثال البرونزي ينحني ببطءٍ في البدء ومن ثمَّ يهوي بشدَّة... ليُسمَع على الأرضية الغرانيتية صوتُ رأسه البرونزية المخلوعة وهي تتدحرج مبتعدة... وفي مكانٍ آخر ضربة سيفٍ بارعةٌ تستأصل ثدي الحسناء الباروكية، وطلقةٌ من قنَّاصٍ تقتلع عينها، وحربةٌ حادَّةٌ تصنع لها ثقباً بين ساقيها... أما تماثيل المارشالات فبلا رؤوس، يشهرون سيوفهم المكسورة باتِّجاه الأعداء، يمتطون أحصنتهم ذات الأرجل الثلاث... بينما تماثيل الشُعراء بآذانٍ مبتورةٍ تستمع إلى غناء العصافير في زوايا الحدائق. أما حيث لا ينفع الرصاص ولا القنابل اليدوية ولا الاكرازيت فيأتي دور المعدَّات التقنية، معدَّات القرن العشرين الثورية؛ كآلة القطع باستخدام الأمواج فوق الصوتية؛ حيث يقطعون المجسَّم الغرانيتي للطاغية المكروه إلى أجزاء، منهين بذلك ذكراه الخالدة التي لم تعمِّر أكثر من عقد.

أوروبا هي موطن تماثيل فينوس الرخامية المغتصبة ورماة الرماح

مبتوري الأيدي وبوتو[1] المخصي. فقط مانيكه بيس[2] يقف باستخفافٍ في مكانه المعتاد غير خائفٍ من أن يقوم جنديٌّ ثملٌ بإصابة عضوه.

طبعاً، هنا في هذه المدينة، كلُّ شيءٍ حدث بطريقةٍ مختلفة. عندما وصل الجنود إلى هنا لم يجدوا ما يطلقون عليه الرصاص، لم يجدوا ما يقطعونه، لم يجدوا ما يفجِّرونه. هنا في الطابق الثاني لمبنى الأسيكورازيوني جينيرالي الذي لم يعدْ له وجودٌ اليوم، استقرَّتْ في مكتب المدير العام عربة ترام. كان البرونز والرخام والغرانيت يحترق هنا، الناس والأشياء فقدت أشكالها ومكوِّناتها...

عدتُ إلى البولفار. مشيتُ لمسافة كيلومترٍ واحدٍ وفجأةً انتهى كلُّ شيء، البولفار والمدينة... كلُّ شيءٍ انتهى. فخلف آخر بناءٍ حديثٍ اليوم، كان يمتدُّ فيما مضى مركز المدينة، المنطقة الأكثر حيوية وتميُّزاً وعمراناً وثراءً فيها، والشارع التجاري الذي يوجد فيه فندق هانديلشوف ذو الخمسة عشر طابقاً والمعروف بارتفاعه الشاهق، حيث نصبت على سطحه بطَّاريةٌ مضادَّةٌ للطائرات من ستَّة مدافعَ بفوَّهاتها الطويلة المتحرِّكة. أما على الجهة المقابلة وسط الميدان المستدير كان يقف بشموخٍ مبنى الأوبرا، واحدة من أشهر دور الأوبرا في أوروبا إلى جانب مسرح "لا سكالا" في ميلانو. ومباشرةً خلف ميدان الأوبرا كان يوجد الحيُّ القديم بحاراته الملتوية المتشابكة والذي شكَّل الجزء الأقدم من المدينة.

1- Putto: طفل صغير عار يشبه الملاك ولكن من دون أجنحة كان من عناصر الزينة الشائعة في عصر الباروك و الروكوكو. (م).

2- Manneken piss: تمثال برونزي شهير في بروكسل لطفل يتبول في نافورة. (م).

إنه لا يزال يشكِّل، هندسياً وطبيعياً، مركز المدينة الحقيقي؛ فهو محاطٌ من كلِّ الجهات بضواحٍ على أطراف المدينة. لكن لا يوجد فيه أيُّ شيء، لا شيءَ أبداً، سوى مسار خطٍّ سكَّة الحديد المدعَّم بالطوب، يظهر بعيداً في الخلف. هنالك أيضاً شيءٌ آخرُ يظهر في المنتصف، لكن لا يمكن تمييزه من بعيدٍ ماذا كان وماذا أصبح. عدا ذلك لا يوجد أيُّ شيءٍ هنا. مجرَّد هضبةٍ مقفرةٍ فارغةٍ تقطعها ثلاث طرقٍ إسفلتية رئيسة، تمرُّ عليها بين الحين والآخر سيَّارةٌ عابرة. عدا ذلك لا شيءَ هناك، لا شيءَ أبداً، لا وجود لفندق "هانديلشوف" أو ميدان الأوبرا أو أيَّ حاراتٍ متشابكةٍ ضيِّقة. فقط المسَّاحون يمكنهم وفق المخطَّطات القديمة للمدينة أن يحدِّدوا ما الذي كان قائماً في الأرجاء.

تابعتُ المسير عبر الهضبة المقفرة نحو ذلك القسم الأسود المهترئ عديم الشكل في الوسط. لقد نظَّفوا المكان هنا تماماً، غطُّوه بالحصى والطين ومهَّدوه باستخدام الجرَّافات، ومع الوقت همد الطين والحصى فأصبح قاسياً، يمكن لعب كرة القدم هنا. حتى الطائرات يمكنها أن تحطَّ هنا؛ كان ليكون مطاراً مميَّزاً، الوحيد في العالم الموجود في مركز المدينة. الأرض هنا مستويةٌ وملساء، مكسوَّةٌ بعشبٍ محروق وممهَّد، لم تكنْ مجرَّد حشائشَ ضارَّةٍ بل عشباً. لا أعتقد بأن المنظر يبدو كئيباً هكذا في الربيع، لكن الآن، الهضبة كلُّها صفراءُ صدئة. في أيِّ مكانٍ آخرَ في العالم كان لينمو في مثل هذه الخرابة الأقحوانُ البرِّي والشيح ونبات قرِّيصٍ يصل ارتفاعه إلى مترٍ واحد، أمَّا المساحات الواسعة فكانت لتغلب عليها نباتات البلسم وعنب الثعلب البرِّي وغطاءٌ واسعٌ من نبات الخمان... لكن هنا لا يوجد شيءٌ

مماثل، لا يوجد سوى العشب المحروق. أما الحشائش الضارة فقد قُضي عليها بالمبيدات. ويبدو أنهم يبذرون الفجل كلَّ ربيع. كثيراً ما ثابرنا أنا وتشارلي على التجوُّل هنا، مصرِّين على التوقُّف عند واجهات المتاجر الخاوية من كلِّ شيء، عدا لافتاتٍ تعدُ بأن شركة "أغفا"[1]، بعد تحقيق النصر، ستعاود تقديم منتجاتها ذات الجودة العالمية لهواة التصوير، وأن كاميرات "روليفليكس"[2] العالمية ستُطوَّر مجدَّداً، وبأن الفرو قد سُلِّمَ ليستخدم في الحرب الشتوية في روسيا، وبأن الجنود اليوم يشربون براندي "شارلخبيرغ"[3] بجودته العالية المعهودة، وبأن مسحوق الغسيل "بيرسيل" سيعود؛ لقد كانت واجهات المتاجر تلك حزينةً وكئيبة.

كان منظر المتاجر الخاوية يُشعر تشارلي بنوعٍ من السعادة المنحرفة، فقد كان يجيد التمتُّع بهذا المنظر لساعاتٍ عدَّة، ورق أوميغا المقوى، وأغلفة "أسبرين باير" الفارغة، ومجسَّمات الأناناس الزجاجيِّ في نوافذ مطاعم المأكولات الخفيفة، وشعاراتٌ متبجِّحةٌ على ورق كورنيش باهت، وأقوالٌ لهتلر وغوبلز، وإشعارات عن تقليص حصص اللحم، وملبوساتٌ جاهزةٌ رديئةٌ معروضةٌ في دور أزياء رائدة، وقَسَمٌ هنا ووعدٌ هناك، شعارات وعبارات... كلُّ ذلك كان تشارلي يعلِّق

1- Agfa: شركة عالمية متخصصة بمعدات التصوير تأسست عام 1867 في برلين. (م).

2- Rolleiflex: علامة تجارية خاصة بآلات التصوير الفوتوغرافي الاحترافية التي تنتجها شركة Rollei الألمانية. (م).

3- Scharlachberg: من أشهر أنواع البراندي الألماني. (م).

عليه بملاحظاتٍ حادَّة تتخلَّلها موجاتٌ من السعادة والغضب العارم. وبعد الانتهاء من جولةٍ كهذه لدى "التاجر المنكوب" كان دائماً ما يقول بسعادةٍ مفرطة مراراً وتكراراً:" منتصرون، منتصرون، منتصرون إلى دمارنا سائرون...".

مشيتُ عبر شوارع وميادين وأزقة وأبنية ومعالم المدينة الخيالية التي كانت موجودةً وجوداً ضبابياً في ذاكرتي. لم يتبقَّ شيءٌ من القصور والمحلات التجارية والمعارض والمصارف. لقد جُرفتْ وسُوِّيتْ بعد الحرب، فالحُفر والأقبية المكشوفة الممتلئة بجثث القتلى ورائحتها الكريهة، طُمرتْ بهريس جنوني من الآجرِّ والخرسانة والجصِّ والرماد والخردة والطعام والقماش والأحجار والزجاج والعظام والصفيح والجلود... وما إلى ذلك ممَّا هو حيٌّ أو ميتٌ ويجعل من المدينة مدينةً. في يوم ما ستصل معدَّات الحَفر إلى هذه المادَّة؛ إلى هذا المزيج القاسي، وسيكتشفون ويعثرون على أشياءَ مذهلةٍ نادرةٍ ومرعبة. اليوم تشكِّل الهضبة القبر الجماعي الوحيد، حيث يمكن التكهُّن بوجود متاهة، من الأماكن والمرائب والمستودعات والخزائن والأقبية والقنوات والملاجئ المردومة والمحفوظة تحت سطحها الممهَّد. ستُخرِج الحفَّارات ذات يومٍ من الأعماق إلى النور، هياكلَ مهشَّمةً لبشرٍ لم يحزنْ عليهم أحد، حتى وقت مماتهم، لأنَّ أياً من محبيهم والمقرَّبين إليهم لم يبقَ على قيد الحياة. ففي أماكنَ عدَّةٍ تقوم آلات الحفر الفولاذية بنزع سقف القبو المحفوظ، ليتكشَّف مشهدٌ مريعٌ لبقايا المخنوقين والجائعين، ولهياكلَ مغطاةٍ ببذلاتٍ مغبرةٍ، ولبقايا امرأةٍ شابَّةٍ مستلقيةٍ على فراشٍ متعفِّن، كانت حتى آخر لحظةٍ تنتظر بأن

تخرجها فرق الإنقاذ من تحت الأنقاض. كانت جدران القصر الملكي المرمَّم من خلفي تُبدي سوادها، وعلى القبَّة غير المكتملة للبازيليكا يشعُّ ملاك هذه المدينة، كانت في مقدوري رؤية بداية البولفار الحديث الذي كان يبدأ من العدم وربَّما بعد عدَّة كيلومترات ينتهي في مكانٍ ما في العدم. مدينةٌ كهذه يمكن تدميرها خلال ليلةٍ واحدة. ففي يومنا هذا يمكن خلال ليلةٍ وفي لحظةٍ واحدةٍ إحداث دمارٍ أكبر من أيِّ مدينةٍ موجودةٍ حالياً. أمَّا بناء مدينةٍ جديدةٍ كلِّياً، أو حتى إعادة إعمار واحدةٍ مدمَّرةٍ، فيحتاج إلى قرونٍ عدَّة.

فجأةً مرَّ كالبرق بالقرب من قدمي جرذٌ سمين، سمينٌ كعجل. ارتعشتُ قليلاً. إذاً فالهضبة ليست خاليةً من الحياة كما تبدو. يوجد تحتَها عالمٌ من الرطوبة والظلام، عالم الخفافيش والفئران والديدان والفراشات الليلية وخاصَّة الجرذان؛ ملايين الجرذان التي لم تتمكَّن أيُّ حضارةٍ من إبادتها. لا بدَّ من أنها بحثتْ في كلِّ الأماكن والحفر والأقبية والملاجئ والمستودعات المتبقِّية والمطمورة كي تقيم الولائم الحافلة. أما الآن فقد ولَّتْ سنوات رَغدِهم ولم يتركوا شيئاً لم يقوموا بقضمه، فأصبحوا مضطرِّين إلى الصعود إلى السطح والبحث في الأفنية والمجارير، والتحرُّك ليلاً بسرعةٍ حول المباني يقرضون كلَّ شيء في محاولة للنفاذ إلى مخازن الطعام والخضار... لكن من المؤكَّد وقتها، أن المكان كان بالنسبة إليها أشبه بالجنَّة، ولا بدَّ من أنها تكاثرتْ كثيراً.

ارتعشتُ. أسرعتُ في المشي. ولكن لم أستطعْ أن أهرب، لم أستطعْ أن أفلت من ذلك الأمر، فلقد بدأت تتغلغل إلى وعيي صورة

وجه كان بادئ الأمر مشوَّشاً، لكنه أصبح واضحاً تدريجياً، وجهٌ محدَّدٌ لامرأةٍ محدَّدةٍ لم أكن أريد التفكير فيها، والتي كنت أجيد تحاشيها في ذكرياتي دائماً... أجيد ولو في آخر لحظةٍ طردَ صورتها من مخيَّلتي. لقد تسبَّبت لي بشعورٍ من الإثارة والارتباك لم أكنْ أتوقَّع حدوثه. وقد عزَّز من شعور الإثارة هذا منظر ذلك القسم الأسود الكئيب الذي يتوسَّط الهضبة، كانت خرابةً غير متجانسةٍ ملسوعةٍ بألسنة النار. وبينما كنت أقترب منها، أدركت ما يمكن أن تكون... عرفتها من دون أيِّ مجالٍ للشك. تهدَّمت الأسقف لكن بقيت الجدران الضخمة صامدةً منتصبةً للأعلى وبعرضِ أربعة أمتار. وبدلاً من النوافذ كانت هنالك ثقوبٌ مظلمةٌ خاويةٌ بدتْ في الغسق وكأنها عيونٌ مفقوءة. لقد قُصَّتْ جميع المشابك عنها على ما يبدو، فكلُّ قطعة حديد، كلُّ قطعة خردةٍ كانت ثمينةً هنا.

أُحيطَت الخرابة من كلِّ جوانبها بسلكٍ شائك، ولكن في كلِّ مكانٍ في العالم يوجد أولاد، وفي هذه المدينة يوجد أولادٌ أيضاً. ولا بدَّ من أن هذا المكعَّب الكئيب جذب تصوُّراتهم الرومانسية وحفَّز مخيَّلاتهم؛ ففيه العديد من أماكن اللعب والمخابئ! وتلك الفتحة في السور الشائك لم يكن ليصنعها سوى الأولاد. استطعتُ من خلالها اجتياز البوَّابة الضخمة لأصل إلى الفناء. فوجئت بكونه نظيفاً، خالياً من أيِّ قذاراتٍ يمكن أن تغطِّيه، كان قد نُظِّف بدقَّةٍ لا يمكن تصديقها. حتى بدا منظر الفناء النظيف شديد الغرابة وسط الجدران المحروقة. لا أعرف أين بالضبط، ولكن هنا في هذا الفناء كان الجلَّادون يقطعون بواسطة الفؤوس رؤوس المحكومين بالإعدام. بالفؤوس. لم يستخدم

الألمان في كلِّ مكانٍ الفؤوس للإعدام، لكن هذا السجن اشتُهر بأنهم كانوا يفصلون فيه الرأس عن الجسد باستخدام الفأس.

لماذا لم يهدموا هذه الخرابة أيضاً بعد الحرب في أثناء تنظيفهم للهضبة؟ بالطبع لن يكون ذلك بالأمر السهل، ولكنه مهملٌ مقارنةً بمجمل أعمال التنظيف التي بُذلتْ. أيريدون جعلها معلماً تذكارياً؟ أيتعمَّدون ذلك؟ كنقطة علام أم تحذير؟ كذكرى دائمة للذين أعدموا أم كذكرى لهذه المدينة؟ يبدو أن هذه الجدران المتبقِّية هي الوحيدة التي في وسعها أن تعطي المرء تصوُّراً عن حجم ومساحة المدينة المدمَّرة. هنا احترق المئات وهم أحياء بعد أن تركتْهم الشرطة تحت رحمة النيران الفسفورية...

خرجتُ مسرعاً متَّجهاً نحو الفندق، لكن راودني شعورٌ مُلِحٌّ بضرورة القيام بعملٍ ما، بشيءٍ لا يمكن تأجيله ولا بدَّ من أن يتمَّ الآن حالاً. فاستقللتُ مركبةً كانت في الموقف وانطلقت عابراً هذه الأرض المقفرة فوق واحدةٍ من الطرق الإسفلتية الثلاثة إلى حيث كانت وما زالت المدينة الحدائقية قائمة؛ وعندما بدا لي أني وصلت إلى المكان المنشود توقَّفتُ وذهبتُ أبحث عن ذلك المنزل. لكن عبثاً، فلم أستطع العثور عليه...

لم أعثرْ على ذلك الشارع ولا على ذلك المنزل. حلَّ الظلام الحالك بسرعة، الشوارع في الأحياء الحدائقية متشابهةٌ إلى حدٍّ كبير، فيلاتٌ مبنيةٌ عميقاً داخل الحدائق مع أسوارٍ من الطوب أو الأسلاك تنمو عليها نباتات البهشية أو الليلك أو الورد المتسلِّق أو الفورسيثيا، مع أشجارٍ ضخمةٍ ونباتات طباقية، حيث لم يكن ممكناً في الظلام تمييز

العمارة أو الحجم ولا أيِّ صفاتٍ مميِّزةٍ أخرى للمباني. مررتُ تباعاً بكامل شوارع الحيِّ وأنا أقرأ أسماءها، كان من الممكن أن يكون أيَّ شارعٍ أو منزلٍ منها، فبعد كلِّ هذه السنين تختفي من ذاكرة المرء الكثير من التفاصيل، كنت أعرف فقط بأنه كان منزلاً كبيراً، فيلا كبيرة مع سورٍ من الليلك، وأمام المنزل كانت هنالك شجرة صنوبرٍ ثمريٍّ كبيرةٌ وسليمة... لكن يوجد هنا الكثير من أسوار الليلك وأشجار الصنوبر الثمري السليمة ويصعب على المرء في هذا الظلام تمييز ذلك؛ كان يمكن أن يكون زقاق هولديرلين وشارع ريلكي وشارع كلوبشتوك وزقاق هيردير، ولكن كان يمكن أن يكون أيضاً زقاق هولونديز وشارع بفيرزيغ وزقاق فيلخين وشارع روزين، كذلك كان يمكن أن يكون شارع لوتزوف وبلوخير، كان يمكن أن تكون أيٌّ واحدةٍ منها، ففي الإضاءة الخفيفة بدتْ جميعها متشابهة، والمباني داخل الحدائق بدتْ متشابهة، والأشجار أيضاً بدتْ كذلك...

أكان هنالك ليلك؟ طبعاً كان هنالك ليلك. وشجرة صنوبرٍ ثمريٍّ متوسِّطيةٌ قديمةٌ ذات أوراقٍ إبريةٍ غير كثيفةٍ وطويلة. لكن كم من السنين يعيش الليلك؟ قد كانت حينها نبتةً قديمة. ربَّما اقتلعوها أو أعادوا زرعها أو زرعوا شيئاً آخر مكانها، وفي الظلام يصعب إيجاد منزل من دون اسم الشارع والرقم.

لم أقوَ على تذكُّر سوى كونه شارعاً عَرْضياً يُفضي إلى طريق المدينة الرئيس، وعند الناصية كان هنالك موقفٌ للترام وحانة، وفي الطرف المقابل كان هنالك مصنع السجائر الذي كان يعمل فيه تشارلي.

عثرتُ فوراً على الطريق الرئيس، شارع هاوبت، وتعرَّفتُ أيضاً

إلى مصنع تشارلي، مع أن المئذنة التي كنا نسخر منها أنا وتشارلي لم تعدْ تُطلُّ عليه. لم تعد المئذنة تُسيء إلى منظر المدينة، لكنه كان بكلِّ تأكيدٍ مصنع تشارلي. انتقلتُ إلى الطرف المقابل من تحت جسر سكَّة الحديد العلوي حيث كانت تبدأ مباشرةً بعد المسار المدعَّم لخطٍّ سكَّة الحديد مستوطنةُ منازل عمَّال السكك الحديدية، هنا كنت أسكن مع تشارلي في المبنى الثالث من الناصية، تعرَّفت فوراً على المنزل، على الرغم من إضاءة المصباح البعيد الخافتة، كان في الإمكان ملاحظة أنهم يعتنون به، لقد كان نظيفاً ومطلياً حديثاً... من يسكن فيه الآن يا ترى؟ مالكة المنزل، أرملة عامل السكك الحديدية، لم تعدْ حيَّةً منذ زمنٍ بعيدٍ على الأرجح. حتماً أناسٌ غرباُء يسكنون هنالك الآن، لا يعرفون شيئاً عني وعن تشارلي أو حتى عن أرملة عامل السكك الحديدية. الأرملة لم تعدْ على قيد الحياة على الأغلب وكذلك تشارلي مات منذ زمنٍ بعيدٍ جدّاً وبمنتهى الغباء والتفاهة، وبالكاد يوجد في هذا العالم عشرة أشخاصٍ غيري يذكرونه من وقتٍ إلى آخر.

خلال اللحظات التي أمضيتُها واقفاً هناك مرَّ في ذهني شريط ذكرياتي مع تشارلي كاملاً، تلك الأشهر التي عشناها معاً والتي لا يمكن قياسها بأيِّ وحدةٍ زمنية، حيث لم يكن للأبدية أو الدقيقة أيُّ معنى. كان لقاءً مصيرياً فاصلاً بين الحياة والموت. هي تلك اللحظات التي تختزل فيها حياة الإنسان بين لقاء يتمُّ لينجو أو لا يتمُّ فيقع ضحية وحدته الذاتية، تلك الوحدة الكونية الكاملة المطلقة حيث لا أرض من تحتك ولا سماء من فوقك، لا شيء على الإطلاق سوى ضعفك وقلَّة حيلتك. يداك عاجزتان، قدماك عاجزتان، ودماغك يتحوَّل إلى خوفٍ

مطلقٍ لا مكانَ فيه لشيءٍ آخر. إنه خوف الجرذ الذي صُعقتْ غريزةُ البقاء لديه بضربة هراوةٍ متوقَّعة. خوف الوشق الواقع في الشرك لدى سماعه خطوات الصيَّاد وهو يقترب. خوف إنسانٍ تقتله الوحدة، إنسانٍ ينازع، إنسانٍ في ساعته الأخيرة.

تملَّكني غضبٌ قديم، غضبٌ حانقٌ قديم، ذلك الذي شعرت به لدى معرفتي كيف ولماذا مات تشارلي. تستحقُّ هذه المدينة ما حدث لها، نالتْ ما تستحقُّه...

نظرت إلى ساعتي. كان لا يزال لديَّ بعض الوقت، وأردتُ، بل توجَّب عليَّ، العثور على ذلك المنزل، فصبيَّة قسم الاستقبال لن تأتي على أيَّة حال، أعتقد بأنه أمرٌ بسيط، سأعود إلى شارع هاوبت وأتابع المسير بشكلٍ مستقيم ولا بدَّ من أن أصادفه.

لكن حدث شيءٌ لم يكن في الحسبان. الذاكرة تُبسِّط الأمور كثيراً. وتُعيد إنتاج كلِّ شيءٍ بطريقةٍ مشوَّهةٍ وغير دقيقة. كم من مرَّةٍ مررتُ من هنا؟ لكن الشارع الذي بقي في ذاكرتي على أنه مستقيمٌ تفرَّع كالشوكة فجأة. أيُّ شارع هو؟ شيليغ؟ أم كلوبشتوك؟ قطعتُ الشارع الأوَّل حتى نهايته والثاني حتى نهايته ولم أعثرْ على ذلك المنزل. لا بدَّ من أن يكون هنا في مكان قريب جدَّاً ولكن في شارعٍ آخر...

- 2 -

ذهبت إلى ذلك المقهى، ذهبت لأتأكَّد من أنها لن تأتي. لماذا ستأتي؟ وما الذي سأحصل عليه من ذلك لو أتت؟ لن تأتي، وهذا جيِّد...

كانت تجلس في الزاوية تتصفَّح مجلَّةً أسبوعيةً مصوَّرة. نَهضَتْ ومدَّتْ يدها. ابتسمَتْ بغموضٍ فلم تُظهر ابتسامتَها ولم تُخفيها. جلستُ بقربها. شعرتُ بأني كنت مضحكاً وغير واثق. كان يمكن أن أكون أباها، ولكن حتى لو كنت والدها حقّاً، سيفسِّر الناس من حولي الأمر بطريقةٍ أخرى. هذا لا يعني بأني أكترث لما كان سيظنُّه الغرباء من حولي، ولكني أعرف ما كنتُ سأعتقده بنفسي لدى رؤيتي لقاءً كهذا في المقهى، فقد كنت أصادف مثل هذه اللقاءات وأعلِّق عليها حرفياً: هرٌّ عجوز. يُقال إنه أمرٌ طبيعي، لكن هل بتُّ أنتمي إلى أولئك الذين بدأ الأمر لديهم يصبح طبيعياً؟ كنت غاضباً من نفسي ويبدو أن ذلك كان جلياً. توقَّف الحديث بعد بضع كلماتٍ تقليديةٍ وأخذتُ أفكِّر هل أبدؤه، هل أحييه؟ وهل لذلك معنى أم هل من الأفضل أن أنهيه مختلقاً الأعذار بأني منهكٌ أو بأني صادفتُ أحد معارفي الذي دعاني لأيِّ شيء.

لم يكنْ من الصعب لفتُ انتباه فتاةٍ يافعة. بل على العكس، كان الأمر في منتهى السهولة، فهنالك وصفةٌ قديمةٌ ناجحةٌ دوماً للقيام بذلك... ذكرياتٌ عن رحلاتٍ بعيدةٍ مع لهجةٍ توحي بالتعب من هذه الحياة. شاطئ الإسكندرية والمناورات البحرية في سنغافورة... قريةٌ في التايغا... تَعرٍّ في باريس... المطبخ الصيني... كيف يجب شرب الفودكا... أحدث أفلام بيرغمانوف. معرفةٌ شخصيةٌ بأحدٍ ما، لا يهمُّ إن كان حقيقياً أم مختلَقاً في تلك اللحظة... ياه! يداك جميلتان ذاتا منظرٍ نبيل، نحيفتان وطويلتان... هل شَربتِ كالفادوس[1] من قبل؟ كلا؟ لم يفُتْكِ شيءٌ إذاً، إنها مجرَّد قذارة، فقط ريمارك[2] أوحى لملايين العقول بأنها شيءٌ ممتاز... لكن عينيكِ مميَّزتان، مميَّزتان للغاية... جميلتان بكلِّ تأكيدٍ، لكن أيضاً مميَّزتان للغاية...

كان في إمكاني القيام بذلك. إنه طقسٌ قديمٌ مجرَّبٌ نادراً ما يفشل بما يحتويه من قوانين المبادرة والمتابعة والنهاية. كان في وسعي القيام بذلك، لكن لماذا؟ عشرون ليلة وليلة؟ مئة ليلة وليلة؟ ألف ليلة وليلتان؟

«هل تَجوَّلتَ في المدينة؟». سألَتْني في محاولةٍ يائسةٍ لإنهاء هذه الحالة المحرجة. أومأتُ برأسي. تجوَّلت.

– «يبدو لي المكان هنا بأنه لن يكون يوماً ما مدينة. مدينة حقيقية، أتفهمني؟ مدينة كهامبورغ».

* «لماذا هامبورغ بالتحديد؟».

---

1 – نوع من البراندي الفرنسي. (م).

2 – روائي ألماني، اشتهر أبطاله بشرب كالفادوس. (م).

- «أنا من هنالك. ولدتُ وترعرعتُ فيها. لقد لحق دمارٌ هائلٌ أيضاً بهامبورغ لكنها اليوم مدينةٌ كبيرةٌ وعصرية».

* «أأتيتِ من هامبورغ إلى هنا؟».

أومأتْ برأسها وهي تبتسم وكأنها تعتذر عن ذلك. يا إلهي! أيحدث هذا أيضاً؟ أعرفُ أن الكثير من الشباب يغادر من هنا إلى هامبورغ ولكن بالاتّجاه المعاكس! أيحدث ذلك أيضاً؟

* «هل يمكن أن تخبريني لماذا؟».

- «لا أعرف، ربَّما كان عملاً أحمقَ مني، لكن كنت أريد معرفة أمرٍ ما هنا، والعثور على شيء ما...».

* «وهل عثرتِ عليه؟».

هزَّتْ رأسها بيأس. «لا».

* «الحظ؟».

لا، ليس الحظ، هزَّت برأسها.

* «الحب؟».

- «ولا الحب».

* «معنى للحياة؟ معنى جديد وأكثر عمقاً؟».

- «لا، لا، إنها مجرَّد كلمات».

* «إذاً ماذا؟».

- «لا أعرف كيفية إخبارك بذلك ولا أستطيع. إنه أمرٌ شخصيٌّ متعلِّقٌ بي وحدي. لا يمكن لأحدٍ أن يساعدني فيه. لا بدَّ من أني في منتهى الغباء».

حسناً. أعرف هذه اللعبة أيضاً. يمكن أن أقدِّم فيها الإسكندرية وسنغافورة. لقاء مع لولو بريجيدا[1] عندما لم تكنْ بعدُ بهذه الشهرة. مأدبة طعامٍ صينيةٍ وإسراف بشرب الفودكا في موسكو. أما هي، هذه الصبية، لقد كانت صغيرةً كثيراً على ذلك ولكن هذا لا يعني بأنها كانت عاجزة. لديها مشاكلها غير القابلة للحل، يأسها من نفسها، ودوافعها التي جعلتْها تأتي من هامبورغ إلى هنا إلى هذه المدينة. أسرارها التي تخصُّها لوحدها. وضعفها المثير: انصحني، أنقذني، خبِّئْني في كنفك الآمن... إنك شخصٌ واثقٌ وذو خبرة، إنك رائعٌ وأنا ضائعةٌ في هذا العالم... أنا حمقاءُ لم أرَ أيَّ شيءٍ ولم أختبرْ أيَّ شيءٍ ولم أعرفْ أيَّ شيء...

توقَّفتُ عن الإلحاح. ولم يكن ذلك بداعي عدم الاكتراث أو الاهتمام. هذه الصبية أتت من هامبورغ إلى هنا وهذا لوحده كفيلٌ بجعل المرء يريد معرفة السبب من وراء ذلك. لكنها ستفصح عنه لوحدها عندما أكفُّ عن الإلحاح.

«كنا ننوي الذهاب لتناول العشاء...». غيَّرتُ مجرى الحديث. لاحظتُ عليها خيبة الأمل. بالطبع كان عليَّ أن أطلب منها وأتوسَّل وألحَّ عليها. كي أنتزع منها أسرارها اليافعة، إن وُجدتْ أيُّ أسرار.

شعرتْ بالإهانة. نهضتْ مع أنها بدتْ أكثر وكأنها قفزت. وشعرتُ مجدَّداً كم أنا مضحك عندما كنت ألحق بها وهي تتبختر عبر المقهى! ساعدتُها على ارتداء معطفها. وخرجنا إلى البولفار المُضاء.

---

1 - Luigina Lollobrigida: ولدت في 4 تموز 1927 هي ممثلة ونحاتة ومصورة صحفية إيطالية. (م).

* «أين سنذهب؟». استمررتُ بمضايقتها.

- «أينما تريد. لا فرق عندي...».

* «هل تعرفين المدينة؟ أنا هنا لأوَّل مرَّة... في الواقع لأوَّل مرَّةٍ منذ أن توقَّفتِ هذه المدينة عن كونها مدينة».

- «يمكننا إن أحببت الذهاب... إلى "إليفانت"...».

نعم يمكننا الذهاب إلى "إليفانت". لقد سمعتُ بأنهم أعادوا ترميم ذلك المطعم الليلي المشهور. لم أذهبْ إلى القديم من قبل. لكن تشارلي كان يحبُّ التلاعب بالنار وقد كان هنالك لمرَّتين أو ثلاث.

انعطفنا إلى جادةٍ مظلمةٍ بين الخرابات. توقَّفتِ الصبية بقربي..

- «أمسِكْ بي، أشعرُ بالبرد...».

ياه! لم أكن لأتوقَّع ذلك. احتضنتُها من خصرها ومشينا. كانت تمشي بسرعةٍ بالقرب مني، بدا الأمر وكأني أحملها. كان في وسعي الشعور بدفء جسمها الطريِّ من خلال طبقتين من الملابس الشتوية.

وسط الخراب ظهر بناءٌ كان قد نجا من الدمار مع فانوسٍ يُضيء فوق مدخله الرخامي الجديد. فيلٌ أسودُ يقف على قائمتين في حقلٍ أحمر. كان هنالك فانوسٌ مشابهٌ معلَّقٌ فوق مدخل مطعم "إليفانت" القديم، لكنه لم يكن يُضيء وقتها. إنها مجرَّد محاولةٍ لإضفاء طابعٍ تقليديٍّ على المكان مستغلِّين القوَّة العاطفية للتقاليد. لكن مطعم "إليفانت" القديم المشهور لم يكن في هذا المبنى. لم يعدْ في إمكان أيٍّ كان اليوم أن يجزم أين كان موقعه.

توقَّفت الشابَّةُ الألمانية التي بقربي. شعرتُ ورأيتُ كيف أصابتْها الرعشة وارتجف جسدها وعيناها وفمها.

«ألن تقبِّلني؟». عرضتْ عليَّ ذلك بنفسها.

* «أعليَّ تقبيلك؟».

أومأت رأسها موافقة، فقبَّلتُها. مرَّ زمن طويل منذ أن قبَّلتُ امرأةً في الشارع. كانت للصبيَّة شفتان صغيرتان باردتان رطبتان شهيَّتان، لهما مذاق توت العُلَّيق.

أردتُ تقبيلها مرَّةً أخرى، لكنها انتفضتْ وأفلتتْ مني مبتعدةً بضع خطواتٍ للوراء وتوقَّفتْ عن الرجفان وهي ترمقني بنظراتٍ عدائيةٍ وقتاليةٍ ملؤها التحدِّي.

* «ما الأمر يا حبيبتي الصغيرة؟».

- «أبي كان مجرم حرب وشنقوه». نطقتْها بصوت خافت، لكنها كانت صرخة؛ صرخة جعلتْ نَفَسي يجمد في داخلي لبرهة. أردتُ أن أنسى أني هنا، في هذه المدينة، في هذا البلد. أردتُ مغازلة فتاةٍ ألمانيةٍ يافعة. لكنَّ الأمر لم ينجحْ، إنه ليس بهذه السهولة، في هذا البلد المعقَّد المجنون المليء بالمشاكل والإعاقات والأمور غير الطبيعية. أحد معارفي، الذي عاش هنا لبعض الوقت في فترة ما بعد الحرب مباشرة، أخبرني عن سهولة التقرُّب من النساء الألمانيات. فمعظم الرجال من مواليد عقدين من الزمن كانوا قد اختفوا تماماً، لذا يمكن لرجلٍ ذي دخلٍ جيِّدٍ أن يصنع لنفسه حَرملكْ. كان الأمر واقعاً حينها لكنك كنت تشعر في حديثه بنوعٍ من الاشمئزاز لذلك. اليوم هنالك جيلٌ جديد، جيلٌ فتيٌّ، لكنه يبدو مشابهاً لذلك، أو لهذه...

انتظرَتْ، بل كانت متعلِّقةً بفمي وبما سينطق وبالذي سأقوله لدرجة

جعلتْني أهتزُّ لذلك. عليَّ إيجاد مخرجٍ من هذا الموقف حالاً، الآن! فالأمر لم يعدْ يحتمل أيَّ تأجيل. يمكنني الالتفات والمغادرة من دون أن أنطق بحرف، أو يمكنني الابتسام ملوِّحاً بيدي غير مكترث. لكنها كانت تريد إجابة، إجابةً لم يكن في وسعي تفاديها حتى لو غادرتُ من دون أن أنبس ببنت شفة. ربَّما أصبح لديها بعض الخبرة في مواقفَ كهذه. ربَّما لم أكنْ أوَّل من فاجأتْه بهذا الأمر، فلقد كانت مفاجأتها جاهزةً ومثاليةً للغاية. ربَّما هي مستعدَّةٌ لكلِّ شيءٍ وموافقةٌ على أيِّ شيءٍ مسبقاً. إنها مفاجأةٌ مثاليةٌ، لكن لديها نقطة ضعفٍ واحدة؛ لم تأخذ الفضول في حسبانها. هل فعلاً لم تأخذه في حسبانها؟ أليس هذا نوعاً من حُبِّ الظهور لديها؟ سأكتشف ذلك...

تغلَّبتُ على رغبتي العارمة في مسح فمي بكمي. كنت لا أزال أشعر بأثر البرودة والرطوبة وطعم توت العُلَّيق عليه. مهما حاولتُ قمعه في داخلي، إلا أني لم أستطع التخلُّص من شعور ملامسة فمي لشيءٍ غير طاهر وسام. ليس من المفترض أن تنتهي كلُّ مغامرةٍ ألمانيةٍ بهذه الطريقة ولكن من الممكن أن تنتهي هكذا. لقد باغتتْني. لكنني أستحقُّ ذلك، ما كان عليَّ أن آتي إلى هنا.

نظرت إليَّ وعلى محيَّاها الفتيِّ نصفُ تحدٍّ ونصفُ خوف. إنها تنتظر كيف سأُخرِج نفسي من هذا كلِّه؟ ماذا سأقول؟ كيف سأتصرَّف؟ إنها تنتظر مستعدَّةً مسبقاً لعدم تصديق أيِّ شيءٍ أقوله. إما القبول أو الرفض...

قلت الشيء الوحيد الذي لم تكن تتوقَّعه. قلت لها: «إني جائع».

تبخَّر السحر. ابتسمَتْ ورفعَتْ إصبعها الرقيق ملوِّحةً به يمنةً

ويسرة. كان ذلك يعني: إنك محتال، لقد نجحتَ هذه المرَّة لكنك لن تفلتَ مني... إنها لا تزال حمقاء. فقد خطر في بالي الأمر نفسه. لن تهرب مني. طالما أنها هنا فلن تهرب...

بدا "إليفانت" من الداخل كما كان يصفه لي تشارلي. كراسٍ بيضاءُ لها أرجلٌ منحنيةٌ غريبةٌ ومغطاةٌ بالبروكار الأحمر، وموائدُ دائريةٌ صغيرة، صغيرةٌ جدَّاً كي تُستخدم في مطعم، لكن "إليفانت" لم يكن مطعماً بكلِّ معنى الكلمة، ولكن أشبه بقاعة انتظار لليلةٍ حافلةٍ ستبدأ للتو. كانت المرايا الفينيسية معلَّقةً أيضاً على الأعمدة هنا، وعلى الجدران المكسوَّة بالبروكار نفسه كانت توجد أيضاً لوحاتٌ معلَّقةٌ لحوريات الماء وهي تستحم. روكوكو زائفٌ وسيِّئ. في ظلِّ هذا الخراب الذي يعمُّ المدينة إنه سيِّئ جدَّاً. من أين أتوا بكلِّ هذا الأثاث؟ في الحقيقة، أصبح المكان حالياً مطعماً ليلياً للأجانب. والأجانب يحبُّون الشموع على الطاولات وأشياءَ أخرى مختلفة.

* «هل أتيتِ إلى هنا من قبل؟».

أومئت برأسها. لا.

* «أيعجبكِ المكان؟».

رفعتْ كتفيها. لا تعرف. يبدو المكان مضحكاً.

حضر النادل ببزَّته الرسمية ومعه قائمة الطعام موضوعةً ضمن غلافٍ جلديٍّ مزيَّنٍ بطبقةٍ غرضُها الإيحاء بقِدَمِه.

«للأسف لا يوجد لديهم محار...». قلتُ ذلك. فأخذتْ ترمقني بنظرةٍ تحاول أن تعرف بها إن كنت أسخر منها أم لا.

* «محار...»، حاولت إقناعها. «كان لديهم محارٌ هنا في ما مضى...».

- «هل كنتَ هنا من قبل؟».

* «كلا. لكني أعلم بأنهم كانوا يقدِّمون المحار فيما مضى».

- «فيما مضى... أتقصد قبل تلك الليلة؟».

* «نعم، قبل تلك الليلة».

- «هل أكلتَ المحار من قبل؟».

أومئت برأسي موافقاً.

- «لا أعتقد بأني كنتُ لأقدرَ على تناولها».

* «هذا ما يقوله الجميع. لكن الجميع يتناولونه».

- «ليس الجميع».

* «لا ليس الجميع. أنتِ على حق. وإنما كلُّ من أُتيحت له الفرصة لذلك».

أحضر النادل العشاء. تناولناه بصمت. لأنقضَّ مباشرةً بعدها بلا أيَّة رحمةٍ على مغامرتي الألمانية...

* «أَمِنْ أجل هذا أتيتِ إلى هنا من هامبورغ؟».

- «نعم، من أجل هذا».

* «هل الروس من شنق أباك؟».

كلا، هزَّت برأسها مرعوبة.

* «الألمان؟».

كلا، هزَّتْ رأسها ونظرتْ حولها مذعورة.

* «هل شُنق أبوكِ في هذه المدينة؟».

كلا... كلا... لا تتحدَّثْ عن ذلك، يا إلهي... كانت عيناها تتوسَّلان، ولكني أردت التحدُّث.

* «هل شنقوا أباك في نورنبرغ؟».

- «كلا».

* «لاندسبرغ؟».

- «كلا. كلا».

* «في هامبورغ؟».

- «نعم. نعم، في هامبورغ».

* «الإنكليز؟».

- «نعم، الإنكليز. نعم».

* «هل كان من هنا؟».

- «لا».

* «هل كانت والدتك من هنا؟».

- «كلا».

* «إذاً ماذا تفعلين هنا؟ عمَّ تبحثين؟».

دعني! كانت عيناها تتوسَّلان. لا تعذِّبْني، أعلم بأني جلبتُ هذا لنفسي ولكن لا تعذِّبْني الآن، قد أخبرك كلَّ شيءٍ بنفسي، لكن لا تستفسرْ بهذا الأسلوب المريع. ألا ترى حالي؟

* «كم عمرك؟».

- «تسعة عشر».

حسبتها بسرعة في رأسي.

* «هل وُلدتِ بعد الحرب؟».

أومأتْ موافقة.

* «لكن هل كان والدك لا يزال حياً عندما وُلدتِ؟».

هزَّت برأسها نافيةً. «لم يكن على قيد الحياة لدى ولادتي، لم يكن حياً».

* «لا يبدو أنهم تلكَّؤوا في التعامل معه».

ياه! لا تعذِّبْني! لماذا تعذِّبني هكذا؟

* «أخبريني... هل كان أبوك مجرم حرب؟».

- «لا أعلم...». تنهَّدت.

* «ألا تريدين أن تعرفي؟».

- «لا أعرف. وُلدتُ بعد الحرب. لا أعرف إن كان أم لم يكن».

* «لذلك أنتِ في هذه المدينة لتكتشفي ذلك؟».

- «نعم لذلك أيضاً. في الواقع في المقام الأوَّل لذلك. فقط لذلك».

* «أكان والدك من الوحدة الوقائية؟».

- «كان من الوحدة الوقائية».

* «في معسكر الطيَّارين الإنكليز الأسرى، أليس كذلك؟».

نظرتْ إليَّ مرعوبة.

«كيف...»، تلعثمتْ، «كيف تعرف ذلك؟».

* «إنه أمرٌ منطقي. كان قائداً هناك، أليس كذلك؟».

- «كان قائداً».

* «وأنتِ أتيتِ إلى هنا، إلى هذه المدينة».

- «نعم».

* «لقد كنتُ هنا، في هذه المدينة».

- «وقتها؟».

* «نعم».

- «و... وأيضاً... وقتها؟».

* «نعم وقتها. وفي تلك الليلة أيضاً. سأخبرك عن هذه المدينة إن أردتِ ذلك».

- «وعن تلك الليلة؟».

* «وعن تلك الليلة أيضاً. لكن لن يكون ذلك مبهجاً لكِ في أيٍّ حالٍ من الأحوال».

- «لا أبحث عن البهجة. أريد أن أعرف. هل تفهمني؟ أتستوعب ذلك؟».

* «ربَّما من الأفضل أن لا تعرفي».

- 3 -

سأناديك بحبيبتي الصغيرة إن لم يكن لديك مانع. سأخبرك يا حبيبتي الصغيرة واحدةً من القصص غير المهمَّة والمهملة من تاريخ هذه المدينة. لم تكوني وقتها قد أتيتِ إلى هذا العالم بعد، لم تعرفي شيئاً عن كلِّ هذا ولن تعرفي أبداً ماذا وكيف كانت تجري الأمور. ليس في وسعك معرفة ذلك، وإنما عليك تجربته فحسب. لم تكوني قد وُلدتِ بعدُ عندما كنتُ قد مررتُ بتجارب النضوج التي يمكن للمرء أن يمرَّ بها في حياته كافَّة.

عشتُ هنا يا حبيبتي الصغيرة، واحداً من عشرات آلاف الأجانب الذين كانوا كالحشرات والذباب المزعج اللحوح الذي يعيش على تقرُّحات اقتصاد الحرب. جلبونا إلى هنا من كلِّ أنحاء أوروبَّا لكي نحِلَّ محلَّ الرجال الألمان الذين كانت الحرب تلتهمهم وكأنهم قرابينُ للإله مولوخ[1]. في ذلك الوقت الذي أحدِّثكِ عنه، كانت هذه المدينة مركزاً لأكثر حركات تنقُّل الأجانب التي يمكن لأوروبَّا القديمة أن تشهدها

1- إله كنعاني ذو نزعة شريرة، كانت تقدم له القرابين عبر حرق الأطفال. (م).

غرابة. لا أعتقد بوجود نقطة تقاطعٍ أكثر تنوُّعاً من هذه المدينة حينها. كان يمرُّ من هنا فرنسيٌّ قادمٌ من سيليزيا وهو في طريق عودته إلى دياره لقضاء العطلة، وبولنديٌّ هاربٌ من حوض الرور باتِّجاه الشرق، وهنا نزل الصربيُّ والمجريُّ واليونانيُّ المتَّجه من هامبورغ وهانوفر وبراونشفايغ وحتى من برلين وشتتين باتِّجاه الجنوب. وفي الاتِّجاه المعاكس كان يتحرَّك الدنماركيون والنروجيون والهولنديون والبلجيكيون القادمون من فيينا أو لينز أو براغ أو سيليزيا أو بولونيا أو البلقان. وكان هنالك أيضاً من وصلوا إلى هنا ولم يرغبوا أو لم يقووا على متابعة المسير؛ من بينهم أناسٌ ليسوا إلا حطاماً بشرياً انتهت صلاحيته، أو حُرموا من الميراث، ولكن كان بينهم أيضاً المراوغون. عرفتُ منهم من لم تطأ قدماه أرض مصنعٍ ألمانيٍّ طيلة خمس سنوات، وكان هذا إنجازاً بحقٍّ يا حبيبتي الصغيرة! كان يعيش في المدينة وحدها نحو عشرين ألف مشرَّد، منبوذين بكلِّ ما للكلمة من معنى، ومجرمين بمختلف الأنماط الإجرامية، مجرَّد آفات؛ حتى الشرطة الألمانية المشهورة بصرامتها عجزتْ عن التعامل معهم. كانوا طفيلياتٍ مُنفِّرة، مناجذ[1] يعيشون في حفرٍ تحت الأرض، غربان يعيشون حياةً وضيعةً على أطراف الحرب. ولكن كان هنالك أيضاً جرذان يزدادون سمنةً منها. الألمان أنفسهم كانوا يشمئزُّون وينفرون من هذا الوباء بكلِّ قرف، لكنهم كانوا في حاجةٍ إليهم أيضاً. فبحثوا عنهم وتوسَّلوا إليهم وتسوَّلوا منهم. أما أنا فقد أتيت إلى هنا في العام الخامس من الحرب. وقتها بدأ التنظيم الألماني الدقيق لكلِّ شيءٍ يعاني من نكساتٍ في مناطقَ متعدِّدة. كانت

1- جمع "خُلْد" من غير لفظه، وهو الفأر الأعمى. (م).

المتاجر فعلياً خاوية، فأصدرت الحكومة قسائمَ تموينيةً غير مغطَّاةٍ بأية أغذيةٍ أو ملبوساتٍ أو منتجاتٍ صناعية. وكذلك متاجر بيع الدخان بقيتْ واجهاتُها مغلقةً على الدوام. ولم يكن لعملة المارك أية قيمة. كانت تقفُ بانتظار اللفت السويدي أو الفجل أو البطاطا المتجمِّدة طوابيرُ ليليةٌ طويلةٌ ملتويةٌ أشبه بالثعابين. أينما نظرتِ كنتِ ترين تلك الثعابين في كلِّ مكان. وعندما كانت الصحف تنشر خبراً بأنه ستُصدَر استثنائياً قسيمةٌ للحصول على 16\1 من قالب الزبدة، كانت حشودٌ ضخمةٌ تتجمَّع أمام بضعة متاجرَ مخوَّلةٍ بتوزيع الزبدة. أمَّا محلَّات الجزَّارين فقد كانت تفتح يومين في الأسبوع فقط، ومع ذلك لم يكن في الإمكان الحصول على أيِّ شيءٍ فيها. في الحانات كانوا يقدِّمون جعةً كريهةً نسبة الكحول فيها 6% إن توفَّرت. وفي المطاعم كُنتِ في حاجة إلى معارفٍ وواسطةٍ لتحصلي على وجبةٍ من سلطة البطاطا المرشوشة بالماء، والتي كانت نادرةً ولكنها لا تحتاج إلى قسائم.

كانت تخيِّم على المدينة حالةٌ من ذهان عدم الشبع. لا، لم يصبحْ جوعاً بعد، ولكن لم يكن في مقدور أحدٍ تناول الطعام إلى أن يشبع، حتى لو تناول مخصَّصات شهرٍ كاملٍ مرَّةً واحدة. حقَّاً ماذا يمثِّل نصف كيلو من اللحم لرجلٍ قوي؟

كنتُ شديد الفضول يا حبيبتي الصغيرة، أحدِّق في أعين المارَّة وكبار السنِّ والأطفال والنساء باحثاً عمَّا تبقَّى فيها. كان فيها تألُّقٌ غريب. كانت عيوناً غير واثقةٍ وحزينةً لأناسٍ لم يكملوا طعامهم، وعيوناً ذكيةً لم يفتْها شيء، وعيوناً متربِّصةً تبحث عن أيَّة إمكانيةٍ للظفر بأيِّ شيء. القلَّة فقط كان في وسعهم العيش بمستوى فوق المتوسِّط،

برغد نسبي وبلا خوفٍ ممَّا سيُقَدَّم على مائدة الطعام، أو هل سيكون هنالك شيءٌ لتقديمه أصلاً. كانوا قلَّة، بضعة مخبرين نازيِّين وأعضاء الطبقة المخملية لهذا النظام الجديد وضبَّاطاً ذوي رتبٍ عاليةٍ وعلماء مدعومين، وطبعاً التجَّار والجزَّارون وكلُّ داهيةٍ قام مسبقاً بملء مستودعه أو قبوه أو مخبئه السرِّي بشيءٍ ما مرغوبٍ تمكن مقايضته بأيِّ شيءٍ آخر.

وقتها كان في الإمكان الحصول على أية امرأةٍ مقابل علبة سجائرَ أو أشياء أخرى، ولكن أقوى عملة، بل عملة العملات وقتها كانت التبغ. فقد كان يمكن لقاضٍ أن يلغي حكماً بالإعدام مقابل التبغ، ولضابطٍ أن يبيع مسدَّسه، ولعالِم ضميره، ولفتاةٍ عذريَّتها. مقابل التبغ كان في وسعكِ الحصول على كلِّ شيءٍ يا حبيبتي الصغيرة، كلِّ شيء.

أنا وتشارلي كنا من القلَّة القليلة من أثرياء هذه المدينة يا حبيبتي الصغيرة لأننا امتلكنا التبغ، حتى أن مذكَّرة بحثٍ رسميةً صدرتْ بحقِّي يا حبيبتي الصغيرة. حياتي كانت على المحك، وكنت أسخر من القدر بكلِّ عنجهية، فقد كان وضعي جيِّداً. فأنا وتشارلي كنا نشرب النبيذ اليوناني الفاخر والمشروبات الكحولية الأصلية ونقيم الولائم يا حبيبتي الصغيرة. ولائم لم أعرفها في حياتي من قبل، نسكب بعدها النبيذ المتبقِّي في المرحاض أما الخبز اليابس وبقايا الطعام فنعطيها لعامل السكك الحديدية الذي كان يربِّي الخنازير سرَّاً لنتقاسمها فيما بعد مناصفةً لأننا أعطيناه خنوصاً. وعندما كانت الرائحة تنبعث من حجرة المؤونة؛ كانت تلك إشارة بأنه حان وقت الترتيب والتنظيف فنتخلَّص حينها من الشرائح المصفرَّة للحم الخنزير المقدَّد وقطع

السجق واللحم المدخَّن المتعفِّنة. كان صديقي تشارلي يذهب إلى دار الأوبرا مرتدياً بزَّةً رسمية، وأراد إجباري على أن أخيط واحدةً لي أيضاً، فقد توفَّر كلٌّ من المال والمادة، فنحن نملك التبغ. أطنانٌ متريةٌ من التبغ يا حبيبتي الصغيرة، رزمٌ أسطوانيةٌ كاملة شكَّلتْ حينها ثروةً لا يمكن تصوُّرها ويستحيل تقدير قيمتها اليوم.

لم يكن لنا أيُّ علاقة بأولئك الصعاليك الذين كانت الشرطة تلاحقهم غالباً بلا طائل. في نهاية الأمر لم تكن الشرطة أصلاً تأخذ الأمر على محمل الجدِّ عند مداهمتها للقطارات والمحطَّات، بل كانت تحاول الحصول على أيِّ شيءٍ مفيدٍ لها. كان يمرُّ عبر المدينة يومياً الآلاف من الأجانب. سلوفاكيون ومجر وكرواتيون وبولنديون مع حقائبهم المليئة بأطنان من الأطعمة والسمن والسجق واللحم المدخن ودمجانات النبيذ والمشروبات الكحولية المنتجة بطرقٍ غير شرعية، والساعات وأجهزة المذياع، وأمتار من الأقمشة عالية الجودة التي لم تعد موجودةً في المتاجر الألمانية منذ فترةٍ بعيدة، وأخفاف نسائية وجزمات عمَّال، أما الفرنسيُّون والهولنديُّون فقد هرَّبوا إلى السوق السوداء الكاكاو والشوكولا وحبوب القهوة، والدنماركيون الزبدة والقشطة المعلَّبة، والتشيك السكَّر وكلَّ شيءٍ آخر، وحتى السجَّاد الشرقي من قبل اليونانيين. في إحدى المرَّات كنتُ شاهداً على مداهمةٍ للشرطة في محطَّة القطارات الرئيسة حيث خرج من أحد القطارات السريعة القادمة من البلقان رجلٌ صغيرٌ ومعه حقيبتان ضخمتان، فأوقفه شرطيان سرِّيان كانا على ما يبدو قد تلقَّيا معلوماتٍ مسبقةً عنه. رمى البلقانيُّ الحقيبتين وأخذ بالركض هارباً، ولتُفتحَ إحدى الحقيبتين

لدى وقوعها ولتخرج منها قطع من البروشوتو[1] والأفخاذ المدخَّنة ولحم الخنزير المقدَّد. نسي رجلا الشرطة السرِّيان الرجل البلقانيَّ وتسمَّرا في مكانيهما وهما يحدِّقان في هذا الكنز. كان عليكِ رؤية تلك النظرات، النظرات الجائعة لرجلي الشرطة السرِّيين والمارَّة من حولهما، نظرات الحسد، نظرات الذئاب الجائعة والحشود المتجمِّعة من كلِّ مكان، والتي كانت في بادئ الأمر متعجِّبة ثمَّ أصبحت تشكِّل حلقةً من الصمت المرعب بدأت تضيق تدريجياً حول الحقيبتين. أحد الشرطيين أراد إغلاق غطاء الحقيبة وإنهاء هذا المشهد الساحر، لكن أحدهم زمجر ككلبٍ أرادوا أن يسلبوا منه عظمته، ورجلٌ آخر وضع قدمه على الغطاء، أمَّا الشرطيُّ الذي نهره بشدَّة فقد تلقَّى علقةً ساخنة. كان ذلك إشارة، وبعد دقيقةٍ انتهى كلُّ شيء. بدا الأمر كمباراة في الرغبي، رغبي حقيقي حيث استطاع أحدهم انتزاع فخذٍ مدخَّنٍ وأخذ بالركض لينقضَّ عليه عشرة أشخاص يتقاتلون من أجل تلك القطعة يمزِّقونها بأظافرهم يصيحون يزعقون يتجاذبون من شعرهم، يغرسون أصابعهم في عيون بعضهم البعض ويركلون من حولهم ويسحقون من تحتهم، لا توجد حيواناتٌ تتقاتل بلا رحمةٍ على فريستها هكذا. لقد عشتُ من قبل في ظروف أسوأ يا حبيبتي الصغيرة، في واحد من معسكرات جهنَّم النازية الحقيرة، لكن لم يكن في الإمكان حدوث شيءٍ كهذا هناك.

استمرَّت مباراة الرغبي هذه لدقيقتين يا حبيبتي الصغيرة، لا أكثر. لتُخلِّف وراءها حقيبتين مسحوقتين وسيِّدةً مسنَّةً تتأوَّه، دهستْها

---

1 – نوع من أنواع لحم الخنزير المدخن والمنتشر في دول شرق البحر الأدرياتيكي.

عشرات الأقدام. اختفى الشرطيان. لقد شدَّني هذا المشهد يا صبية لدرجة أنني نسيتُ تشارلي كلِّياً مع أنه كان يقف إلى جانبي. وبعد أن انتهى كلُّ شيء، سمعتُه كيف كان يقول بصوت خافت: إنها النهاية، النهاية. إنها النهاية... لقد كان راضياً. أعجبه ذلك، أعجبه كيف كان الألمان المرتَّبون شديو الاعتناء بأنفسهم حتى آخر تفصيل يتقاتلون للحصول على قطعة لحم.

عشرون ألفاً من الأجانب المزعجين، الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه، عشرون ألف فردٍ غير مسجَّلين لدى الشرطة بلا وظيفةٍ وبلا رغبةٍ في العمل ومن دون مأوى. شكَّلوا قوَّةً لا يُستهان بها، كانوا بمثابة ظاهرةٍ بحدِّ ذاتها يا حبيبتي الصغيرة. لم يكن لديهم قسائم غذائية ولا نقود، لم يكن لديهم شيء، سوى ما استطاعوا أن ينتزعوه أو يسرقوه أو يغتنموه بالاحتيال. كانت بينهم عصابةٌ من لصوص عربات القطارات. إنه عملٌ خطيرٌ؛ حيث كان لحرس السكك الحديدية أوامر بإطلاق النار بلا تحذير، وقد كانوا يطلقون بلا تحذير. لكن لم يكن ذلك مجدياً؛ فقد كانت تختفي الأشياء على نطاق واسع من المحطَّة ومن المستودعات الغذائية، حيث كانت هنالك عصابةٌ منظَّمةٌ تنظيماً مثالياً يتزعَّمها رجلٌ روماني، كانوا مسلَّحين، كرماء، يقومون بالسطو على المخازن الاحتياطية للسكك الحديدية، يضربون الحرَّاس وينقلون الغنائم بواسطة عدَّة شاحنات. لم تكن الشرطة تعرف أو لم تكن تريد أن تعرف أين كانت تختفي أكوام الأغذية تلك.

جُنَّ الرومانيُّ مع الوقت. لم يعد يريد نقوداً ولا أيَّ نوعٍ من المقايضة سوى الذهب. أراد الذهب فقط وكان يحصل عليه. فعندما أخرجوه

بعد عدَّة أشهر من وكره خلال مداهمته من قبل وحدة القوَّات الخاصَّة التابعة للشرطة، عثروا في ملجئه المُرفَّه خارج المدينة على مخزونٍ هائلٍ من كلِّ شيءٍ على اختلاف أشكاله وأنواعه، حتى أن الشرطة نفسها لم ترَ مثله منذ زمنٍ بعيد، بالإضافة إلى عشرات الكيلوغرامات من الخواتم والمجوهرات والكنوز التي يحلم بها المرء.

أُعدم الرومانيُّ شنقاً على عمود كهرباء على ناصية شارع زيغفريد مع كتابةٍ ما معلَّقةٍ على صدره. كان من المفترض أن يبقى للعبرة معلَّقاً هناك لثلاثة أيام، لكن جثَّته اختفت بعد مضيٍّ يومٍ واحد.

اليوم لا أحد يعلم أين كان يقع شارع زيغفريد، ذلك الشارع القديم العفن الذي كان بمثابة حظيرةٍ خلفيةٍ للحيِّ التجاريِّ ويبعد ما لا يزيد عن 200 مترٍ عن ساحة أدولف هتلر. في ذلك الوقت كان الشارع عبارةً عن بازارٍ متنوِّع الأشكال و الألوان، لكن يسوده جوٌّ من الحزن و البؤس. كان من الممكن العثور على أيِّ شيءٍ هناك. فقد رأيت بنفسي، يا حبيبتي الصغيرة، كيف قام رجلٌ إسبانيٌّ ببيع آخرَ صربيٍّ رشَّاشاً مع علبة ذخيرةٍ مقابل ثلاث ساعاتٍ سويسرية. وربَّات البيوت الألمانيات كنَّ يذهبن إلى هنالك بحثاً عن شيءٍ ما يُحسِّنَّ به مائدة يوم الأحد، كدجاجةٍ مسروقةٍ أو بيضتين أو قطعة شوكولا.

كنت أتردَّد على شارع زيغفريد مبهوراً بسحره الكئيب. ففي هذه الظروف المجنونة كان يشكِّل مظهراً من مظاهر الإبداع الإنساني والقدرة على الحياة والصراع من أجل البقاء. وخلال أشهر السنة الأخيرة للحرب أصبح شارع زيغفريد الحيَّ التجاريَّ الأكثر نشاطاً في المدينة. ومن الغريب في الأمر أن الشرطة لم تضل طريقها إليه

أبداً. ربَّما كان لدى الشرطة تعليماتهم السرِّية بالتغاضي عن سرطان الاقتصاد هذا، فبهذه الطريقة على أيَّة حالٍ كانت المدينة الجشعة تحصل على شيءٍ إضافي، عفويٍ، استيراد غير نظامي، استيراد أسود يزدهر باستمرارٍ على الرغم من كلِّ المخاطر.

كانت تُجرى المتاجرة بكلِّ شيء. فمن قميصٍ على الجسم كان يبدِّل صاحبه أمام مدخل منزل بائعه وساعات تُفَكُّ وتُربط من يدٍ إلى أخرى... إلى صفقاتٍ كوميديةٍ تُعقد بلغةٍ ألمانيةٍ رديئةٍ يتخلَّلها صوت إوزَّةٍ بين الحين والآخر. كان سوق المفاجآت الدائمة، كلَّ يوم كان هنالك شيءٌ مختلف، فمرَّةً كيس سكَّر، ومرَّةً أخرى علبة كاكاو. أمَّا البائعون فقد كانوا يقفون في مداخل الأبنية ليتمكَّنوا عند الضرورة من الهروب مع بضاعتهم عبر الفناء إلى المدخل الخلفي. كان يأتي إلى هنا المنبوذون ليبيعوا آخر ما تبقَّى لهم. ولكن كان هنالك أيضاً البائعون المنتظمون الذين يعرضون البضاعة نفسها وبات لديهم زبائنهم الدائمون. أما التجَّار المحليون، أصحاب المتاجر ذات الواجهات الخاوية، فقد كانوا يتمشُّون هنا وينظرون بعبوسٍ إلى كلِّ هذا المرج والهرج. فخلال كلِّ تلك الفترة لم تقم الشرطة بمداهمة شارع زيغفريد سوى مرَّتين، حيث كانوا يقبضون على كلِّ نفسٍ حيَّةٍ تمشي على قدمين، ولم تستطع الهروب في الوقت المناسب، ويأخذوهم بالشاحنات. ولكن بعد أسبوع فقط كان شارع زيغفريد يعود إلى سابق عهده. يستجوبونهم ويطلقون سراحهم. ما الذي كان عليهم أن يفعلوه بهم؟ إطعام هؤلاء الحقراء في السجون الممتلئة؟ كان ليكون ذلك وقتها ضرباً من الرفاهية، فلقد كانت السجون للحالات الأكثر

أهمِّيةً من هؤلاء المحتالين الانتهازيين، حيث لم يكن في استطاعتهم استيعاب كلِّ هؤلاء الانهزاميين والخونة والمعارضين السياسيِّين والمنشقِّين والمتمرِّدين. لم يعد في إمكانهم إلغاء شارع زيغفريد، فقد أصبح من الضروريات.

كانت من أغرب الأيَّام التي عاشها رايخ الألفية. غريبةً لدرجة أنَّ المحتالين الصرب كانوا قد اشتروا من آمر السجن المحلِّيِّ الذي كانت باحته تشهد عمليَّات إعدامٍ يومية، جثَّة عقيدٍ من المقاومة كان قد أُعدم ليقوموا بدفنه ليلاً في حديقة المدينة ومع صليبٍ أرثوذكسيٍّ حتى موضوعٍ على قبره.

تردَّدتُ على شارع زيغفريد مع أنه لم تكن لي هنالك أية مصالح. كان لدينا أنا وتشارلي شبكةٌ مستقرَّةٌ وآمنةٌ وسرِّيةٌ من الزبائن الدائمين. نورد لهم البضاعة إلى الفيلات الفارهة على الضفَّة اليمنى من النهر. كان مستوى المخاطر لدينا منخفضاً، فمن بين الرجال الذين عملوا لحسابنا كان هنالك ضابطُ شرطةٍ ذو رتبةٍ عاليةٍ والذي كان مضطرَّاً من باب مصلحته الشخصية على الأقل إلى أن يقدِّم لنا الحماية اللازمة عند الضرورة.

كنا حذرين فيما يتعلَّق بعلاقاتنا التجارية، وانتقائيِّين. فشركاؤنا نختارهم من الميسورين من الطبقات العليا التي كان القانون يغضُّ الطرْف عن زلَّاتهم البسيطة. وكان الفنَّانون والعلماء ورجال الأعمال المتوسِّطين يتصرَّفون معنا بلطفٍ لدرجة الصداقة أحياناً.

باتت لفافة السجائر المحشوَّة يا حبيبتي الصغيرة مسألة ثقة. شراؤها

في الشارع كان كمن يشتري السمك في الماء، فأولئك المحتالون الصغار كانوا يحشون اللفافة ببقايا التبغ المستخرج من أعقاب السجائر المحروقة وبالغبار وأية قذارة أخرى متوفِّرة. أمَّا نحن فقد كنا ضماناً للجودة. لأن مصدر تبغنا كان من الإمدادات العسكرية، كان تبغنا نقيَّاً ومقطَّعاً بنعومةٍ ومعالجاً في المصانع.

كان تشارلي فتى جذَّاباً يا حبيبتي الصغيرة، طويل القامة، فتى أسود ذا رقبةٍ عريضةٍ وقوَّة كالثور، فقد كان قبل الحرب بطلَ ملاكمةٍ في وزن الويلتر. كان هذا عامه الخامس في المدينة وقد استطاع أن يرتقي لمرتبة رئيس عمَّال في مصنع السجائر الذي يعمل لصالح الجيش. بدأنا بدايةً متواضعة، فبعد أن استقررتُ بالعمل لديه كان يحضر كلَّ يوم من المصنع خمسين غراماً من التبغ المضغوط ضمن علبة أعواد ثقاب. كان مكعَّباً قاسياً جداً لدرجة أنه لم يكن ممكناً ثنيه أو كسره حتى بواسطة مطرقة. لذا كان علينا دائماً أن ننسله عند الزوايا ونفصل الخيوط المتحرِّرة عن بعضها البعض. من مكعَّب كهذا كنا نملأ ليلةً بعد ليلةٍ ثمانين لفافة. لم يكن ذلك كثيراً يا حبيبتي الصغيرة، فقد كنت أحتفظ بعشرة لنفسي وتشارلي يأخُذ عشرة أخرى و أوزِّع الباقي ما وراء النهر.

كنتُ أستغرب كيف كان يمكن لتشارلي أن يعيشَ بكلِّ هذا الترف من عائدات عملية تهريبٍ صغيرةٍ كهذه. كان يسكن لوحده في منزل يعود إلى أرملة عامل سككٍ حديدية، سقطتْ مرَّةً من على كرسي عند تبديلها للمصابيح فوق الطاولة وشعرتْ عمودَها الفقري. كان تشارلي يزورها في المشفى ويحضر لها دائماً من الحلويات ما لم تكن تحلم

به النساء الألمانيات أبداً في ذلك الوقت، وممَّا كنَّ قد نسينها خلال سنوات الحرب تلك. كان لدى تشارلي كلُّ شيء، خزانة مؤونةٍ مليئةٌ بما لذَّ وطاب، وصفوفٌ من النبيذ الفاخر وكونياك فرنسيٌّ من غنائم الحرب. كنت أستغرب من أين كان يأتي بكلِّ هذا، فالخمسون أو الستُّون سيجارةً يومياً كان رأس مالٍ كبيراً، لكن ليس إلى هذا الحد. أخذ هذا التساؤل ينخر في رأسي على الدوام لكني لم أتحدَّثْ في هذا مطلقاً.

كان قد مضى على وجودنا معاً شهرٌ تقريباً عندما قادني مساء أحد الأيَّام إلى القبو. لأجد هنالك على سقالةٍ خشبيةٍ ثلاثة صناديقَ هائلةٍ مغلَّفةٍ بأكياس خيش. لم يكن عليَّ الاستفسار أكثر فقد كانت تنبعث منها رائحة تبغٍ عارمة. يا إلهي!

كان تشارلي يستمتع بردَّة فعلي.

«كلٌّ منها يزن سبعين كيلوغراماً...»، وأخذ بالضحك. ثمَّ تحدَّث بجدِّية مضيفاً: «لا تستغربْ، كان عليَّ أن أختبرك أولاً... منذ الغد سنعمل بطريقةٍ مختلفة. ليس عليَّ أن أنبِّهك إلى أن حياتنا على المحك!».

لم يكن فعلاً مضطرَّاً إلى تحذيري، لكن استغرقت وقتاً طويلاً حتى بتُّ قادراً على الكلام. أجريت حساباتٍ سريعةً في رأسي. الرقم الذي حصلت عليه أذهلني.

«تشارلي... إنه مليون مارك...». قلتها متلعثماً.

- «بل أكثر من ذلك. أسعار السوق السوداء أخذت بالارتفاع

بسرعة. سعرنا سيكون دائماً تحت سعر السوق ولكنه سيرتفع أيضاً. سيؤمِّننا هذا حتى نهاية الحرب ويجعلنا نعيش كالملوك. ستقوم بتوزيعه، وستصنع كلَّ مرَّةٍ بضع عُلَبٍ بوزن 50 غرام. تعال سأريك كيفية القيام بذلك...».

كانت توجد غرفةٌ أخرى في القبو لم ألاحظها من قبل، مليئةٌ بصناديقَ كرتونية. فتح تشارلي إحداها. احتوى الصندوق على مئة غلاف أبيض غير مطبوع لعلب التبغ ذات الخمسين غرام.

- «عليك تعلُّمُ تعبئتها بأسلوبٍ جميلٍ وبلا خداع. عليك وزنُ كلِّ علبةٍ ولصقها بشريط. يجب أن تبدو وكأنها عُبِّئت في المعمل. لسنا ببخلاء يا رجل...»، وأخذ يضحك. «كُنت لأفضِّل طباعة اسم شركتي الخاصَّة عليها... تشارلي وشركاؤه... ما رأيك؟».

عضضت على شفتيَّ مانعاً خروج سؤالي عن كيفية حصوله على هذه الثروة الرائعة. كَبتُّ السؤال في داخلي، ففي مثل هذه الأوقات من الأفضل عدم معرفة الكثير من الأمور. ربَّما ليس هذا مستودعه الوحيد، وربَّما في قبوٍ جافٍّ آخر توجد عدَّة صناديقَ مشابهة. مع ذلك فقد شعرتُ بدغدغةٍ مزعجةٍ في عنقي. كان الأمر غبياً لأنهم لو ألقوا القبض عليَّ فلن يغيِّر التبغ من الأمر شيئاً. لذا لم يكن لدي سوى فرصةٍ واحدةٍ فقط هي أن لا أدعهم يمسكون بي. ولقد كان ذلك بادرة ثقةٍ خطيرة من قبل تشارلي. عرفنا بعضنا منذ شهر تقريباً، لم يكن يعرف عني أيَّ شيءٍ تقريباً، لكن يبدو أن الأمر لم يكن مجرَّد ثقة، لقد كان تشارلي في حاجة إلى شخصٍ يمكنه الاعتماد عليه، من الواضح أنه كان يبحث عنه إلى أن صادفني.

أصبحنا أقطاب وملوك السوق السوداء. مقابل التبغ كنا نحصل على كلِّ شيء. كل شيء...

- «كيف تقابلتما؟».

* «أنا وتشارلي؟ إنها واحدةٌ من تلك المصادفات المجنونة التي لا يمكن أن تحدث إلا لشخصٍ وجد نفسه في القاع».

لقد كنت حينها في أدنى القاع يا حبيبتي الصغيرة، متسكِّعاً في المدن الألمانية بلا أيَّة مواردَ وبرؤيةٍ واحدةٍ، هي أنهم سيمسكون بي عاجلاً أم أجلاً. وصلتُ إلى هنا لكني لم أقوَ على المتابعة. لم يكن في جيبي ولا حتى ماركٌ واحد. جائعٌ... بلا نومٍ... لم أقوَ على المتابعة، وبطريقةٍ ما شعرتُ بأن رحلتي ستنتهي هنا وبأني لن أخرج من هنا. كنتُ أمشي متعثِّراً في الطرقات، لم أعرف أحداً هنا، متأمِّلاً لقاء أجنبيٍّ ما يقوم بتهريبي إلى مخيَّم الأجانب حيث يمكن العثور دائماً على سريرٍ فارغٍ وشيءٍ يمكن تناوله. ولكن حتى هذا في الواقع، لم أكن أرغب فيه. لقد مَللتُ الحياة، وعندما يملُّ شخصٌ في مثل هذا الوضع من الحياة تكون عندها هذه هي نهايته. كنتُ أنظرُ إلى رجل الشرطة وهو يقترب مني، اعتدت على التحديق دائماً بوقاحة إلى أعين الشرطة مع شعورٍ عارمٍ بالجرأة والتحدِّي. لكن هذه المرَّة انتابني شعورٌ بالخوف. أشحت وجهي ونظرت إلى واجهة المتجر الخاوية كي أتجنَّب لفت انتباهه. عندها توقَّف بالقرب مني رجلٌ بلباسٍ أنيقٍ ونظر أيضاً إلى ذلك الفراغ. هل كان يتجنَّب النظر إلى الشرطيِّ أيضاً؟ لم يكن يبدو عليه ذلك، لكن في أوقات كهذه ليس في وسع المرء أن يكون على يقينٍ من أيِّ شيء. مرَّ الشرطيُّ، تابعته في نافذة الواجهة وهو يمرُّ في الجوار من دون أن

يثير أيَّ اهتمام. يبدو أني تنفَّستُ الصعداء بوضوحٍ لأن الشخص الذي بجانبي كان يتفحَّصني بعمق. في تلك اللحظة لفحني دخان سيجارة... إنه يدخِّن. كان يدخِّن وأنا لم أكن قد وضعت سيجارة في فمي منذ يومين. كِدتُ أن أصابَ بالغثيان جرَّاء ذلك الدخان، ففعلتُ ما لم أقم به من قبل أبداً.

«من فضلك، ألديك سيجارة؟». رِحتُ أستجدي بالألمانية.

«السجائر ثمينة...». قالها بألمانيةٍ طلقة. ألماني... لقد كان ألمانياً. أشفقت على ضعفي. لكنه أخرج سيجارة.

«ليس لدي أعواد ثقاب حتى...». قلتُها معتذراً.

أعطاني سيجارته لكي أشعل بها.

«ألديك أيُّ شيء؟». قالها وهو يسخر مني.

«ليس لديَّ شيء... لا شيء أبداً». أجبته.

لم ينطق الرجل بأي كلمةٍ وابتعد عني متابعاً طريقه. كنتُ أسحب الدخان إلى داخلي بكلِّ شراهة، أدعه يشبعني، يستثير رأسي، يجعلني أشعر وكأني مخدَّر؛ فشعرت بتحسُّن. كنت أنظر إلى الواجهة الفارغة وأدخِّن بشغفٍ حتى أني لم ألحظْ عودة ذلك الشخص إلى أن وقف بقربي مجدَّداً.

- «هل أنتَ أجنبي؟». سألني مباشرةً بلا تكلُّف.

- «نعم».

- «من أين؟».

* «فرنسي»، كذبت.

- «لا، لست فرنسياً».

* «بلى! معي أوراق فرنسية».

- «يمكن لأي كان أن يمتلك أوراقاً. ولكن لستَ فرنسياً. أعرف من أين أنت».

* «لماذا تسأل إن كنت تعرف؟».

شعرت بأنه سيغادر مجدَّداً مع أني بدأت أشعر ببصيص أملٍ بنيلي شيئاً يمكّنني من الحصول على فطورٍ ما.

غيَّر رأيه... لم يذهب.

- «هل أكلت اليوم؟».

* «كلا».

- «هل أكلت البارحة؟».

* «لا، ولا البارحة».

- «إنه بادٍ عليك. خذْ هذه عشرة ماركات. أو انتظرْ، تعال معي أنا لم آكل أيضاً...».

اصطحبني إلى حانةٍ قريبة، كان معروفاً فيها.

- «أريد وجبتين من السلامي يا فريتز وكأسين من الجعة...». قالها آمِراً الساقي الذي كاد ينحني له ثمَّ اختفى في الخلف وعاد بعد قليل حاملاً الفطور. انقضضتُ على الطعام وأخذت أبلعه.

- «لا تبلع، هذا مُضِرٌّ...»، نبَّهني. «أتسكن هنا؟».

* «كلا».

- «أين تسكن؟».

* «لا مكان عندي».

- «كيف ذلك؟ لا بدَّ من أنك تسكن في مكان ما؟».

* «لا أسكن في أي مكان. أتيتُ اليوم ليلاً».

- «هل يلاحقونك؟».

* «لا أعرف. أعتقد بأنهم يفعلون ذلك».

- «لماذا؟».

* «هذا ليس من شأنك».

كان جواباً مختصراً لكني شعرت بأنه أعجبه.

- «معك حق. ما الذي تريد فعله؟».

* «لا أعلم».

- «لن تصمد طويلاً على هذه الحال. أعرفُ هذا يا أخي. لقد رأيتُ أمثالك...».

* «أأنتَ أجنبي أيضاً؟».

- «نعم، أيضاً».

* «لكنتكُ لا تدلُّ على ذلك».

- «ولا لكنتك. لذلك عرفتُ بأنك لست فرنسياً. إنهم لا يستطيعون تعلُّم الألمانية والتحدُّث بها من دون رطانة».

أكملتُ طعامي، وأعاد هذا الشخص طلبه مرَّةً ثانية. لم يتحدَّث عن أية قسائم ولم يسأله عنها الساقي أبداً. بدا لي وكأنه يستعدُّ لأمرٍ ما. أخذ

يتفحَّصني بتمعُّن. لقد أعجبته بشيءٍ ما، لأنه قال بعد قليل: «يمكنكَ أن تُمضي ليلتين عندي لا أكثر».

كان ذلك كثيراً بالنسبة إليَّ.

* «لماذا؟». سألته.

- «لا يتحتم عليك إن لم تكن ترغب في ذلك! لكنهم سيلقون القبض عليك اليوم».

* «لماذا تقوم بذلك؟».

- «لماذا تسأل أسئلة غبيَّة؟ لا أعرف. ربَّما كنتَ لتقوم بذلك لو كنت مكاني».

* «لست في مكانك».

- «هذا ما قصدته». ابتسم بلؤم.

فجأةً أصبح لديَّ كلُّ شيءٍ يا حبيبتي الصغيرة. مكان يأويني من دون تسجيل أوراقي لدى الشرطة، ربَّما كان ذلك أفضل ما يمكن أن أتمنَّاه حينها، فالعثور على شيءٍ كهذا وقتها كان مستحيلًا. أصبح لدي الكثير من كلِّ شيء، لدي ما آكله وأشربه وأدخِّنه فاختفى الشعور بالضياع... كلا لم يكن هذا كما كنت أتصوَّر قبل ساعات... نهاية الطريق! لم يكن أبداً كذلك! لكن الأمر كان أكثر من مجرَّد طعامٍ وشرابٍ ومأوى... إنها معرفة المرء بأن الإنسان ليس أبداً على هذا القَدر من الوحدة والعجز كما كان يعتقد في بعض لحظات وساعات حياته العصيبة، ومع ذلك تبقى متعة معرفةٍ كهذه يشوبها شعور بالإحباط من مدى المصادفة التي تتوقَّف عليها حياة الإنسان.

نمتُ هناك لليلتين، ومن ثمَّ لعدَّة ليالٍ أخرى، وعندما أردت المغادرة في اليوم الثالث، صاح تشارلي: لا تكن أحمقَ.

لم أكن قادراً على فهم ذلك. كان هنالك شخصٌ لديه مكانةٌ جيِّدةٌ ومنيعةٌ والكثيرُ من كلِّ شيء، بدا قوياً ومتوازناً ذا طبيعةٍ مرحة، استضاف شخصاً مُطارَداً لم يكن يعرف عنه شيئاً، مع أنه وكما بدا لي وقتها لم يكن في حاجةٍ إلى أحد. كان ذلك يعني أنه تكفَّل بشخصٍ آخرَ، فقد كان عليه أن يعتني بي، كلَّفه ذلك راحته وماله وانزعاجه. لاحقاً أدركتُ بأنه كان في حاجةٍ إلى شريكٍ موثوق، شريكٍ في تهريب التبغ، الأمر الذي لم يعد قادراً على القيام به لوحده. ولكن عند توديعنا لبعضنا البعض أدركتُ بأن ذلك الملاكم الصلب كان يشعر أيضاً بالضياع والوحدة، وبأنه أيضاً في حاجةٍ إلى أحدٍ ما، إلى إنسان... فقد كان يعيش حالة قلقٍ من الوحدة في وسط حربٍ فظيعةٍ مدمِّرة؛ ربَّما كان يبحث منذ فترةٍ طويلةٍ عن أحدٍ ما يأتمنه على أسراره ويتحدَّث إليه، وعن دفء آدمي وعن تفهُّم. من المؤكَّد أن اختياره لي كان محض مصادفةٍ، ولكن اختياره لأحدٍ ما لم يكن مصادفةً على الإطلاق. كان عليه اختيار شخصٍ ما كيلا يهلك.

قام بما هو أكثر من ذلك. أوراقي الفرنسية، رمى بها بازدراء على الطاولة.

«إنه عمل هواة. لن ينفعك هذا على الإطلاق...»، صاح. وفي اليوم التالي أحضر لي تصريح عمل، تصريحاً نظامياً ومختوماً. هكذا أصبحتُ نادلًا في مقهى "أتلانتيك"، وفي إمكاني التجوُّل في المدينة من دون أن أخاف من تفتيشي. تصريح العمل كان وقتها الوثيقة

الأساسية والأهم لكلِّ أجنبي. كان في إمكانهم إيقافي في النهار أو الليل. أمَّا فترة عملي، الذي لم ألتحقْ به أبداً على الرغم من ارتيادي المتكرِّر لتلك الحانة الوضيعة، فقد كانت مسائية. كان أمراً مهمَّاً جدَّاً بالنسبة إلى أعمالنا حيازة تصريح كهذا. ففي إمكاني عن طريقه، ولو مع بعض الصعوبات، تفسير حيازتي على علب التبغ تلك في حال أمسكوا بي. هذا لحسن الحظ لم يحدثْ أبداً.

كان تشارلي مولعاً بالنساء، متواجداً على الدوام بين أفراد الطبقة الراقية، فقد كان يملك القوام والتعليم والحضور المناسب ليختار من بينهنَّ. كان له الكثير من المعارف في المدينة على اختلاف انتماءاتهم. فكَّرت مراراً إن كانوا يدركون بأنه هو من يمُدُّهم بالتبغ. لم أرَهُ يوماً يحمل أكثر من علبةٍ واحدةٍ في جيبه. ويمكنني تخيُّل كيف كانوا ينظرون إليه بحسدٍ خلال فترة الاستراحة في الأوبرا وهو يقوم بلفِّ سيجارةٍ بأسلوبه الإبداعي. وفي إمكاني تخيُّل ابتسامته الخبيثة عندما يسألونه عن مصدر كلِّ هذا الثراء، ويمكنني تخيُّل كيف كان يهمس بكلِّ سرِّية في أذنِ شخصٍ اختاره بكلِّ عناية: لديَّ مصدرٌ موثوق، لكن عليك الاتِّفاق معه بمفردك...

خلال فترة وجودي لديه تحت التجربة، كان كثيراً ما يتواجد في المنزل لنقوم بنسل المكعبات المضغوطة وتعبئة اللفافات بالتبغ ذي الرائحة القوية. كان تشارلي شخصاً مرحاً ومسلِّياً، وغالباً ما يحدِّثني عن تجاربه مع النساء الألمانيات، حيث برع في السخرية منهن وبوصفهن بجملةٍ أو جملتين وصفاً غايةً في الواقعية يجعلني أتخيَّلهنَّ وكأني أراهنَّ بنفسي. أحياناً، وبشكل نادر ولكن قوي، كان يصاب بنوبة

من السوداوية الحادَّة؛ فيلعن الحرب التي أوقفت مسيرته الاحترافية كملاكم، أو كان يهذي عن براغ.

كان تشارلي ملاكماً يا حبيبتي الصغيرة. لا يكون هؤلاء عادةً أشخاصاً أذكياء وذوي حسٍّ مرهف، لكن تشارلي كان استثناءً. فعندما يبدأ بالحديث عن براغ وعن أسطحها وشوارعها وممرَّاتها وجسورها وطرقها السريعة وزواياها الهادئة كان ذلك أشبه بقصيدة. فهو يعرف كلَّ كنيسةٍ وميدانٍ صغيرٍ أو كبيرٍ وكلَّ تمثال، وفي استطاعته الحديث لساعاتٍ عن تماثيل جسر تشارلز، وعن نشأتها وجمالها ومصيرها؛ فقد تسلَّق على ما يبدو كلَّ برجٍ كبيرٍ أو صغيرٍ من أبراج براغ العديدة، وحفظ عن ظهر قلب العبارات اللاتينية الموجودة على أجراس كاتدرائية التاين وأوصاف واجهات منازل نبلاء براغ القديمة بزينتها الجصِّية، كما كان يذكر شخصيَّاتٍ من حانات براغ وعوالمها الإجرامية المثيرة للسخرية، فيُعاد أمام ناظري في تلك الليالي إحياء مدينة لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيتُها، وأماكنَ لم أذهبْ إليها من قبل، فكأنَّ أبواب البيوت القديمة تُفتح أمامي لأُلقي نظرةً على حاضرها وماضيها، وعلى خصوصيَّاتها وتاريخها القريب. كان يخبرني عن أناسٍ تُوفُّوا منذ زمنٍ بعيدٍ بأسلوبٍ يُشعرك وكأنهم عادوا إلى الحياة من جديد، ويروي الألغاز والقصص الغامضة ويتحدَّث عن جرائمَ محيِّرة. لم يعدْ تشارلي حيَّاً منذ زمنٍ بعيدٍ يا حبيبتي الصغيرة، ولكنَّ عينيه لا تزالان تطوفان على أسطح براغ وأزقَّتها، فكلَّما ذهبتُ إلى هناك كنت أنظر إلى المدينة بعيونه محاولاً أن أشعر بالإثارة نفسها التي كان يعيشها. عندما التقيتُه كنتُ شابَّاً جاهلاً غير

متعلِّم، لم يكنْ لديَّ حسٌّ لمثل هذه الأمور، والوقت أيضاً لم يكن مواتياً لها، لكنَّ تشارلي كان قد زرع فيَّ إلى الأبد تلك النظرة العاطفية نحو براغ. فعندما ذهبتُ إلى هنالك لأوَّل مرَّةٍ بدتْ لي المدينةُ مألوفةً جدَّاً، وكأنني عشتُ فيها لفترةٍ طويلة.

تشارلي كان ملاكماً يا حبيبتي الصغيرة. ولنُسمِّ الأمورَ بأسمائها؛ فقد كان متطفِّلاً أيضاً. ولكنه كان إنساناً حسَّاساً جدَّاً، ولم أكتشفْ إلا في وقتٍ لاحقٍ أنه كان بطلًا أيضاً وتعيساً جدَّاً...

كانت هذه مدينةً رائعةً يا حبيبتي الصغيرة، مثالاً يُحتذى به جمعتْ بين الغنى والقِدَم والعصرية. أمَّا تشارلي فلم يستطعْ أن يجد لها اسماً مناسباً أبداً. فكان يسخر من عمارتها وحدائقها وشوارعها، لكن بدا لي الأمر دائماً أشبه بالغيرة، فولعه ببراغ كان يمنعه من الاعتراف بأيِّ شيءٍ آخر.

«كلُّ شيءٍ هنا مزيَّف... ما من شيءٍ حقيقي هنا، لا شيءَ أصيل...». كان يتحدَّث غاضباً لدى تجوالنا حول القصر الملكيِّ أحياناً. بالنسبة إليه توجد العشرات منها في فرنسا، إنها مجرَّد تقليدٍ بائسٍ ليس لها فخامة الباروك، فللباروك رونقٌ وأبَّهةٌ، أمَّا هذا فباروكٌ هزيلٌ مصطنعٌ يجب تدميره بالقنابل. لنحرِّر العالم من هذه الشناعة المهينة...

لم أكن أفهم لماذا ينفجر غاضباً هكذا، لكني كنت أستفزُّه مراراً وأستمتع برؤية سخطه.

- «هل قتلتهُ القنابل؟».

* «لا يا حبيبتي الصغيرة. لم يكن موجوداً هنا حينها».

- «كان يجب أن يُقتل بالقنابل، بما أنه قد أرادها إلى هذا الحد. هل كنتَ ترغب أيضاً في أن تُلقى القنابل؟».

* «جميع الأجانب الذين عاشوا هنا كانوا يرغبون في ذلك. فمنذ زمنٍ بعيدٍ لم تُحلِّقْ طائرةٌ أجنبيةٌ فوق هذه المدينة. كان أمراً غير مفهومٍ بالنسبة إلينا نحن الذين توجَّبَ علينا العيش هنا، وتقاعساً لا يُغفَر من قِبَل الحلفاء. لم يعد الأجانب الموجودون هنا يفكِّرون في شيء آخر، وفي كلِّ لقاءٍ لهم كانوا يتساءلون متى سيأتون بطائراتهم؟ هل سيأتون؟ ألم يقتربْ موعدُ قدومهم؟».

- «قتلت القنابل هنا الكثير من الأجانب، أليس كذلك؟».

* «لا أعرف كم كان عددهم، لكن الكثير منهم بكلِّ تأكيد».

- «كان عليها أن تُبيدهم جميعاً! لقد قلتَ بنفسك كم كانوا طفيليَّاتٍ مؤذية؛ يسرقون وينهبون ويتاجرون بالممنوعات، بلا أيِّ رادعٍ أو عقابٍ في بلدٍ يشنُّ الحرب».

* «كانوا بشراً يا حبيبتي الصغيرة. أرادوا وتوجَّب عليهم أن يعيشوا. أرادوا البقاء على قيد الحياة».

- «إذاً أرادوا العيش. أرادوا البقاء على قيد الحياة. لكن الألمان لم يكن لديهم الحقُّ في ذلك؟ لم يكن مسموحاً للألمان أن يعيشوا، لم يكن مسموحاً لهم أن يبقوا على قيد الحياة. لقد أعدمَ الإنكليز والدي كمجرم حرب، لأنه قَتل عدداً من الطيَّارين الأسرى. لكنَّ هؤلاء الذين قَتلوا هنا مئات الآلاف من البشر، كُرِّموا في إنكلترا. قَتْلُ الألمان كان بطولة. أمَّا عندما كان الألمانيُّ يقتل فإنها جريمة حرب».

لم أقلْ شيئاً، فلا داعِ إلى ذلك. لا يزالون تلك القبائل التوتونية[1] نفسها، بحسِّهم المقزَّز للعدالة. إن لم تكنْ قادرةً على فهم أمرٍ أساسيٍّ كهذا، فلا فائدة تُرجى من النقاش معها في الأمر. إنها مصابةٌ بأفكار وأعذار ما بعد الحرب التي لديهم، مصابةٌ كالآخرين تماماً. فليعيشوا فيها وليحترقوا بها، ما علاقتي بذلك؟ طبعاً ألمانيا هذه، ألمانيا كهذه لا تزال ذلك الخطر القديم الذي كانت تشكِّله منذ قرون. لكنَّ هذا يعني نهايتهم وزوالهم المحتَّم أيضاً. ومن سينقذهم منه، إن لم يفعلوا أيَّ شيءٍ لإنقاذ أنفسهم؟

أشرتُ بيدي للنادل وقد بدتْ عليَّ علاماتُ الاستياء. أريد دفع الحساب. كان عليَّ البقاء مع غاردنير. أيُّ محاولةٍ للقيام بأيِّ شيءٍ هنا لا يُمكن أن تنتهي غير ذلك. إنني شيخٌ أحمق...

يبدو أني نظرتُ إليها باستياءٍ شديدٍ لأنها بدتْ أكثر انطوائية. روح التحدِّي والحماس المطلق لديها تبخَّرا. كان في عينيها شكٌّ ونوعٌ من التوسُّل.

- «قلْ لي...»، هَمسَت، «أيمكن لهذا أن يكون وراثياً؟».

* «ماذا؟».

- «تعرف جيِّداً ماذا...».

كنت أريد أن أقول لها إن مفهوم الوراثة هذا الذي تحاول ربط ذاتها به، كان من اختصاص العلوم النازية، لكنَّ شكوكها وخوفها بديا صادقين جدَّاً.

---

1 - قبائل جرمانية عاصرت الإمبراطورية الرومانية وعُرف عنها ضراوتها وحميتها عديمة الرحمة والوحشية في المعركة. (م).

* «أنتِ حمقاء يا حبيبتي الصغيرة. توقَّفي عن التفكير في مثل هذه الأمور. ستسمِّم لك حياتك».

- «لقد سمَّموها. يا إلهي!». تنهَّدتْ، «أفسدتُ كلَّ شيء. أنتَ غاضبٌ الآن».

بالطبع كنتُ غاضباً، ولكن من نفسي.

* «وهل عليَّ أن أهلِّل لذلك؟». قلتُ لها باستياء.

- «أعلم بأني لم أكنْ على حق. أعلم أنني كنتُ شرِّيرةً وغبية. ولكن أين توجد الخقيقة؟ وما هي الحقيقة؟ كلُّ شخصٍ يراها بطريقةٍ مختلفة».

نهضنا، وقادنا النادلُ ذو البذلة الرسمية إلى المخرج. كان الضباب قد خيَّم على المدينة، وبدتْ أطلالها كالأشباح.

- «أأرافقك...». عرضَتْ بتردُّد.

* «لديَّ عربةٌ بالقرب من هنا. سأُقلِّكِ إلى المنزل».

- «أشعرُ بالبرد...».

أمسكتُ بها من خصرها. ومشينا بصمتٍ كلٌّ منا مستغرقٌ في التفكير في عالمه الخاص. انتهى المساء، واستحقَّ ذلك. ركنتُ المركبة على حافَّة الهضبة القاحلة. بعيداً كانت تنمو من قلب الضباب الخفيف كتلةٌ داكنةٌ لأطلال السجن. توقَّفت. كذلك حدَّقت هي إليها أيضاً.

- «مرعب». همسَتْ. «هل كنتَ هنا في تلك الليلة؟».

* «كنتُ هنا في تلك الليلة».

- «ولكن لا تريد التحدُّث عن ذلك؟».

كلا لا أريد التحدُّث أريد أن أنام. أو لا أريد أن أنام؟ أشعر بها بقربي. أشعر بجلدها الفتيِّ من خلال طبقتين. أشعر بخصرها النحيل، وحرارته على الرغم من كلِّ ما ترتديه. أشعر بها في كفِّي التي أمسكها بها. لا لا أريد أن أنام.

* «لا أريد التحدُّث. أريد أن أشرب».

- «و هل ستأخذني معك؟».

هل عليَّ أن آخذها معي؟

- «أريد أن أشربَ أيضاً».

* «أين يمكننا الذهاب؟».

- «هنالك بارٌ ليليٌّ هنا. الوحيد في المدينة بأكملها...».

أصبح عدد سكان المدينة مجدَّداً نحو نصف مليون نسمة. فيما مضى عندما لم يكن يعيش هنا أناسٌ أكثر بكثيرٍ من ذلك، كان يُقال إنَّ هنالك أكثر من مئتي ملهىً ليليٍّ هنا. خلال الحرب توقَّف معظمُها عن العمل. حالياً هنالك واحدٌ فقط، للأجانب...

يأتي الكثير من الأجانب إلى هذه المدينة، ولكن ليس من أولئك الذين يبحثون عن الملاهي الليلية. إنه بارٌ صغيٌر وتجهيزه ينمُّ عن حدٍّ أدنى من الذوق والقدرة على خلق الأجواء. مع عددٍ من الطاولات البلاستكية الصغيرة جدًّاً، ومقاعدَ غير مريحة. هنالك بضعة أشخاصٍ في المكان فقط، رجلٌ وحيدٌ يشبه كُلَّ أولئك الوحيدين الذي يرتادون النوادي الليلية في العالم، مجرَّد شخصٍ ضائعٍ في ضجر يوم الأحد. وفي الزاوية يجلس زوجان اثنان.

هنالك ساقٍ يقف متّكئاً إلى باب المطبخ الصغير. أمَّا نحن فجلسنا بالقرب من خزانة الزجاجات، لكنَّ الساقي لم يرَ بأنه من اللائق أن يعيرنا أيَّ اهتمام. لا يُهم، لديَّ بعض الوقت للاطِّلاع على لصاقات زجاجات الشراب في الخزانة. إنها تحتوي على أنواعٍ عديدةٍ من الشراب، ويسكي اسكتلندي وكونياك فرنسي، من المؤكَّد أنه فرنسيٌّ لكن ليس من أيٍّ صنفٍ معروف. لا توجد لصاقةٌ واحدةٌ لمجموعة شرابٍ معروفةٍ في العالم. إنها مجرَّد مجموعةٍ عشوائيةٍ غير متناسقة. حتى زجاجات الشراب هذه تشهد على تعقيد السياسة الخارجية لهذا البلد.

اضطررتُ إلى مناداة الساقي مرَّتين حتى يأتي. بدا وكأنَّ أسنانه تؤلمه، حتى حبيبتي الصغيرة انتبهت لذلك.

- «هل تؤلمه أسنانه؟».

* «كلا... لا يعجبه قميصي الداكن».

لكن عندما أَحضرَ الفودكا لم أستطعْ أن لا أسأله: «هل تؤلمك أسنانك؟».

رفع الساقي عينيه إلى السقف مبدياً انزعاجه من سؤالنا المُعذِّب هذا.

- «كنتُ أعمل فيما مضى في بار "شبلينديد" القديم يا سيِّدي. لم تكن تذهب إلى هنالك سوى الطبقة النبيلة».

نكزتْني حبيبتي الصغيرة، لم أكن أعرف إن كان ذلك من شدَّة الإثارة أم أنها كانت تحاول منع تطوُّر هذا الحوار المثير للاهتمام.

* «بقمصان بيضاء كالثلج، أليس كذلك؟».

- «بقمصان بيضاء كالثلج يا سيدي».

* «وبالزيِّ الرسميِّ الموحَّد».

لم يقلْ أيَّ شيء. في الواقع قال أكثر ممَّا بدا. أيُّها الجاهل حديث النعمة؛ ألا تعلم بأنَّ الزيَّ الرسميَّ الموحَّد كان بمثابة الملابس المسائية؟

* «كيف أمكنك العمل في "شبليندِيد" القديم؟ كنتَ حينها صغيراً... وكانت هنالك حرب شاملة...».

اختفى خلف الستار.

* «إنه مِثليٌّ...»، همستُ لحبيبتي الصغيرة. «شاذ... لديه مؤخَّرةٌ نحيلة، كما أنَّ حركاته وعيونه تفضح أمرَه».

- «فلنغادرْ...». توسَّلتْ.

* «كلا، ربَّما سنمرحُ بعد».

عاد الساقي.

* «كنتُ أعرف مكاناً هنا». استمررتُ في استفزازه «حيث لم يكن مسموحاً للمرء أن يظهر مرتدياً قميصاً أبيض».

يبدو عليك ذلك... وبَّختْني عيناه.

* «كان يُدعى "أتلانتيك"».

بدا على الساقي أنه يتعذَّب. لا بدَّ من أنه فطن لكوني أجنبياً وعليه أن يُجامل الأجانب، لكنَّ الأمر معقَّدٌ بعض الشيء أحياناً.

* «كان يتردَّد على ذلك المكان شخصٌ لم يكن يرتدي أيَّ قميص. لقد كان مكاناً رائعاً لكنك لم تكنْ تذهب إلى هنالك على ما يبدو».

- «كلا، أبداً...». ثمَّ مدَّ يديه أمامه غريزياً وكأنه كان يحمي نفسه من صفعة. «أبداً...». أعادها مرَّةً أخرى.

* «أوَ تتحدَّث عن النُّبلِ بعد كلِّ هذا؟».

نكزتْني حبيبتي الصغيرة وقد نفد صبرُها: «هيَّا لنذهبْ، لا تستفزه. دعه وشأنه». فالتفتُّ إليها.

* «لقد كنتُ مرَّةً من قبل في هذه المدينة كـغريب مشاكس». قلتُها بصوتٍ عالٍ، ربَّما عالٍ جدَّاً.

في إحدى زوايا المكان، كان هنالك عازف بيانو مسنٌّ يرتجل. مسنٌّ بثيابٍ رثَّةٍ وأنفٍ بنفسجيٍّ وجيوبٍ كبيرةٍ تحت عينيه. ربَّما أحسَّ بوجود توتُّرٍ بالقرب من مجموعة الشراب. أغلق البيانو ونهض ثمَّ أخرج من تحت البيانو آلة باندونيون ومرَّر أصابعه على أزرارها. تقدَّم نحونا وكانت قصَّة شعره الرماديِّ المغبر تشبه قصَّة هانز ألبيرز[1] ويترنَّح كهانز ألبيرز، وعندما بدأ بالغناء بصوتٍ ثملٍ عميقٍ من طبقة الباريتون، بدا تماماً وكأنه هانز ألبيرز. أخذ يغنِّي أغنيةً وجدانيةً مؤثِّرةً عن أمٍّ تنتظر ابنها، " ولدي يا ولدي، عد قريباً إلى منزلك، ولدي يا ولدي، لن تغادر مرة أخرى" لم تكن متلائمةً مع الجوِّ المتوقَّع في بار "شبلينديد". انتهى من الغناء ونظر إلَّي متلهِّفاً.

«كورن؟[2]». عرضت عليه. لعق شفتيه وفتح فمه في ابتسامةٍ عريضةٍ متملِّقة.

1- Hans Albers (1891-1960): ممثل ومغنٍّ ألماني مشهور، لمع نجمه في الفترة 1930-1945. (م).

2- Korn: ليكر ألماني عديم اللون غالباً ما يصنع من تخمير الشيلم. (م).

* «إنك تغنِّي كهانز ألبيرز تماماً... ولك غُرَّة شعرٍ مشابهة».

انحنى وهو في غاية السعادة.

- «شكراً لك يا سيِّدي! إنك في غاية اللطف إن سمحت لي بقول ذلك. غنَّيتُ مرَّةً فيما مضى أمام هانز ألبيرز... وأخبرني حينها هانزي... بأنني أكاد أؤدِّيها أفضل منه أحياناً... لكن هذا كان منذ زمنٍ بعيدٍ يا سيِّدي. ما الذي تودُّون سماعه يا سيِّدي؟».

* «ألن نشرب قبل ذلك؟».

تناولنا الشراب معاً وطلبتُ له شراب كورن آخر.

- «إنكَ في غاية اللطف يا سيِّدي، حقَّاً في غاية اللطف. سأعزفُ لكم أيَّ شيءٍ ترغبون في سماعه. فأنا أعرفها كلَّها».

* «أكنتَ تعرفُ "أتلانتيك"؟».

- «آه يا سيِّدي، "أتلانتيك"... بالطبع كنت أعرفها لقد كانت حانةً جميلة! كنتُ أعزف هنالك فيما مضى، لكنَّ ذلك كان منذ زمنٍ بعيدٍ قبل الحرب. كنتُ حينها يا سيِّدي، أستميحك عذراً، لا أزال شاباً. كانت حانةً رائعة، حميميةً للغاية. لكنها تدهورتْ خلال الحرب...».

* «كنتُ أذهب إلى هناك خلال الحرب».

- «أوه، عذراً يا سيِّدي، سامحني من فضلك لم أقصد الإساءة إليك على الإطلاق. أردتُ القول فقط إنه خلال الحرب لم تعد كما كانت من قبل. لكن قيل إنه خلال الحرب لم يعد أيُّ شيءٍ كما كان عليه من قبل، ألستُ على حقٍّ يا سيِّدي؟».

* «نعم، لم يعد أيُّ شيءٍ كما كان».

- «إنك في غاية اللطف يا سيِّدي، حقّاً في غاية اللطف. إني أدينُ لكم بذلك. اسمحْ لي بأن أقول لكم إنني مدينٌ لكم جدّاً. أترغبون في شيءٍ خاصٍّ ومميَّز؟ أُجيد عزف كلِّ شيء...».

* «كلا، ليس الآن، لاحقاً».

غادرنا مودِّعاً وهو ينحني أمامنا، ثمَّ قام بانحناءةٍ كبيرةٍ نحونا وهو يجلس في مكانه. وبناءً على إشارتي قدَّم لنا الساقي من دون أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ كأسين من الفودكا. عصرتُ فوقها نصف ليمونة. يبدو أن مذاقها أعجب حبيبتي الصغيرة.

* «ألا ترتدين قمصاناً بيضاء أبداً؟».

- «بلى، لكنني لا أحبِّذُ ذلك».

* «لماذا؟ إنها أنيقة، وترفعُ من قيمة المرء».

- «لهذا السبب تحديداً؛ فجولتي المطوَّلة الخريف الماضي في ألمانيا الغربية كانت أكثر من كافية». حدَّقَت في السائل العكر الذي أمامها، «يبدو أنكَ تكرهنا نحنُ الألمان كُرهاً شديداً، أليس كذلك؟»

* «ليس تماماً يا حبيبتي الصغيرة. في كلِّ الأحوال الكُره برنامجٌ سيِّئ. إني منحاز، ولا يمكنني أن لا أكون كذلك. وربَّما أنتقدُ أكثر من اللازم».

- «جميعُ الألمان سيِّئون، أليس كذلك؟ وأنتَ الجيِّد والذكيُّ والمثالي!».

* «أنتِ تتفوَّهين بالحماقات».

- «لا تتملَّص! إنها الحقيقة؛ الألمان سيِّئون. أنا أعرفُ ذلك. إنني

ألمانية ولكنني أعرف أنَّ الألمان سيِّئون. قلْ لي؛ هل عرفتَ ألمانياً كان في وسعكَ احترامه؟ وفي مقدوركَ أن تحبَّه؟».

* «عرفتُ الكثيرَ منهم يا حبيبتي الصغيرة».

- «ما يجعل الأمر يزداد سوءاً».

* «يجبُ عليكم يا حبيبتي الصغيرة أن تبدؤوا أخيراً في التفكير في ما أنتم عليه وليس فيما يظنُّه الآخرون بكم، وإلا لن تصلوا هكذا إلى أيِّ نتيجة».

- «وما الذي يمكن أن أكون عليه؟ فوالدي كان مجرم حرب».

* «كان؟».

- «لا أعرف. أحياناً أعتقد بأنه كان، وأحياناً أخرى بأنه لم يكن».

* «سيأتي وقتٌ عليكِ أن تقرِّري فيه وتختاري بين الأمرين».

- «إنه أمرٌ صعب. أريد أن أكون إنسانةً طبيعية، امرأةً عاديَّةً لا أكثر. ولكن والدي أُعدمَ شنقاً. مهما حاولتُ في لحظةٍ ما أن أنسى ذلك، لكنَّ المحيط من حولي لن يسمح لك. فمنذ صغري كان بعض الأطفال في المدرسة يحتقرونني، وآخرون ينظرون إليَّ وكأني شيءٌ مميَّز؛ ابنة شهيدٍ بطل».

* «لكن هنا سيدعونكِ وشأنكِ؟».

- «الناس؟ نعم. ولكن أنا نفسي لا أملكُ بعدُ سلاماً داخلياً. أحياناً يكون من الأسوأ أن أواجه الأمر بنفسي من دون أن أملك القدرة على نسيانه للحظة».

* «إذاً لذلك أتيتِ إلى هنا؟».

- «كلا، ليس هذا هو السبب. ولكن أكملْ، أكملْ حديثك عن هذه المدينة. أريد معرفة كلِّ شيءٍ عنها».

* «أنا لا أعرف كلَّ شيءٍ عنها».

- «لا يهم. تحدَّثْ فقط. عن أيِّ شيء. أخبرني كيف كان "أتلانتيك"؟».

- 4 -

سأحدِّثكِ يا حبيبتي الصغيرة عن حانة. فعبارة "بارِ ليلي" تسميةٌ فاخرةٌ جدَّاً لحانةٍ وضيعةٍ كتلك. كانت تقع على ناصية شارع زيغفريد، وكانوا يدخلون إليها عبر درجٍ إلى الأسفل. كانوا يفتحون الساعة الحادية عشر صباحاً، وكان لديهم شيءٌ جيِّدٌ مشتركٌ مع "إليفانت" حينها؛ وهو أنه لم يكن أحدٌ يهتمُّ بساعة إغلاقهما. ساعة الإغلاق كانت حينما يغادر آخر الضيوف، إن كان من الممكن إطلاق مثل هذا الوصف على روَّاد هذه الحانة الوضيعة. أو عندما يغضبُ المالك ويطرد كلَّ تلك الحثالة التي كانت تتدفَّأ مجَّاناً بالقرب من الموقد الكبير. أو عندما يتعارك الجميع مع بعضهم البعض. وكان من النادر جدَّاً أن يُغلق بسبب مداهمةٍ للشرطة.

كنتُ أتردَّد كثيراً على ذلك المكان، لكن لوحدي، فلم يكن "أتلانتيك" يروق لتشارلي. فهو بالفعل لم يكن ذا رائحةٍ عطرة، حيث كان يهبُّ على الزائر لدى نزوله الدرج خليطٌ حادٌّ من روائح البول والكريولاين وبقايا الطعام التي تمَّ تقيُّؤها، والجعة وكل شيءٍ آخر. لكن كانت هنالك أجواء مرحةٌ وجامحةٌ لم يكن لها مثيلٌ في أيِّ مكانٍ آخر.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على تجوُّلي في سانت باولي في مدينتك هامبورغ. لقد قمتُ بزيارة عدَّة حاناتٍ مشهورةٍ في ريبربان، وكان فيها تنوُّعٌ كبيرٌ وصخبٌ وخطورة، ولكن لم يكن هنالك أيُّ متعةٍ أو بهجةٍ يا صبيَّة، مع أنه لا توجد حربٌ الآن. أمَّا في "أتلانتيك" فكانت هنالك متعةٌ وبهجةٌ لا تُوصفان، ولكن من يدري؟ ربَّما كان ذلك بسبب كثرة الحرب وقتها!

كان تشارلي دائماً يحذِّرني من أنَّ "أتلانتيك" مليءٌ بعناصر الغيستابو. ولكنَّ هؤلاء كانوا يرتادون "إليفانت" غالباً، لم يكن "أتلانتيك" مهمَّاً بالنسبة إليهم. فما الذي كان في إمكانهم معرفته هناك ولم يكونوا يعرفونه من قبل؟ وما الذي كان في إمكانهم العثور عليه واكتشافه؟ بكونه ملتقى النصَّابين والقوَّادين والعجائز من بائعات الهوى المتقاعدات؟ إنَّ ذلك لم يكن سرَّاً على الإطلاق. في "أتلانتيك" لم يكن أحدٌ لينزعج من بولنديٍّ بلا قميصٍ يخرج إلى فناءٍ مظلمٍ وبرفقته بائعة هوى ألمانية، مع أنها لا تزال تُعتبر امرأةً ألمانيةً وفق القانون. وهنالك كانت لا تسري حتى قوانين الحفاظ على نقاء العرق الصافي. فلم يعد هنالك ما يمكن الحفاظ عليه نقيَّاً لدى هؤلاء.

كانت حانةً وسخةً مسودة. مصابيح السقف فيها كانت محميَّةً بشبكةٍ معدنيةٍ حتى لا يقوم زائرٌ متحمِّسٌ بتحطيمها بواسطة رِجْل كرسي. لم يكن هنالك كراسٍ أصلاً، فحول الطاولات الوسخة التي كان اللون الأبيض عليها هو الأكثر اتِّساخاً، كانت توجد مقاعدُ ضخمةٌ من خشب البلوط. وعندما يبدأ أحدهم يا حبيبتي الصغيرة بالتلويح بمقعدٍ كهذا خلال مشاجرةٍ ما، عندها تبدأ العظام والرؤوس بالفرقعة.

أشياءُ كصحون السجائر كانت لتُعتبرَ في "أتلانتيك" من علاماتِ الترف غير المرغوب فيه وغير المناسب، مع أنهم كانوا يدخِّنون هنا أكثر من "إليفانت" بكثير. ففي "إليفانت" كان في إمكانكِ أن تشتري من النادل سجائرَ عالميةً فاخرة، لكن حتى أرقى الزوَّار لم يكن في مقدورهم تحمُّل كلفتها الباهظة. فكانوا يكتفون بعُلبةٍ على سبيل التذوُّق. كان تشارلي يحدِّثني كم كان المدخِّنون هنالك مثيرين للسخرية. ولا بدَّ من أنه كان منظراً مضحكاً عندما يقوم ضابطٌ ذو رتبةٍ عاليةٍ بعد تدخينه للسيجارة بإخراج مقصٍّ من جيبه ليقصَّ الرماد المشتعل ممَّا تبقَّى منها. في "أتلانتيك" لم يكن أحد يحتفظ بأعقاب السجائر في علبة معدنية، كانت السجائر هنالك تُدخَّن حتى آخر ذرَّة. فقد كان المُدخِّن عندما تحترق أنامله يغرز ما تبقَّى منها على دبُّوس.

في "إليفانت" كان في الإمكان لفترة ما بعد الغزو الحصول على محارٍ طازج، حيث توجَّب عليهم نقله في عرباتٍ مبرَّدةٍ لمسافاتٍ طويلةٍ داخل اليابسة. وكذلك في "أتلانتيك" كانت تُقام الولائم أيضاً. فقد كان أحدهم ليُخرِج رأس خنزيرٍ كامل، وآخرُ سيأتي بالخبز، وثالثٌ سيضع زجاجة بالينكا كريهة الرائحة، ورابعٌ سيأتي بالبصل. أمَّا بائعات الهوى الألمانيات فكنَّ يذهبنَّ إلى هنالك لتناول الطعام مجَّاناً. بالطبع لا يمكن مقارنة جعةٍ متخمِّرةٍ من الدرجة السادسة بالشمبانيا، والمشروبات الكحولية غير الشرعية المقطَّرة من اللفت السويديِّ لا يمكن مقارنتها بالمارتيني، فبعد خليطٍ كهذا كان المرء يُصاب بصُداعٍ رهيب، لكن ربَّما كان المرء وقتها أفضل حالاً من اليوم التالي عندما تأخذ رأسه بالانفجار.

كان المكان هنالك شديد الازدحام دائماً. الشبَّان الذين لم يجدوا مكاناً للجلوس إلى طاولةٍ ما، كانوا يحيطون بخزانة المشروب. وهؤلاء الذين لم يتَّسعْ لهم المكان حول خزانة المشروب، كانوا يقفون مستندين إلى جدرانٍ تملؤها رسوماتٌ كانت لتحمرَّ خجلاً منها أيّة بائعة هوى حديثة العهد.

كلَّ مساءٍ كانت تلتقي هناك حثالةُ أوروبّا. ففي تلك الوجوه الضامرة الهزيلة لم يعد هنالك الكثير من الإنسانية، بل عيونٌ جشعةٌ تراقب دائماً ما حولها بحذر، عيونٌ كبيرةٌ متسائلة، عيونٌ متثاقلةٌ لمُفلسين مدى الحياة، يستَجدون من رفاقهم الأوفر حظّاً نَفَساً من الدُّخان أو بقايا جِعةٍ أو طعام، وينظرون دوماً بانبهارٍ إلى زجاجة البالينكا الموجودة على طاولةٍ ما. من أين كانوا يتوافدون كلَّ مساءٍ إلى هنا؟ أين كانوا ينامون؟ ماذا كانوا يفعلون خلال النهار؟ لم يكنْ أحدٌ يعرف ذلك يا حبيبتي الصغيرة، ولم يكن أحدٌ يهتمُّ بذلك. لم يكن أحدٌ يريد معرفة أيِّ شيءٍ عن الآخر، أسئلةٌ كهذه كانت غير لائقةٍ وخطيرة.

من يدري أيّة مواهبَ مختلفةٍ قد اندمجتْ هناك، ومن أين ومن أيِّ بيئةٍ انتزعتْ الحرب الألمانية هؤلاء الناس! ولم يكن في الإمكان بناءً على ملابسهم أو أشكالهم تقدير ماذا كان كلٌّ منهم فيما مضى. تقرَّبتُ هنالك من فرنسيٍّ متجنِّس، كان يُدعى بوريس وكان مدخِّناً شرهاً أرمي له بعض السجائر بين الحين والآخر. لم يكنْ في العالم كلبٌ ينظر بكلِّ هذا الامتنان إلى سيِّده وهو يرمي له عظمة، كما كان ينظر إليَّ ذلك الروسيُّ الأسبق. ذات مرَّة، كنا قد شرِبنا هنالك معاً زجاجةً كاملةً من المشروبات الكحولية غير المرخَّصة. فأصبحتْ عيونُ بوريس المُطفأة

تبرق بحيوية، وبات أكثرَ ثقةً وثرثرةً، فأخبرني عن نصيبه من هذه الحياة وقدره، والذي كان قدرَ أوروبًا وتاريخها الحيِّ البائس. قاتلَ بوريس ضمن قوَّات فرانجل[1]، ليغادر القرم على إحدى آخر السفن، ثمَّ وصل إلى فرنسا، هنالك من دون مالٍ ولا عملٍ التحق بالفيلق الأجنبي[2]. وقَّع عقداً لخمس سنواتٍ، وبعد انتهائه مدَّدَ لخمس سنواتٍ أخرى، فذهب إلى المغرب وسوريا والصحراء الكبرى حيث رُقِّي إلى ضابطٍ، وبعد عشر سنواتٍ من الخدمة في الصحراء حصل على الجنسيّة الفرنسية ليُنهي خدمته كضابطٍ ويحصل على تقاعدٍ جيِّد. ولكنه كان جندياً، وكجنديٍّ بلا سيفه المنحني المعلَّق على خصره كان يشعر بأنه بلا جدوى، فذهب إلى إسبانيا والتحق بالحمر، ولكنها كانت مجرَّد مصادفةٍ، فقد كان ليلتحق بالسود أو الأرجوانيين أو المبرقعين، كان تدور هنالك حربٌ طاحنة، حربٌ أهلية، وقتالٌ ضارٍ، فذهب إلى هناك، ثمَّ عبر البيريني مع واحدةٍ من آخر السرايا المحطَّمة ليعود إلى باريس. واندلعت الحرب من جديدٍ، لكنه كان جندياً وضابطاً، فتطوَّع وأُسندتْ إليه قيادةُ سَرِيَّة السفَّاحين السود[3]، لم يتمكَّن من الوصول إلى دنكيرك[4]

1- بيوتر نيكولايفيتش فرانجل (1878-1928) ضابط في الجيش الإمبراطوري الروسي وفيما بعد قائد الجيش الأبيض المناهض للبلشفية في جنوب روسيا خلال المراحل المتأخرة من الحرب الأهلية الروسية. (م).

2- وحدة عسكرية في الجيش الفرنسي أنشئت في 1831 خصوصاً للأجانب الذين يرغبون في أن يخدموا في القوات المسلحة الفرنسية، ولكن بقيادة الضباط الفرنسيين. (م).

3- من سرايا الفيلق الأجنبي الفرنسي والمختصة بعمليات الاغتيال والتصفية. (م).

4- ميناء في فرنسا شهد عملية انسحاب القوات البريطانية المنهزمة في أوروبا أمام القوات الألمانية خلال بدايات الحرب عام 1940. (م).

فأسره الألمان، وكأسيرٍ عمل في مكانٍ هنا قريبٍ لدى مُزارعٍ ألماني، ولكنه هرب من هناك واختفى في العالم السفليِّ لهذه المدينة. كان قد التحق بالمدرسة العسكرية القيصرية لدى بلوغه الحادية عشرة من عمره، وظلَّ من الحادية عشرة وحتى الأربعين من عمره يحمل السلاح في الخدمة وخلال القتال وعلى الدوام كجنديٍّ محترفٍ، وفجأةً أصبح بلا جدوى، جنديّاً بلا قطعةٍ وبلا سلاحٍ وبلا ثكنةٍ وبلا نظام، ضابطاً بلا سَرِيَّته، مُنتجَ الإفلاس الأوروبي، شبحاً وصل مترنِّحاً إلى نهاية مسيرته.

كانوا ليأخذوه يا حبيبتي الصغيرة. الألمان كانوا ليأخذوه أيضاً. فالألمان رغبوا في مثل هؤلاء، وأنشأوا جيوشاً منهم تضمُّ جنود الجيش الأبيض[1] والفارِّين والأسرى الذي استسلموا لضغوطهم أو وعودهم، كان ربَّما ليجيد توظيف خبرته وعرض خدماته عليهم لينضمَّ إليهم، لكنه لم يفعلْ ذلك يا حبيبتي الصغيرة.

جلسَتْ معنا فتاة ليل، بشعرٍ مصبوغٍ وقوامٍ مترهِّلٍ كفرسٍ منتفخة، رأيتُ كيف لمعتْ عيناه وكم رغب في الحصول عليها، فملأتُ قدحاً بالبالينكا وقلتُ لها: اذهبي معه وبعدها ستشربين هذه... خرجا إلى الفناء المظلم. وبعد قليل عادت بمفردها. جلسَتْ، وبصوتٍ مرتفعٍ ليتمكَّن الجميع من سماعه، أخذت تشرحُ لي: «هذا ليس برجلٍ، إنه عاجزٌ مخصيٌّ لا قدرة له...». طبعاً فقد أمضى ثلثي حياته في الصحراء من مكانٍ إلى آخر، فالنوع الوحيد من النساء الذي عرفه كان كهذه.

1- الجناح العسكري للحركة البيضاء التي تضم القوات السياسية والعسكرية الروسية المناهضة للبلشفية بعد ثورة أكتوبر وحاربت الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية الروسية بين سنتي 1917 و1923. (م).

ما كان ليزعجه الأمر على الأغلب، بل ما أزعجه حقّاً هو افتقاده إلى سيفه المنحني المعلَّق على خصره، هذا بالتحديد ما جعل منه ذلك الحُطام...

كان يرتاد المكانَ غجريٌّ ربَّما من بولندا أو من البلقان، كان غجرياً زير نساء بحق، وجهه مشوَّهٌ من زهريٍّ موروث، كان مقابلَ كأسٍ من الجعة يتحدَّث عن مغامراته مع النساء الألمانيات. المكان بأسره كان ينفجر ضاحكاً. قدمَ إلى ألمانيا قبل خمسة أعوامٍ من أجل العمل، ولكن كان له تصوُّره الخاص، لذلك فخلال تلك المدَّة بأسرها لم يضربْ ولا لمرَّةٍ واحدةٍ معولاً في الأرض. فمنذ الليلة الأولى في حانةٍ ما في مدينةٍ ما في الراين لم يكن يُجيد تسميتها حتى، تعرَّف إلى أرملةٍ ما كانتْ تُنفق عليه وتكسوه، وبعد فترةٍ قالت له: «عزيزي بنيامينو - كان يقدِّم نفسه كإيطالي مرتدياً قميصاً أسودَ وربطة عنقٍ ذهبيَّةً ومعطفاً بلون الكناري مع حذاءٍ أصفرَ مدبَّب - عزيزي بنيامينو، أنا حامل، حان وقت الذهاب إلى البلدية». بالطبع كان هو يعتقد بأن الوقت قد حان للهروب، وبعد يومين في مدينةٍ ألمانيةٍ أخرى كان مستلقياً في فراش امرأةٍ ألمانيةٍ أخرى، لتكسوه وتنفق عليه وتستمع إليه بولعٍ شديدٍ وهو يغنِّي "آه يا نابولي الجميلة" بكلِّ حماسة، وبعد فترةٍ من الزمن يختفي مجدداً...

«ثماني عشرة محكمةٍ تبحث عني أنا بنيامين كامباري من أجل نفقات الإعالة!». كان يصيح بحماس: «خلال خمس سنواتٍ زرعتُ في أرحامهنَّ ثمانية عشر ابنَ زنا في كلِّ أنحاء ألمانيا. تبَّاً لهم ولعرقهم الصافي!». كان الجميع ينظر إليه نظرةَ إعجابٍ وحسد، محتالٌ غجريٌّ لكنه كان يبرع في ذلك...

مرَّةً واحدةً صاح بلقاني ما في وجهه - إنك حقير! مجرَّد خنزيرٍ غجريّ، مضاجعة الألمانيات ليست إنجازاً، إنهنَّ مجرَّد أرامل حربٍ أو عرائس حرب، هذه ليست براعة، إنها وضاعة...

«و ماذا تفعل أنت؟ أتُقحمه في البراميل؟». ردُّوا على البلقانيِّ صائحين.

«أنا؟ أنا زير نساءٍ أيضاً مثل هذا الخنزير! تتهافت الألمانيات عليَّ كتهافُتِ الدبابير على البطِّيخ. ولكن انظرْ...». أخرج ذلك الشخص من جيبه موساً ذا شفرةٍ عريضةٍ وجديدةٍ، فتحه، مرَّر إبهامه عليها فسُمع رنينها. «يتهافتن عليَّ أيضاً كما يتهافتن على هذا الخنزير الغجري»، كان يصيح، «ولكني لا أكمل مع امرأةٍ كهذه، فأنا أذهب مع الألمانية وأدعها تقوم بضيافتي، أعرِّيها ثمَّ أقوم بحلاقته. هكذا يجب أن يجري التعامل معهن. فلتشرحْ لاحقاً لزوجها العائد مصادفةً من الجبهة أو للمعاق الألمانيِّ الذي تعيش معه ماذا حدث لها».

«إنك مجنون!». كانوا يضايقونه. «إنك تختلق ذلك! بكلِّ بساطةٍ ستسمح لك بحلاقتها، وخاصَّةً هنالك!».

«ستسمح، طبعا ستسمَح، فقط أظهروا لها الموس لترى كيف ستتجمَّد، كيف تصبح أليفةً، كيف تبكي وتتوسَّل وتشتم وتنتحب، لكنَّ الموس يبقى موساً يا أخي ولا مكان للمزاح معه. هذا هو الأمر الرائع عندما تتوسَّل وترثي لحالها. تبَّاً لهنَّ ولزير النساء!».

- «هذا مقرف!».

* «طبعا إنه مقرفٌ يا حبيبتي الصغيرة. أخبرتكِ عن نوعية الناس

الذين كانوا يرتادون المكان. ولكن كم هو أكثر قرفاً من ينبوع حياة هملر[1]، مفرخة العرق الصافي تلك! مكانٌ اختير بعناية لفتياتٍ اصطُفينَ عرقياً، فتياتٍ يافعاتٍ ألمانياتٍ ذوات شعرٍ ذهبيٍّ وأعينٍ زرقاءَ وشكل جمجمةٍ وتكويرة ومتانة نهودٍ وعرض وركين، مثاليةٍ من الناحية العرقية، ليطلقوا عليهنَّ ذكوراً من الوحدة الوقائية[2] قد اختيروا وأرادوا بذلك الحصول على نخبة العرق الصافي نبلاء الهيرنفولك[3]. حسب التصوُّرات الجمالية والأنساب كان يجب أن يكونوا سلالةً جديدةً وصحِّيةً غير فاسدةٍ من التوتونين. لكنَّ الأبحاث التي لم تُجرَ إلا بعد نهاية الحرب أظهرت أن الأطفال الذين ولدوا في ينبوع الحياة، كانوا بمعظمهم متخلِّفين عقلياً».

- «لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً...».

* «إنها الحقيقة يا صبيَّة».

- «لم أسمعْ عن هذا أبداً».

* «لم تسمعي بكثيرٍ من الأمور على ما يبدو...».

1- Lebensborn: جمعية مدعومة من قبل حكومة الرايخ الثالث النازية، أُسست من قبل هملر في عام 1935 وهدفت وفقاً للإيديولوجيا النازية عن النقاء العرقي إلى زيادة أعداد المواليد من العرق الآري ومن بينهم أيضاً المواليد من خارج العلاقة الزوجية. (م).

2- Schutzstaffel: تعرف اختصاراً SS، منظمة مسلحة تابعة للحزب النازي الألماني أُنشئت سنة 1925 وكُلِّفت بمهمة حماية هتلر. ترأَّسها في أوج قوتها هاينريش هملر ومع الوقت أصبحت تسيطر على الأجهزة الحكومية والأمنية في الدولة النازية كافة. (م).

3- Herrenvolk: العِرق المسيطر وهو مفهوم نازي ينظر لتفوق العرق الآري على باقي الأعراق. (م).

بالكاد سمعتِ يا صبيَّة عن أعراس الجبهات التي تُقام عن بُعد. أتعرفين كم من نساءٍ ألمانياتٍ يافعاتٍ حمقاواتٍ أصبحن أراملَ حربٍ قبل أن يفقدنَ عذريتهنَّ حتى؟ فالجنديُّ يكتبُ إلى هيئة الزواج الحربي، أريدُ أن أتزوَّج، أريد أن يفكِّر فيَّ أحدهم عندما أضحِّي بحياتي من أجل الزعيم على مذبح الوطن، مواصفاتي كذا وكذا، أبعثُ لكم صورةً فوتوغرافية... يرسلون إليه إلى الجبهة أيضاً صورةً لفتاةٍ تتوق إلى الزواج من بطل. كثيراً ما كان يُقام الزواج من على بعد آلاف الكيلومترات، الجنديُّ هانز ماير أجاب عن سؤال الضابط: نعم أتَّخذ إنغه مولير زوجةً لي، وكذلك إنغه أجابت أمام كاتب العدل، ليصبحا زوجين من دون ألمٍ ولا جهد. كان يعيش في المدنِ الألمانية الآلاف من هؤلاء الأرامل العذارى.

المدن الألمانية كانت تعجُّ بالحثالة الأجنبية، طبعا كانوا أجانبَ مزعجين، ولكن كانوا ذكوراً، ومهما كانت القوانين التي تحرِّم مضاجعة البولنديِّ أو اليهوديِّ أو القوَّة العاملة الشرقية، غير إنسانيةٍ ووحشيةٍ بكلِّ تأكيد، لكن كان الأمر يحدث مراراً وتكراراً. بادئ الأمر كانت تنشر الأحكام على اللواتي ألحقنَ العار بالعرق الصافي في الصحف مع عناوينَ مثيرةٍ، ثمَّ توقَّفوا عن ذلك. كانت عقوبة ذلك الإعدام يا حبيبتي الصغيرة، المرأة الألمانية التي تنام مع بولنديٍّ تقترف بذلك جريمةً جنسيةً، والتي كانت عقوبتها لكلا المذنبين الإعدام من دون عفو. ولكن يا حبيبتي الصغيرة ألمانيا كان قد قُضي عليها وانتهت، والكثير من النساء الألمانيات كُنَّ يفضِّلنَ المخاطرة بتعليقهنَّ على حبل المشنقة مقابل ليلةٍ حمراء، على أن يبقين لوحدهنَّ هكذا. عندها لم يعدْ

ينفع أيُّ شيءٍ، لا المناشدات ولا القوانين القاسية ولا التهديدات ولا تنفيذ الأحكام. لم يكنْ في مقدور النساء أن يبقين بلا رجال، والرجال الألمان كانوا بعيداً على الجبهات، وأولئك الملايين من العمَّال الأجانب الذين استقدموا بالقوَّة إلى البلاد، لم يكن في إمكانهم العيش بلا نساء. طبعاً كان ذلك كلُّه مقرفاً يا حبيبتي الصغيرة. لكنَّ الحرب ليست راقيةً بأيِّ شكلٍ من الأشكال. الحرب الألمانية اقتلعت أقدار ملايين البشر من جذورها وسكبتْها في خليطٍ من عصيدةٍ مجنونة. وفي "أتلانتيك" كانت تلتقي رواسب وخبيصة هذه العصيدة.

في "أتلانتيك" لم يكنْ أحدٌ يعزف على البيانو يا حبيبتي الصغيرة، لكن هذا لا يعني بأنه لم تكنْ هنالك أية موسيقا؛ بل كانت هنالك موسيقا مميَّزة، الوحيدة التي لها أفضلية الأرض والجمهور والتي لا يمكن أن تلقى رواجاً إلا هناك. كان يوجد تشيكيٌّ يُدعى لويزيك يصدح بعزفه على المنشار كلَّ ليلة؛ على منشار خشبٍ يستخدمه الحطَّابون يا حبيبتي الصغيرة، منشارٍ طويلٍ بأسنانٍ كبيرةٍ عريضةٍ في المنتصف وضيِّقةٍ عند الجانبين. من المؤكَّد أنكِ لم تسمعي موسيقا كهذه أبداً، ولكن ربَّما تعرفين كيف يرنُّ منشار الخشب عندما تهزِّينه. لويزيك هذا كان ذا موهبةٍ عظيمة، ربَّما في زمنٍ آخرَ وبيئةٍ أخرى كان ليستحقَّ الحصول على آلةٍ مختلفة، ولكن لم يكن يليق ببار "أتلانتيك" أية آلةٍ أخرى كما منشار الخشب هذا. كان يعزف الأغاني التشيكية التي تعلَّمَ الجميع غناءها، حتى الفرنسيون واليونانيون والدنماركيون. كان يعزف على المنشار أغنياتٍ كـ "لا يهمُّنا، لا يهمُّنا، لا نملك نقوداً أبداً.." وكان يعزف على المنشار "أكواخ تحت الجبال، واو واواو و واو واوو..."

وأيضاً "وداع الأمّ هو الفراق الأكثر حزناً، وا ووو وا وي وي وو وي وي ووو..." كذلك كان يعزف "فطائر البطاطس التي كانت تصنعها أمّي...". والتي كانت أغنيةً تنتمي إلى "أتلانتيك"، وكان على لويزيك أن يعزفها مستخدماً قوس الكونترباص عدّة مرّات خلال الليلة، فعندما يعزفها لأوّل مرّةٍ كانت الحياة تعود إلى تلك الوجوه الرمادية الهزيلة وتصدح حناجرهم بكلماتها، أمّا عندما كان يعزفها بعد منتصف الليل للمرّة الثالثة، كان الصمت يسود المكان وعلى خدود أولئك الأشباح كانت تسيل دموعٌ بحجم حبّات البازلاء. فطائر البطاطس... كانت هي الوطن، هي الحلم، هي كلُّ شيءٍ لم يتحقّقْ لهم في حياتهم، كلُّ ما فقدوه وما لم يعدْ في الإمكان إعادته.

بعد ستالينغراد يا صبيّة قام جنديٌّ ما بتأليف أغنيةٍ حقّقتْ رواجاً سريعاً. حتى غوبلز[1] منحها صفة "القيمة الفنّية"، ولكن بعد فترةٍ قصيرةٍ مُنع الجنود من غنائها، ومُنعت من عزفها بعض الفرق التي كانت لا تزال تؤدّيها. كان مجرّد امتلاكك في منزلك لأسطوانة فونغراف تحتوي على هذه الأغنية أمراً خطيراً. وعندما كانوا يُحاكِمون أحدهم بتهمة الانهزامية والتحريض، كانت الأسطوانة بالنسبة إليه ظرفاً مشدّداً للعقوبة. لكن لويزيك كان يعزفها كلَّ مساءٍ عند منتصف الليل مُمرِّراً قوسه على المنشار عازفاً نغماتها الحزينة لنقف حينها جميعنا نغنّي تلك الأغنية الألمانية، كان لويزيك يعزفها بإيقاعٍ بطيءٍ، وعندما

1- Joseph Goebbels (1897-1945): وزير الدعاية السياسية في ألمانيا النازية. بعد انتحار هتلر عند نهاية الحرب، انتحر بالسم هو و زوجته وأطفاله الستة حتى لا يقعوا بيد القوات السوفيتية. (م).

باتت الأغنية تصدح من جميع الحناجر بدت وكأنها ترنيمة. التشيك والصرب والدنماركيون والفرنسيون والبولنديون والإيطاليون كانوا يغنُّونها بحماسةٍ عاطفية، مع أنهم لم يعرفوا من الألمانية سوى تلك الكلمات: "اوووو وووو وه وه اووو ووو وه لكلِّ شيءٍ نهاية، وسينتهي كلُّ شيء، فبعد كلِّ ديسمبر يأتي مجدَّداً مايو..."، إنه لأمرٌ غريبٌ جدَّاً ما الذي يمكن لأغنيةٍ واحدةٍ أن تفعله بالناس!

لم يكنْ تشارلي يذهب إلى هنالك أبداً، كان مغروراً بعض الشيء، لم يكنْ هذا جوَّه، ولكنه كان يعجبني، فهو جوٌّ من المرح لم يكن موجوداً في أيِّ مكانٍ آخر. لكن كلَّ شيءٍ كان حزيناً جدَّاً، مع كلِّ هؤلاء الناس ذوي المصير البائس والمحطَّمين في القاع والذين كان في إمكانهم ويريدون العيش بطريقةٍ مختلفة.

كنتُ أُخبِر لويزا عن "أتلانتيك"، فتناشدني أن أصحبها ولو لمرَّةٍ واحدةٍ إلى هناك، لكن تلك الأفراس ذوات الشعر المصبوغ كُنَّ ليقتلعن عينيها حال دخولها، لويزا لم تكن لتناسب المكان هناك بأيِّ شكلٍ من الأشكال، ولم يكن يروق لهم هنالك رؤية الغرباء، تماماً مثل ما كانوا في "إليفانت" غير سعيدين برؤية الغرباء. أرادت لويزا الذهاب إلى هناك مهما كلَّف الأمر، وفي النهاية رضختُ لها يا حبيبتي الصغيرة واصطحبتها معي إلى "أتلانتيك"، لحسن الحظِّ لم تقتلع العجائز من العاهرات عينيها، وجلسنا إلى طاولةٍ مع البولنديِّ الذي كان يمقت القمصان، لا أدري ما الذي كانت تنتظره لويزا؛ لم يكن ليعجبها شيءٌ هناك، ولكن بما أنها أخيراً استطاعت الدخول إلى هناك فقد أرادت البقاء.

في تلك الليلة حصل ما لم يحدثْ أبداً من قبل يا حبيبتي الصغيرة. ظهر في المدخل رجلان يرتديان معاطفَ جلديةً ويعتمران قبَّعات صيد، وألقيا نظرةً استكشافيةً على المكان. الجميع كان يحدِّق فيهما، والكلُّ كان صامتاً، ثمَّ ذهبا إلى خزانة المشروب وهمسا بشيءٍ ما للساقي، ثمَّ التفتَ أحدهم نحو طاولتنا وغمزني، ثمَّ غمزني مرَّةً أخرى مشيراً برأسه نحو المخرج، فهمتُ ذلك فنهضتُ وأخبرتُ لويزا بأني سأعود بعد قليل، وصعدتُ الدرج الكريه. هنالك قام الرجل الجِلديُّ بإقحام فوَّهة المسدَّس في بطني وقال: تصرَّفْ بهدوءٍ بلا أيَّة حماقات، وكأنَّ شيئاً لم يحدثْ. ثمَّ قادني عبر الدرج للأعلى نحو الشارع مكرِّراً باستمرار: بلا حماقات. ظلَّتْ لويزا هنالك لوحدها، وبعد عدَّة دقائقَ دوتْ صفَّاراتُ الإنذار محذِّرةً من بدء غارةٍ جوية، أضاءت العشرات من شموع روزفلت[1] سماء المدينة محوِّلةً ليلها إلى نهار، قلتُ لعنصر الغيستابو: سيبدأ القصف. فأخذ يصيح في وجهي: تابع سيرك بسرعة، وحماقات أخرى...

- «من كانت لويزا؟».

* «كنا نعيش معاً يا حبيبتي الصغيرة».

- «أهي ألمانية؟».

* «نعم، ألمانية».

---

1 - إشارة إلى المشاعل المحترقة التي كانت تثبت إلى مظلات وتلقى من الطائرات الأمريكية قبل بدأ عمليات القصف الجوي لإنارة السماء فوق الأهداف. وسُمِّيت بذلك نسبة لرئيس الولايات المتحدة خلال الحرب فرانكلين روزفلت. (م).

- «مثل أولئك الملايين اللواتي كنتَ تتحدَّث عنهنَّ قبل قليل؟ أرملة حرب؟».

* «نعم، كانت أرملة حرب. مثل ملايين النساء الألمانيات».

- «وأنتَ كنت أيضاً مثل أولئك الملايين الذين تحدَّثتَ عنهم؟».

* «نعم، كنتُ واحداً منهم».

- «هل مارستَ الحبَّ معها؟».

* «نعم، مارستُ الحبَّ معها».

- «هل أحببتَها؟».

* «نعم، أحببتُها يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل كانت جميلة؟».

* «كانت تروق لي».

- «لقد أحببتَها مع أنها كانت ألمانية؟ واحدة من أولئك الملايين اللواتي تحدَّثتَ عنهن؟».

* «إنها قصَّةٌ معقَّدة».

- «لم تلتقِ بها مجدَّداً، أليس كذلك؟».

* «كلا يا حبيبتي الصغيرة، لم ألتقِ بها فيما بعدُ أبداً».

- «هل نذهب الآن؟».

دفعتُ ونهضنا مغادرين المكان. في الشارع قرَّبَت فمها مني وقالت: «هل تقوم بتقبيلي؟».

* «أتريدين أن أقوم بتقبيلك؟».

- «الجميع يريد ذلك دائماً».

* «و أنا أريد ذلك يا حبيبتي الصغيرة».

قمت بتقبيل فمها البارد والرطب وقلت لها: «فمك كَتُوت العُلَّيق».

- «أبي كان مجرمَ حرب».

* «إنك جِدِّيةٌ أكثر من اللازم يا حبيبتي الصغيرة».

- «لقد أعدمَ الإنكليزُ أبي».

* «إنك لذيذة، يا حبيبتي الصغيرة».

- «قلْ؛ أكان كذلك؟ أكان مجرمَ حرب؟».

* «لا أعرف. لا أعرف عن والدك أيَّ شيء».

- «لقد قتلَ عدداً من الطيَّارين الإنكليز الأسرى وقام بتعذيبهم. كان يطلق الكلاب عليهم. لكنكَ كنتَ هنا في تلك الليلة. قلْ لي، أكان كذلك؟ ربَّما كان مخطئاً، ولكن هل كان ذلك جُرماً حقَّاً؟ في حال... لنَقُلْ في حال سماعه بما حدث هنا...».

* «تأخَّرَ الوقت يا حبيبتي الصغيرة».

- «لا تغيِّر الموضوع. لا تتهرَّبْ. لقد خرجتَ من تلكَ الليلة على قيد الحياة. قلْ لي هل كان كذلك؟».

* «عذَّبَ أسرى، وأطلق عليهم الكلاب، وقتل بعضاً منهم. والدكِ كان مجرمَ حربٍ يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل تشرح لي ذلك؟».

* «لماذا عليَّ أنا أن أشرح لكِ ذلك؟ اسألي الألمان».

- «سألتُ الألمان. لكنَّ الألمان اليوم يعطون مئات الأجوبة عن كلِّ سؤالٍ مماثل. أمَّا أنت فقد خبِرتَ كلَّ ذلك عن قرب».

أردتُ أن أقولَ لها: إنكِ لذيذةٌ يا حبيبتي الصغيرة. صغيرةٌ بعض الشيء ولكنكِ ذات قوام جميل، لديك ساقان جميلتان، وقدمٌ صغيرةٌ، وخصرٌ نحيلٌ، وشعرٌ أحمرُ عَطِرٌ، وأنفٌ صغيرٌ، وعينان سوداوان عميقتان جدِّيَّتان، وعنقٌ نحيلٌ جميلٌ، ويدان منمَّقتان، والوقت ليلٌ، ونتمشَّى معاً، وقد مرَّ وقتٌ طويلٌ على تلك الأحداث ولم تكوني قد وُلدتِ بعد...

* «هل لديكِ حبيبٌ يا صغيرتي؟».

- «نعم في هامبورغ».

* «هامبورغ بعيدة».

- «نعم، أعلم. ربَّما نفترق بسبب ذلك».

* «كان يمكنك معرفة ذلك من قبل».

- «كنتُ أعرف. لكن لم أستطعْ أن أحول دون ذلك. ألا تفهمني؟ إنه أمرٌ شديد الأهمِّية لي وهو فوق أيِّ اعتبار. أريد معرفة من أنا وماذا أكون. حبيبي كان يتكلَّم طوال الوقت عن الأطفال، وأنا كنت أصابُ بالذعر جرَّاء ذلك. بماذا أخبرُ ابني لو سألني: أمِّي لماذا باقي الأولاد لديهم جَد؟ وكذلك الأمر فيما يتعلَّق بحياتي الخاصَّة، كنت أذهب للرقص مع حبيبي، وكان الرقصُ معه أمراً رائعاً، ولكن أحياناً خلال الرقص كانت تلك الأفكار تُطاردني: أنتِ ترقصين هنا وقد شنقوا والدك... كان ذلك يوقظني من النوم ولم أكنْ أستطيع طرده لا بالعمل

ولا بأيٍّ طريقةٍ أخرى. فهل في إمكاني أن أمارس الحب ًمع رجلٍ وأفكارٌ كهذه تراودني؟ ممارسة الحبِّ أمر جيِّدٌ ورائعٌ أحياناً، ولكن حتى وقتها لم يكنْ في وسعي النسيان. فأنا أخاف وخاصَّة لدى قيامي بذلك في النهار أخاف بعدها. قل لي هل في الإمكان العيش هكذا؟».

* «الكثير يعيشون مع مشاعرَ أسوأ من هذه حتى».

- «أنا لا أريد. لا أريد، أتفهم؟ أنا لا أريد. لهذا السبب ألمانيا بالنسبة إليَّ لا تُطاق. لا الأولى ولا الثانية. هنا على الأقل يسمُّون الأشياء بأسمائها الحقيقية. أمَّا هنالك خلف الحدود فلديهم لكلِّ شيءٍ مئة تفسيرٍ مختلفٍ وجميعها تدور في رأسيَ واحدةً تلو الأخرى. هيا قلْ لي... قلْ لي...».

* «لا يمكنني مساعدتكِ يا حبيبتي الصغيرة. إنها معركتكِ وعليكِ أن تخوضيها بمفردك. لن يساعدكِ أحدٌ ولا حتى أنا».

- «لكنكَ خبرتَ ما كان يحدثُ هنا وشاهدتَه عن قرب. هل كان الجميع هكذا؟ الجميع؟ ألم يكن هنالك من واجههم ووقف في وجه ما كان يحدث؟».

* «كان يوجد مثلهم أيضاً يا حبيبتي الصغيرة. كان يوجد مثلهم مع أنهم كانوا يعلمون ماذا ينتظرهم».

- «نعم، المهاجرون».

* «لم أقصد المهاجرين، فربَّما كان الأمر بالنسبة إليهم أسهل أو أصعب. لكن أيضاً في ألمانيا كان هنالك أناسٌ خرجوا من الاحتجاج إلى الموت».

- «أكنتَ تعرف أمثالهم؟ هل قابلتَ واحداً منهم على الأقل؟».

* «عرفتُ العديد منهم».

- «ألا تقرفُ مني؟».

يا إلهي! إنها تلحُّ كثيراً وتحاصرُ المرء بأسئلتها. لا أعرف!

- «تكلَّمْ! أجبْني! هل تقرف مني؟ هل كنت لتذهب إلى الفراش معي لو عرفت من أكون؟ هل في مقدورك ممارسة الحبِّ معي؟».

* «لا أعرف يا حبيبتي الصغيرة».

- «شكراً لك. كان ذلك في قمَّة الصراحة. لا فائدة من التظاهر والادِّعاء. لن يكون في مقدورك. لن تقدر على مداعبة جسدي، لأنك ستظلُّ تسمع في رأسك: إنها ابنة مجرم حرب... إنها ابنة مجرم حرب... لا يمكن نسيان ذلك، لا يمكن أن تسامح أليس كذلك؟ إنه أقوى من الحب، من أيِّ شيءٍ آخر؟».

وصلنا إلى خرابةٍ قاتمةٍ في وسط الهضبة، كان سوادُها ينعكس عن سواد السماء كلوحة رعبٍ لرسَّامٍ مجنون. ظهر القمر لبرهةٍ من بين الغيوم وسطع من بين نافذة السجن المحروقة. ارتعدَتْ أواصري من هول المشهد، وهي كذلك أيضاً، لدرجة أنها أخذتْ بالصراخ صراخاً هيستيرياً: «ماذا نكون؟ شعباً ملعوناً؟ شعباً سادياً؟ هل كانوا بشراً؟ أولئك الذين كانوا يضربون السجناء هنا، أولئك الذين يحكمون عليهم بالموت، أولئك الذين كانوا يحرسونهم، أولئك الذين كانوا يقطعون رؤوسهم؟ هل يمكن لشعبٍ واحدٍ أن يتشكَّل فقط من هؤلاء؟ من وحوش؟ أمن الممكن عدم التفكير في ذلك؟ أيمكنني ألا أكترث

لذلك؟ لقد شنقوا أبي. ربَّما كانوا على حقٍّ لكنه كان أبي. ما الذنب الذي اقترفته أنا؟ قلْ لي هل يمكن للعالم أن ينسى كلَّ ذلك يوماً ما؟ هل في مقدورك أنتَ نسيان ذلك؟».

* «أنا لا أستطيع يا حبيبتي الصغيرة، أنا وكلُّ من على شاكلتي. فأنا منحازٌ ولستُ حيادياً. عندما ألتقي بألماني، ألمانيٍّ في مثل عمري، أتخيَّله على الفور مرتدياً الخوذة. وأستكشف أيَّ بزَّةٍ تليق به أكثر، الرمادية الخاصَّة بالجيش، أم السوداء. ومن ثمَّ أقوم بالفرز: هل كان رقيباً أو عقيداً في الجيش؟ أم ملازماً أو رقيباً في الوحدة الوقائية؟ كنت أتصوَّره وهو يضرب بجزمته الحقول والطرقات، جسم وكلية أوروبَّا، وكيف يتقدَّم بخطى عسكريةٍ ويصيح في براغ المحتلة، وكيف يتقيَّأ في أقبية النبيذ في بورغندي، وكيف يقدِّر بنظرةٍ فاحصةٍ حجم مزرعته في الكوبان. أمَّا اليوم جميعهم يرتدون قمصاناً بيضاء كالثلج».

- «هل كان الأمر حقَّاً بهذا السوء؟».

* «كان أسوأ بكثيرٍ يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل عرفت أحداً ما، واحداً على الأقل، كان مختلفاً؟».

* «سألتِني من قبل عن ذلك. نعم عرفتُ العديد منهم».

- «ولكن ليس في الإمكان المسامحة، أليس كذلك؟ لا يمكنك؟ بالنسبة إليك نحن الألمان كلُّنا مثل بعضنا البعض، فصيلةٌ شيطانية؟ ما الذي كنت لتفعله لو أنك صادفتَ الآن هنا عدداً من أولئك الذين كانوا يضربونك؟ أيمكنك التلويح بيدك متجاهلاً لأن الأمر قد حدث منذ زمنٍ بعيد؟ ما الذي كنتَ تقوم به بعد سقوط ألمانيا؟ ألم تكن تنتقم كلَّما سنحت لك الفرصة؟».

* «لم أكن أنتقم يا حبيبتي الصغيرة. كنتُ أبحث عن مجرمي الحرب وأحاربهم ولكن ذلك لم يكن انتقاماً. وسرعان ما توقَّفتُ عن فعل ذلك. لم أكن مناسباً لعملٍ كهذا».

- «لماذا؟ هل كنت حسَّاساً؟ ليِّناً؟ لم تكن تريد صيد البشر؟».

* «كلا يا حبيبتي الصغيرة، لم يكن الأمر كذلك».

- «إذاً لماذا؟ كان قد قُضي على الألمان حينها، كانوا مختبئين في جحورهم وكان ذلك هو زمنكم؛ زمن المنتصرين. أمَّا الألمان فقد جُرِّدوا من حقوقهم، كان في إمكانكم أن تفعلوا بهم ما يحلو لكم، ألم يعجبك ذلك؟».

* «الألمان، يا حبيبتي الصغيرة، لم يذوقوا ولا حتى جزءاً بسيطاً ممَّا نشروه في هذا العالم».

- «حتى مع ما حلَّ بهذه المدينة؟ ومع محاكمات نورنبيرغ[1]؟ ومع كلِّ ما اقترفه الروس والإنكليز والأمريكان بحقِّهم خلال الحرب وبعدها؟».

* «حتى مع كلِّ ذلك يا حبيبتي الصغيرة. فلو أراد الروس معاملتكم بالمثل لما كنتم موجودين اليوم. مهما كان الذي حلَّ بالألمان لم يكن فيه ظلمٌ وجورٌ على الإطلاق».

- «لكنكَ قلتَ إنكَ لم تستطع، لم تكن تريد، لم تكن مناسباً لذلك. لماذا؟».

1- سلسلة من المحاكمات التي عقدت بين عامي 1945 - 1946 في قصر العدل في مدينة نورنبيرغ لمحاكمة مجرمي الحرب العالمية الثانية الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية في أوروبا. (م).

* «أنا فقط... لم أكن أريد لقاء شخصٍ واحد...».

كنتُ أحفر حفرةً يا حبيبتي الصغيرة، حفرةً عميقةً في تربةٍ طينيةٍ لدنة. لم أكنْ أعرف الغايةَ منها، ولكن كنتُ أحفر، كان يجب عليَّ أن أحفر. أصبحَتْ عميقةً بحيث لم يعدْ في وسعي الرؤية عبر حافَّتها على الرغم من وقوفي منتصباً. ذلك الطين البرتقالي اللدن كان يلتصق بالمعول ممَّا يضطرُّني إلى قشطه بحجرٍ حادٍّ بين الحين والآخر. شيئاً فشيئاً أخذ عمق الحفرة يزداد وبدأ الطين يتكدَّس على أطرافها، وأصبح رمي الطين خارجها يزداد صعوبةً، وأخذ يسقط مجدَّداً داخل الحفرة ساحباً معه كتلاً أخرى، ليقع على شعري وخلف قميصي. استمررتُ في الحفر أعمق فأعمق. أحياناً كنت أُمدِّد ظهري وأستنشق بعض الهواء بعمقٍ، أو أسند ذقني على المعول، فهذه كانت أفضل طريقة يرتاح بها الحفَّار.

كنتُ أقف مُحاولاً الحصولَ على قسطٍ من الراحة وقد سندتُ ذقني إلى معولٍ مغروسٍ في الأرض عمودياً. ربَّما كنتُ أفكِّر في شيءٍ ما أو لم أكنْ أفكِّر في شيءٍ على الإطلاق. انزلق قسمٌ من الأتربة في الأعلى وسقط عليَّ. كان أمراً كثير الحدوث لحفَّار في حفرةٍ عميقة. لعنتُ وشتمتُ ثمَّ نظرتُ إلى الأعلى.

رأيت بسطارين يا صبيَّة. كانا أسودين لامعين ومتباعدين. تجمَّدت. توقَّف قلبي لبرهةٍ ثمَّ عاود الخفقان بجنون. أمسكتُ المعول بسرعةٍ وانتابتني رغبةٌ عارمةٌ في الحفر، لم أكنْ أريد فعل شيءٍ آخرَ سوى الحفر والحفر والمزيد من الحفر، وفجأةً تحوَّل المعول إلى أهمِّ شيءٍ في العالم. في مكانٍ ما مرتفعٍ فوقي كان ينتفخ بزهوٍّ بسطاران

أسودان لامعان، بسطاران ضخمان، بسطاران كونيان، متباعدان في وقفة فرشخةٍ متعاليةٍ على الحياة والموت، على الكلِّ والعدم، على الخلود واللحظة.

يطلقُ اليهود على إلههم تسميةً غريبةً، والتي تعني تقريباً: ذلك الذي يُحرَّمُ عليك لفظ اسمه. وهكذا كان البسطار.

كان لهما ساقان ويدان. كان لهما جذعٌ ورأسٌ وعلى الرأس كانت هنالك قبَّعةٌ مع شعار جمجمة الموت. لقد كانا المحطَّة النهائية، المحكمة النهائية، الهلاك الأخير. لم يكنْ هنالك أيُّ إمكانيةٍ للاستئناف أمامهما.

صدح البسطاران بصوتٍ ربَّاني.

أمر البسطاران: «اخرجْ!».

أردتُ الخروج. أردتُ التسلُّق إلى خارج الحفرة التي حفرتُها. لكنَّ القدمين ترفضان الانصياع واليدين كذلك، فتمسَّكتُ بحافَّة الحفرة وحاولتُ دفع قدميَّ، لكني انزلقت إلى الأسفل وسقطتُ على ظهري وتمدَّدتُ على كامل مساحة الحفرة.

قهقه البسطاران قهقهةً ربانية. نبح البسطاران.

- «وغدٌ أحمق!».

الوغد الأحمق كانت عبارةً جميلةً هناك. تكاد تكون جميلةً ولطيفة. الوغد الأحمق كانت عبارةً أعادت القوَّة إلى قدميَّ ويديَّ. تسلَّقتُ إلى خارج الحفرة. كان اسم البسطارين ملازم الوحدة الوقائية هاينكس. وقفتُ أمامهما وفقاً للتعليمات وانتظرت. لم يكنْ لديَّ خيارٌ

آخر، لكني لم أكنْ خائفاً من حدوث الأسوأ لأنَّ البسطارين قالا: وغدٌ أحمق. هذا يعني أنهما كانا في مزاجٍ جيِّد. ربَّما نالا قسطاً وافراً من النوم الهانئ.

«إنك تثرثر كثيراً...». نبح البسطاران. حاولت أن أبدو في قمَّة البراءة قدر الإمكان، لم تتحرَّكْ سوى عقدة حنجرتي التي انكمشتْ ثمَّ قفزتْ من مكانها.

«إنك تثرثر كثيراً...». أعاد البسطاران كلامهما، «الثرثرة ليست صحِّية».

لم أعرفْ فيما كانا يفكِّران. وقفت هنالك محدِّقاً في لمعة البسطارين.

– «لم تعدْ تعرف شيئاً الآن، أليس كذلك؟ الكلُّ بريءٌ، لا أحدَ يعرف أيَّ شيء.... لكن أنا أعرف كم أنت فهيم! جميعكم فُهَماء، لكنك فهيمٌ كثير الثرثرة علاوةً على ذلك».

بدا الأمر لطيفاً. ولكن كان لي هنالك تجربةٌ مع اللطافة أيضاً. فالقطَّة تكون في مزاجٍ جيِّدٍ وهي تصطاد الفأر. كنت أقف منتصباً كالشمعة، لكن في داخلي كنت أتلوَّى كدودة الأرض في منقار طائر السمنة.

– «أصبحتَ أبكمَ الآن، أليس كذلك؟». نبح البسطاران. «الآن بتَّ أخرسَ لكنك كنتَ تتبجَّح بين تلك الحثالة، فأنت الأفهم في كلِّ شيء، أمَّا الآن فقد تجمَّد لسانك. أعِدْ كلامك، قلْ لي! قلْ لي ما الذي كنتَ تثرثر به في المهجع!».

هنالك جاسوسٌ في الغرفة، خطر لي. لكن هذا لا يهم، الآن لم تعدْ هنالك أهمِّيةٌ لأيِّ شيء، هذان البسطاران سيحطِّمانني، هنا في مكاني هذا سيدوسان على كليتيَّ ويكسران أضلاعي ويهشِّمان أسناني ويسحقان عضوي التناسلي.

- «ماذا تنتظر؟ هيا تكلَّمْ!».

لا أدري ما الذي حدث لي.

* «لقد خسرتم الحرب...». اندفعتْ مني الكلماتُ قبل أن أتمكَّن من خنقها في داخلي.

تجمَّد البسطاران في مكانهما. ثمَّ تحرَّك الأيمن حركةً بالكاد ترى. خُيِّلَ إلى البسطارين أنهما لم يسمعا جيِّداً. ابتسم البسطاران بسخرية.

- «قُلْها مرَّةً أخرى».

أعدتُ قولها. فهل كان لديَّ خيارٌ آخر؟ أيّاً كان الأمر سيقومان بدوسي، فلمَ لا أعيد قولها مرَّةً أخرى؟

* «هاجمتم روسيا سيادة الملازم؛ فخسرتم الحرب».

تهيَّأ البسطاران لركلةٍ أولى رهيبة، لم يكنْ من الممكن تجنُّبها. البسطار الأيمن ارتفع للخلف ليحصل على عزمٍ كافٍ، وبقي هكذا معلَّقاً في الهواء لفترةٍ، ومن ثمَّ عاد إلى جوار البسطار الأيسر. أخذ البسطاران بالضحك والقهقهة. كانا يضحكان بشدَّةٍ حتى سالت دموعهما.

- «إنك...»، قالاها وهما يتلعثمان بين ضحكةٍ وأخرى، «إنك أخرق! إنك مجنونٌ أحمق! ألم تسمع البارحة عند الاجتماع أنَّ الجيش

الأحمر لم يعدْ موجوداً؟ لقد حُطِّم وسُحق، لم يعدْ كياناً واحداً، لقد كُسرتْ قوَّته إلى الأبد، خلال شهرٍ سنستعرض قوَّاتنا في الساحة الحمراء».

لقد فاجأني البسطاران. من المؤكَّد أنهما سيدوسانني، ولكنهما إلى الآن في مزاجٍ لطيفٍ وكريمٍ وما زال من الممكن ولو لفترةٍ قصيرةٍ تأخير تلك الركلةِ الرهيبة التي لا مفرَّ منها.

* «ولكن ماذا لو لم يحدث ذلك يا سيادة الملازم؟ ماذا لو لم تتمكَّنوا من الاستيلاء على موسكو؟».

لا أعرف من أين استجمعتُ كلَّ تلك القوَّة للنظر إلى عينَي البسطارين. توقَّفا عن الضحك. ولكني استطعتُ تحمُّل نظراتهما الرهيبة، لم أتراجعْ. لاحظتُ كيف كانا مشغولين بشيءٍ ما، لم يكونا ليجرؤا على التفكير فيه حتى. فكرةٌ ما، فكرةٌ سخيفةٌ ومضحكةٌ ومستحيلة. لاحظتُ كيف كانا يغليان من شدَّة كبتهما للغضب. كبتاها وقالا: «استرخْ».

و عندها تجمَّدتُ في مكاني أكثر، فلقد قدَّم لي البسطاران سيجارة.

- «دخِّنْ واحدة»، قالاها بهدوء.

انقضضتُ على السيجارة بنهم، ربَّما تكون الأخيرة في حياتي.

لقد ذهب البسطاران في لطفهما بعيداً، فأمسكا لي بالولاعة تحت أنفي. استنشقتُ الدخان الأزرق ونفثتُ الدخان الرمادي. لقد انتبهتُ إلى ذلك؛ الدخان من السجائر يخرج أزرقَ، أمَّا من الفم فرمادياً. إنه يختلط في الرئتين على الأرجح بثاني أكسيد الكربون ويبدِّل من

مكوِّناته. كنتُ أدخِّن بشراسةٍ ونهمٍ بفمي وأنفي وحلقي ورئتيَّ، كنت أدخِّن بكلِّ جوارحي، بكلِّ مسامي وبكلِّ أظافري، كلُّ شعرةٍ مني كانت ترتعش من اللذَّة، كنت في غاية السعادة. راقبَ البسطاران تدخيني بلذَّةٍ بالغة.

«يجبُ أن تصوِّرَ إعلان سجائر...». قالا لي ذلك بطريقةٍ ودِّيةٍ تقريباً. ثمَّ أخرجا من جيبهما علبة سجائرَ سوداءَ خشنةً مغلَّفةً بغلافٍ أحمرَ وطُبعتْ عليها يدٌ سوداءُ كان اسمها "غوت هندليه".

- «ضعْها في جيبك»، أمرني البسطاران. «لكن لا تدعْ أحداً يمسكْ بك! لديك أعواد ثقابٍ، أليس كذلك؟ جميعكم لديكم أعواد ثقاب، يا أولاد الحرام يا أيُّها الحثالة القذرة! لا تظن بأننا أغبياء كما تعتقدون! نعرف كلَّ شيء ولا يفوتنا أيُّ شيء!».

لم أفهمْ شيئاً. هذا غير معقول! ولكني بقيتُ متأهِّباً على الدوام. لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا...

كان البسطاران يراقبانني بمرح.

- «إنكَ وقح! إنكَ وقحٌ لدرجة أنكَ تعجبني».

تظاهرتُ بعدم الاكتراث، لكن كان عليَّ أن أركِّز جهودي كلَّها لبقاء قدميَّ متماسكتين. كنتُ موضع تسليةٍ للبسطارين.

- «ما رأيك بعقد اتِّفاقٍ صغير؟».

ها هو، سيتَّضح الأمر أخيراً. تظاهرتُ بأني لم أفهمْ. ما الاتِّفاق الذي يمكن لي أنا أن أعقده معه؟ أنا ومعه؟!

- «اتفاق. من المؤكَّد أنك تعرف ماذا يعني اتفاق؟ فرينبهرنج؟

عقد؟»، قالها بحلاوة. «إنك تدَّعي بأننا لن نتمكَّن من الاستيلاء على موسكو».

* «أنا فقط تجرَّأتُ وأبديتُ تحفُّظي سيادة الملازم. لقد نطقتُها كاستفهام، مشروط».

- «عندما نطقتَها في المهجع أيُّها الحقير لم يكنْ فيها أيُّ استفهام. هنالك كنتَ تؤكِّد عليها تأكيداً قاطعاً، فلا تتملَّص الآن بغباء. إذاً، ماذا قرَّرت؟ أنعقد اتِّفاقاً أم لا؟».

* «لا أعرف ما الذي ترمي إليه يا سيادة الملازم».

- «أفكِّر في اتِّفاقٍ مَرِحٍ صغير. في اليوم الذي سيُقيم فيه جنودنا استعراضَهم العسكريَّ في الساحة الحمراء، سأرميك للخنازير في زريبة المعسكر».

* «شعرتُ يا حبيبتي الصغيرة كيف اختفت الدماء من وجهي...».

- «لا يُعقل أن يكون جادَّاً في ذلك!».

* «بلى، لقد كان جادَّاً جدَّاً. وبدأتُ بالتفكير إن لم يكن من الأفضل أن أدعهم يدوسونني في مكاني. فقد كان من الممكن أن يستولوا على موسكو، يا حبيبتي الصغيرة، فكلُّ شيءٍ كان يشير إلى ذلك. ولكن تمالكتُ نفسي. لن يكون هنالك ما هو أسوأ من ذلك، وهذا يمنح اليائسَ الثقة والشجاعة».

* «لا يمكن أن تسمِّي هذا اتِّفاقاً يا سيادة الملازم»، قلتُها بتحدٍّ مع أني كنتُ أشعر بدغدغةٍ مزعجةٍ في معدتي.

تفاجأ البسطاران من مدى جرأتي.

- «إنك وقح!».

* «ربَّما. ربَّما أنا وقح؛ ولكنه ليس اتِّفاقاً على الإطلاق. طبعاً في حال أراد المرء أن يفهم الأمر على الطريقة الألمانية...».

كان للبسطارين عينان يا صبيَّة، ورأيت فيهما بريقاً خطيراً.

- «ماذا تقصد؟».

* «يا سيادة الملازم، تريدُ أن تعقد اتِّفاقاً معي حول موتي في زريبة خنازير في حال استوليتم على موسكو، ولكن لم تذكرْ شيئاً عمَّا سيحدث في حال لم تستولوا على موسكو».

انطفأ البريق الخطير في العينين وحلَّت محلَّه السخرية.

- «إنك تعتمد كثيراً على ذكائك، أليس كذلك؟».

* «أردتُ فقط أن أنبِّهك إلى أنه ليس اتِّفاقاً، وإنما اشتراطٌ من طرفٍ واحد».

- «أنت تثرثرُ كيهودي».

* «إنك تقول: سأرميك للخنازير. عندما نستولي على موسكو سأرميك للخنازير ليلتهموك وأنت على قيد الحياة، جميع السجناء سيشهدون ذلك، الجميع سيسمع صراخك. وبعد أسبوع سنعدُّ لهم وليمةً رائعة. عليَّ قبول ذلك. ولكن ماذا لو لم تستولوا على موسكو؟».

أخذ يفكِّر. ربَّما أثار اهتمامه إن كان في إمكاننا قول ذلك من الناحية القانونية للخلاف.

* «ستقول لي: في هذه الحالة لن أرميكَ للخنازير. في هذه الحالة سأدوسك، سأطلق النار عليك. ولكن يمكنك القيام بذلك متى تريد.

ما الذي سيتغيَّر بالنسبة إليَّ جرَّاء ذلك؟ لا شيء. أو ملازمٌ آخرُ قد يخطر له أن يرميني لتلك الخنازير لسببٍ ما آخرَ أو من دون أيِّ سببٍ، فقط من باب اللعب والتسلية. أدرك بأنه لا يمكنني وضع أية شروط، لسنا شركاء فأنا كليّاً في قبضتك. ولكن لا تسمِّ شيئاً كهذا اتِّفاقاً أو عقداً أو فرينبهرنج».

كان البسطاران يفكِّران. يبدو أنها مشكلةٌ أكبر ممَّا توهَّم في البداية. فكَّر البسطاران: عندما نستولي على موسكو سيكون يوم السعد بالنسبة إليَّ. ومن شدَّة فرحي لانتصارنا في الحرب وفوزي بالرهان سأرمي تلك الحثالة للخنازير. شرطه غبيٌّ وقحٌ وغير منطقيٍّ، ولكن يوجد هنا ابن العاهرة هذا وهو ليس بهذا الغباء؛ فقد كشفني. ماذا لو لم نستولِ على موسكو؟ في حال لم نتمكَّنْ من الاستيلاء على موسكو ستكون هذه الحشرة المزعجة على حق. عدم الاستيلاء على موسكو... لا يمكن تخيُّل ذلك حتى، ولا يجب أبداً محاولة تخيُّل ذلك، سيكون أمراً رهيباً! سيؤدِّي ذلك إلى نهايةٍ مريعةٍ لا يمكن تخيُّلها. ألهذا عليَّ حماية هذه القملة الحقيرة؟

- «لا شيء!». صاح البسطاران. «هذه نهايتك ويمكنك أن تختار. إمَّا حالًا، أو بعد شهر. لو حدث ما تؤمن به، ومن السخرية التفكير في ذلك حتى، سيكون ما تريد وسيبقى لك أملٌ في أن تخرج من كلِّ ذلك وأنت على قيد الحياة. لكن لن يتغيَّر شيءٌ فيما يخصُّ وضعك. ليس لديك أيُّ حقٍّ في أن تضع لي شروطاً. لقد أذنبتَ، ثرثرتَ ونشرتَ الشائعات وحرَّضت. وأنا أقدِّم لك مخرجاً. إنه مخرج. وهو من جهتي عرضٌ في غاية الكرم. فبحسب التعليمات يجب عليَّ مساء اليوم

المناداة عليك عند الاجتماع واقتيادك إلى القائد. وتعرف تماماً ماذا يعني ذلك».

كان على حق. في الواقع كان محقّاً. فبحسب التعليمات يتوجَّب عليه أن يقتادني إلى القائد خلال الاجتماع، وذلك قد يكون حتى أسوأ من الموت في زريبة الخنازير. في الواقع هو يمنحني خياراً، إنه خيارٌ بائس. في وسعهم الاستيلاء على موسكو وربَّما يفعلون ذلك. إن لم يحدث ذلك سيكون قد خرق التعليمات. لكن لا يزال هنالك شيءٌ غير مفهوم.

* «ما الذي سيحدث لي إن لم تتمكَّنوا من الاستيلاء على موسكو؟».

- «سنستولي على موسكو. لقد باتت لنا. لكن ليكنْ كما تريد. ستبقى على قيد الحياة».

* «ألن ترميني للخنازير؟».

- «كلا».

* «ألن تقتادني في الاجتماع إلى القائد يوم تفشلون في الاستيلاء على موسكو؟».

- «لقد بدأ صبري ينفد. حسناً في اليوم الذي نفشل فيه بالاستيلاء على موسكو لن أقتادك إلى القائد عند الاجتماع. هل هذا كافٍ؟».

وهل كان لديَّ خيارٌ آخر؟ فقلت: «نعم يا سيادة الملازم».

كاد يصافحني من شدَّة سعادته، يبدو أنه كان يحبُّ المراهنات. فقد كان الأمر من طرفه رهاناً رائعاً. عبارة عن تسليته الخاصَّة. شيءٌ مغايرٌ

مختلفٌ عن تلك الاحتفالات المعتادة. غادر وهو راضٍ. ثمَّ نظر إلى الخلف مرَّةً أخرى وصرخ بسعادةٍ وكأنه يتحدَّث عن عفوٍ ما: «سينتهي بك الأمر في الزريبة. لكن حتى يحين ذلك اليوم لا تدعهم يمسكوا بك وأنت تدخِّن!».

نظرتُ إليه إلى أن اختفى خلف الجبل. قفزتُ إلى الحفرة. أخرجتُ من جيبي العلبة التي أعطاني إيَّاها. كانت كاملةً تقريباً. كنتُ ثريَّاً، كنتُ غنيَّاً، كنت أغنى شخصٍ في العالم! أخرجتُ واحدةً من سجائر "غوت هندليه"، وبواسطة دبُّوسٍ قمتُ بقَسم عود الثقاب إلى نصفين بدقَّةٍ حتى لا يُتلف رأسه، وبكلِّ حذرٍ أشعلته، ودخَّنتُ بكلِّ شراهةٍ ونهم. كانت السيجارة تتشبَّث كالمخالب في حلقي لدرجة أنها كادتْ تُسبِّب ألماً في القصبات. لقد عاودوا إنتاجها مجدَّداً عندكم، وأنا منذ ذلك الوقت دخَّنتُ ما هبَّ ودب. إنها أثقل سيجارةٍ عرفتُها قَط.

دخَّنتُ حتى لم أعدْ أشعر برأسي. لم أرغبْ في التفكير، لم أرد التفكير في أيِّ شيء، كنت أحاول طرد الشبح الذي لم أستطعْ بأيِّ شكلٍ من الأشكال تجنُّبه، لم أرد التفكير في الرعب الذي ينتظرني.

- «هل خفت؟».

* «جدَّاً».

- «لا بدَّ من أنه كان أمراً رهيباً».

* «نعم يا صبية».

- «ولكنهم لم يستولوا على موسكو».

* «صحيح، لم يستولوا على موسكو».

- «هل كان ليرميك للخنازير؟».

* «أتعرفين؟ ليس لديَّ جواب عن هذا. لا أعرف. حقَّاً لا أعرف إن كان ليرميني إليهم».

فيتبسك، سمولينسك، رجيف، كالوغا، فيازما، موجايسك، في الشمال حاصروا لينينغراد وفي الجنوب استولوا على أوديسا وكييف سقطتْ في وقتٍ سابق. كانوا يضغطون باتِّجاه القرم. ألن يوقفهم شيء؟ ألا توجد قوَّةٌ قادرةٌ على مقاومتهم؟ مكبِّرات الصوت كانت تصدح بجنونٍ بأخبار النصر. انتصارٌ تلو الآخر. لم يكنْ هنالك أيُّ شكٍّ حول صحَّتها. كنت أعيش في خوفٍ رهيبٍ وفقدانٍ تدريجيٍّ للأمل.

كان للبسطارين نوبة حراسةٍ بجانب وحدتنا كلَّ ثلاثة أيَّام. وكلَّ ثلاثة أيَّام كانا يأتيان للتمتُّع بمظهر الخوف الذي يعتريني.

«فيتبسك». قالا.

«سمولينسك». قالا.

«فيازما». قالا.

«موجايسك». قالا.

كنت أطأطئ رأسي أكثر فأكثر. كانت الأخبار تنتشر كالطاعون. كان الملازم يناقش أمامي بصوتٍ عالٍ وعريضٍ وبسعادةٍ وثقةٍ أخبار الجبهة. وكأنه يتبادل أطراف الحديث عند تناول الجعة في الحانة. لو أنَّ أحداً ما كان يراقبنا ويستمع إلينا لاستغرب بشدَّة. كان الملازم ودوداً ومرحاً، كان يحضر لي السجائر ودائماً ما كان ينبِّهني بأن ألا أدعهم

يمسكون بي وأنا أدخّن. بعد سقوط سمولينسك سألني بسخرية: ألا تريد إلغاء الرهان؟ يمكنك أن تعيد التفكير في الأمر إن أردت.

لم يكنْ لديَّ ما أعيد التفكير فيه. توقّفتُ عن الأكل. كنت أنتظر برعبٍ كلَّ مرّةٍ حلول اليوم الثالث عندما سيظهر فوق حفرتي ويخبرني باسم مجهولٍ جديدٍ لمدينةٍ مجهولةٍ جديدة. كانوا مندفعين باتّجاه موسكو، كان ذلك مؤكّداً. حاولتُ البقاء متماسكاً، ولكن كان في داخلي ذعرٌ وخوفٌ حيواني. لكنّي لم أسكتْ، قاومتُ أخباره المشؤومة، لكن عبثاً. فعلى سؤالي: كم يكلّف الألمانَ كلُّ هذا؟ أخبرني بكلِّ سعادةٍ عن خسائر الجيش الأحمر. لم تكنْ بالنسبة إليَّ أخباراً جديدةً، فقد كانت مكبِّرات الصوت في المعسكر تذيعها كلَّ مساء، ولكن كان لسماعها منه وقعٌ آخر.

«الروس، لقد انتهوا. إنها نهايتهم...». كان يصيح مبتهجاً. وكنتُ مرغماً على التراجع أمام الوقائع.

ثمَّ حلَّتْ تلك الأيّام الفظيعة.

- «فولوكولامسك...». قال لي. «فولوكولامسك هي من ضواحي موسكو».

* «الاستياء على موسكو لا يعني شيئاً بعد...». كنتُ أحاول الاعتراض بخجل.

- «بل يعني الكثير، الكثير جدّاً. ولك أيضاً...».

فقدتُ أعصابي. وقعتُ على الأرض المتجمِّدة وأخذتُ أغرس أصابعي في الندى المتجمِّد. بكيتُ بشدَّةٍ، لم أستطعْ منع نفسي، كان الأمر في غاية السوء.

* «لا أريد أن أموت هكذا... لا أريد...». صرخت، «لا أريد الموت هكذا... اقتلني الآن حالًا... خذْني إلى القائد... أنهِ الأمر الآن... لا تعذِّبْني أكثر، لم أعدْ أقوى على التحمُّل، لا أستطيع... كنْ إنساناً.. أطلق النار عليَّ...».

أحسستُ كيف كان يربِّت على كتفي.

«انهضْ». قالها باعتدال. لم أرغب في الوقوف، لم أكنْ أريد فعلَ أيِّ شيء. أحسستُ بألم شديدٍ في فخذي. ركلني. سمعت كيف كان يصرخ: «انهضْ يا خنزير!».

بالكاد استطعتُ أن أستجمع قواي وأرتفع عن الأرض. كان الموت بادياً في عينيه. ضربني بلكمة خطَّافٍ رهيبةٍ وسقطتُ على ظهري ويداي ممدودتان وبقيتُ مستلقياً.

- «انهضْ...». قالها بحزم.

استطعتُ النهوض بطريقةٍ ما. وشعرتُ بطعم الدم المالح في فمي. كان الملازم يتنفَّس بصعوبة.

«إنَّ الأمر معك ليس بالسهل...». قالها وهو يلهث. وقفت أمامه مهزوماً وميتاً من الخوف. رأيته كيف كان يقرِّر في داخله إن كان عليه أن يدوسني أم لا. نظرتُ من حولي إن كانت لديَّ فرصةٌ للهروب. لم تكنْ هنالك أية فرصة. كنت كطريدةٍ وقعتْ في الفخ. من دون أيِّ رغبةٍ في إنقاذ نفسي؛ كانت غريزة البقاء قد فشلتْ أيضاً.

ولكنه قال: «انسَ الأمر».

لم أستوعب الأمر فوراً، ماذا كان يقصد؟ لم أكنْ قادراً على

استيعاب فكرةٍ أو النطق بكلمةٍ أو الإتيان بحركة. لقد فقدتُ كلَّ شيء. فاضطُرَّ إلى مساعدتي.

- «انسَ أمر المراهنة...».

شيءٌ ما ارتعد في داخلي من قمَّة رأسي حتى أخمص قدميَّ. الأمل. أملٌ مجنونٌ غير معقولٍ متوحِّشٌ حيواني. من المؤكَّد أنه لم يكنْ جادّاً في ذلك، كان هذا يتردَّد في ذهني.

لقد كان ذلك أقوى مني. أقوى من كلِّ شيء.

«سيادة الملازم... من فضلك، سيادة الملازم...». بقيتُ أكرِّرها مراراً: «سيادة الملازم... سيادة الملازم».

بدا صوته وكأنه من مسافةٍ بعيدة.

- «كُفَّ عن الحماقة، قمْ ولا تتحامقْ...».

رفعني وهزَّني.

- «ماذا حدث لك؟».

* «الأعصاب...»، ثرثرت. «آسف... إنها الأعصاب...».

نظرتُ بخوفٍ إلى عينيه. لم أتحمَّلْ ذلك وأشحتُ بناظري.

- «فلندخِّنْ. ما رأيك؟». قالها بهدوء.

خفَّفت السيجارة من رعشتي. هدَّأتْني. ويبدو أنها أثَّرتْ فيه أيضاً فلم يعدْ يتنفَّس بكلِّ تلك الإثارة. كان يبتسم.

- «لقد كان الأمر وشيكاً أيُّها الوضيع القذر».

في تلك اللحظة أحببتُه يا صبيَّة، مثلما يحبُّ الحصان المروَّض

فارسه. لقد هزمني. داس على مقاومتي وإرادتي. ربَّما كنت لألعق يده لو مدَّها.

دخَّنا من دون أن نتفوَّه بكلمةٍ واحدة. ثمَّ رمى على الأرض علبة سجائر "غوت هندليه" التي بدأنا بتدخينها ورحل. ثمَّ التفتَ نحوي وصاح: «لا تدعْهم يمسكوك أيُّها الجبان القذر!». ومن جديدٍ اندفعت الدموع إلى عيوني...

مكبِّرات الصوت المبحوحة كانت تصدح مساءً بأخبار النصر، وبأنَّ المدفعية الألمانية صوَّبتْ مدافعها نحو موسكو نفسها...

- «أيْ أنه كان يملك نوعاً من الإنسانية في داخله...».

* «انتظري يا حبيبتي الصغيرة، لم يكنْ هذا كلَّ شيء...».

في اليوم التالي تهامس السجناء خبراً مفاده أنهم يتراجعون... لم يكن من الممكن التعامل مع أقاويلَ كهذه إلا بكثيرٍ من التحفُّظ. فكثيراً ما كانت الأمنياتُ هنا أُمَّ الأفكار. فقد كان الألمان مراراً وتكراراً يُهزمون خلال شهرين ويستسلمون. فمن دون تلك الأوهام كان من المستحيل تحمُّل العيش هنالك. لقد سبق وتهامسوا الكثير عن الهزائم والانسحابات الألمانية المزيَّفة المماثلة التي منعت المرء من تصديق ذلك. كنتُ خائفاً من حلول المساء. خائفاً من مكبِّرات الصوت. بالنسبة إلينا هنالك، لم تكنْ موسكو تمثِّل المدينة الكبيرة البعيدة، فبالنسبة إلينا جميع المفاهيم كانت تُختصَرُ في شيئين أساسيين - الحياة والموت. موسكو كانت تمثِّل مفهوماً كهذا. كان في وسعي معارضة الملازم، والقول إنَّ موسكو ليستْ كلَّ شيء، ولكن لم يكنْ مسموحاً بأيِّ حالٍ

من الأحوال أن أُطمئن نفسي بذلك. نعم، لقد كانت الأوهام والأساطير ضروريةً لبقاء المرء، لكن كان لذلك حدوده أيضاً. نوعان من البشر لم يكن في إمكانهما تحمُّلُ المكان هنالك يا حبيبتي الصغيرة، شديدو التشاؤم وشديدو السذاجة.

لكن في ذلك المساء قبل الاجتماع لم تصدحْ مكبِّرات الصوت، بل صمتتْ. وعناصر الوحدة الوقائية كانوا كالدبابير، متوتِّرين وهائجين. لا بدَّمن أن ذلك كان يعني حصول شيءٍ ما... وقد حصل فعلاً. سكتتْ إذاعة المخيَّم لفترةٍ طويلة، إلى أن بدأ الهجوم الصيفي. موسكو كانت الحياة، لا الموت...

أتى... أتى كالمعتاد. قال لي: يتراجعون... كان صوته مهموماً بلا ثقة. كيف أمكن لهذا أن يحدث؟ كيف يمكن التراجع أمام جيشٍ مدحورٍ مسحوقٍ لم يعدْ له وجود؟

قلتُ لنفسي سأكون حذراً، لن أسمح بأن يتمَّ جرِّي إلى أيِّ جدالٍ كان. قبل ثلاثة أيَّامٍ كان لا يزال منتصراً. أمَّا الآن فقد بات مغتاظاً.

«كان الروس يخدعوننا طوال الوقت...». قالها راثياً لحاله. أمَّا أنا فكان الفرح يعتريني في داخلي. إن بلغ الأمر هذا الحد، بأن يُبدي عنصرٌ من الوحدة الوقائية تعليقاتٍ كهذه، هذا يعني أنها لم تكن مجرَّد هزيمةٍ محلِّية، بل حدثَ ما هو أعظم من ذلك بكثير. هؤلاء الملعونون، تجرَّأوا على خداع الألمان والزعيم، لم يقبلوا بأن يُرمى بهم للخنازير. كنتُ أتمنَّى أن أصرخ بأعلى صوتي بالألمانية: الحرب الخاطفة انتهت يا سيادة الملازم... ولكن تمالكتُ نفسي. لكنه أبى أن يدعني وشأني.

«لِمَ سكتَّ يا ابن الحرام؟ إنك سعيدٌ، أليس كذلك؟». صرخ في وجهي. وتذكَّرتُ حينها ذلك الذلَّ الرهيب الذي كنتُ فيه قبل ثلاثة أيَّام، الإهانة التي لم يكنْ في إمكاني التكفير عنها والتي ستبقى تقضُّ مضجعي طوال حياتي.

* «نعم، أنا سعيد سيادة الملازم. وأنت لو كنت في مكاني ستكون سعيداً أيضاً. خسرتم الحرب».

- «سنباغتهم في الربيع، إنه الصقيع الروسي...». قالها بامتعاضٍ بدلاً من الصفعة التي كنتُ أنتظرها.

* «الصقيع سيِّئٌ بالنسبة إلى الروس أيضاً».

- «إنهم معتادون عليه!».

* «كان على زعيمكم أن يأخُذ ذلك في الحسبان...».

نظر إليَّ نظرةً غريبةً لم أشهدْها من قبل. بدا لي أنه خائف.

- «لا أعرف لماذا لم أقتلْك منذ زمن».

بصق ثمَّ غادر مبتعداً، ولكنه عاد مجدَّداً.

«خُذْ...». ورمى لي علبة السجائر "غوت هندليه" المستعملة. وكأنه أراد أن يودِّعني. وكأنه أراد أن يوحي إليَّ: لقد أصبحنا متعادلين يا ابن الحرام. ولكن احذرْ مني جيِّداً!

بعد ثلاثة أيَّامٍ انتظرتُ قدومه ولكن بلا طائل. لم يأتِ. أشفقتُ عليه يا حبيبتي الصغيرة، ولم يكن ذلك بسبب السجائر التي كان يحضرها لي. غريب، كنت أفتقده. كنت متشوِّقاً لقدومه لكنه لم يحضرْ. لن يقوم بإخراجي من رتابة حياة المخيِّم بعد الآن.

لم يأتِ مرَّةً أخرى، ولا التي تلتْها. لكن في الكوخ الذي كنتُ أضعُ فيه المعول والمجرفة، كانت هنالك عارضةٌ خشبيةٌ أحتفظ فوقها باحتياطٍ استراتيجي. لكن في أحد الأيَّام لم أعثرْ على شيءٍ هناك. لم يكن لدي سوى سيجارةٍ واحدةٍ في جيبي. فقرَّرتُ أن أتلذَّذ بتدخينها بشكلٍ مريحٍ بعد استراحة الغذاء.

كنتُ أقفُ في الحفرة وقد سندتُ ذقني إلى المعول ورحتُ أدخِّن. لكنَّ السجين المعيَّن رئيساً للعمَّال أمسك بي، فقفز قلبي من مكانه حتى بلغ حلقي عندما رأيته.

«أتدخِّن؟». سألني بصوتٍ ودود. «ألن تشاركَ صديقك؟».

اطمئنَّ قلبي. أعطيتهُ السيجارة التي كنت قد بدأتُ بتدخينها. فأخذها. اعتقدتُ بأنه سيعيدها لي لآخذ نفساً. ولكنه قال: «هاتِ أخرى...».

* «لم يعدْ لديَّ».

- «كُفَّ عن الثرثرة، وراجعْ نفسك».

* «لا سجائر لديَّ»، أكَّدتُ له. «حقّاً لم يعدْ لديَّ».

- «حسناً، إن لم تكنْ تملك أخرى...». وذهب.

كان السجناء يعلمون بوجود سجائر لديَّ، ومن أين أحصل عليها. لم يكن في الإمكان إخفاءُ ذلك. لا يمكنني القول إنني قاسمتهم كلَّ ما كان منها في حوزتي، لكني لم أدخِّنْها كلَّها لوحدي، فقد كان لديَّ بعض الأصدقاء الذين كنت أحتفي معهم أحياناً. كان العديد من السجناء ينظرون إليَّ وبعضهم كان يتجنَّبني. فعلاقتي مع عنصرٍ في الوحدة

الوقائية لم يكن في الإمكان إبقاؤها طيَّ الكتمان. لم يكن في وسعهم فهمُ ذلك، وأنا لم أكن أستطيع ولم أعرفْ كيف أشرح لهم ذلك.

طوال فترة تردُّدِ الملازم عليَّ في الحفرة، كان رئيس العمَّال يتجنَّب الظهور أمام حُفري. قدومه الآن لم يكن مجرَّد مصادفة.

استمررتُ كالمجنون بحفر الحفرة حتى حلول المساء. لم أكن أريد التفكير فيما سيحدث مساءً. في طريقي إلى المعسكر كنت أهدِّئ من روعي. لن يفعلها. لن يُبلِّغَ عني. فهو سجينٌ أيضاً مثلنا جميعاً. لكنها كانت محاولةً ضعيفة. فذلك الهولنديُّ كانتْ له أفعال حقيرةٌ مماثلةٌ من قبل.

كان الملازم هو المسؤول عن الاجتماع ذلك المساء. ملازمي أنا. مَنحني ذلكَ بعض الأمل إلى أن أذاع رقمي. أذاع رقمي وصرخ. إلى القيادة!

كانت قدماي ترتعشان وأنا أتوجَّه متثاقلاً نحوهم. ما الذي سيفعلونه بي؟ وما الذي يمكنني فعله، ماذا أقول؟ هل عليَّ الإنكار؟ ألم يرسلْ إليَّ بنفسه رئيسَ العمَّال؟

وقفتُ أمام القائد ممسكاً قبَّعتي بيدي. كان هاينكس متواجداً في المكان. كان يقف جانباً ولم ينظرْ إليَّ. حتى القائد لم يكنْ ينظر إليَّ. كان يكتب شيئاً ما، فانتظرتُ توقُّفه حتى أتمكَّن من تقديم نفسي. كان القائد يتصرَّف وكأنه لا يراني واستمرَّ في الكتابة. هذا كان أسلوبهم، يا حبيبتي الصغيرة، نوعٌ من التلاعب النفسي مع السجين. ليتعذَّب بشكوكه ويتخيَّل كلَّ ما سينتظره.

بعد مرور فترةٍ طويلة، طويلةٍ جدّاً، سألني القائد بصوتٍ مملٍّ ممدودٍ من دون أن يرفع رأسه من الدفتر حتى: «ماذا؟».

* «كنت أدخِّن...».

إلى الآن لم يكنْ ينظر إليَّ.

– «من أين حصلتَ على السيجارة؟».

* «عثرتُ على عقب».

– «عثرتَ، أليس كذلك؟ إنه لأمرٌ غريب. دائماً ما يعثر أحدهم على عقب. ولكنك تعرف أنَّ التدخين ممنوع؟».

* «سيادة المقدَّم...».

– «أتعرف ذلك أم لا؟».

* «أعرف».

– «إذاً تعرف».

لم ينظرْ إليَّ أبداً. فقط أشار بالقلم جانباً حيث كان يقف الملازم.

– «تدبَّرْ أمرَه».

تلقَّيتُ ضربةً اسودَّت من بعدها الدنيا أمام عينيَّ. كنتُ أقفُ باستعداد، ثم لم أعدْ أقف بتاتاً لا باستعدادٍ ولا بأيِّ شكلٍ آخر. كانت فقط اللكمات السريعة التي انهالتْ عليَّ هي التي تُبقيني في وضعيةٍ عمودية. وبإدراكٍ مشوَّشٍ شعرتُ كيف يتأرجح رأسي يمنةً ويسرةً، وكأنه في عُلبةٍ حديدية، ثم ضربةٌ رهيبةٌ أخرى ألقتْ بي إلى زاوية الغرفة. بعدها شعرتُ بألمٍ حادٍّ في خاصرتي. وقبل أن أفقد وعيي كان آخر ما لمحتُه أنَّ القائدَ لا يزال يكتب في ذلك الدفتر الكبير، ومن

ثمَّ لم يعدْ هنالك أيُّ شيء، لا شيء على الإطلاق، إلى أن أفقتُ وقد وَجدتُ نفسي في جدولٍ متجمِّدٍ كان يمرُّ من على طرف المعسكر، كانت عيناي ملتصقتين وحاجبي يتدلَّى فوق عيني اليمنى، وفي آذاني كان يصدح شلَّال مؤلمٌ، وكان يُخيَّل إليَّ بأنه في مكانٍ بعيدٍ جدّاً كان هنالك من يقول: خذوه إلى الغرفة، ابن الحرام هذا...

كانوا يُجيدون الضرب بحقٍّ يا حبيبتي الصغيرة، بشكلٍ علميٍّ وبدقَّةٍ ألمانية.

كان عليهم أن يرفعوني إلى سريري، فلم أكنْ أقوى على التسلُّق إلى هناك. وفي الصباح توجَّب عليَّ الانضمام إلى الآخرين في حَفرِ الحُفَر كالعادة... مُتورِّم، ومَركولٌ ومَضروبٌ، كان يُخيَّل إليَّ بعد الخطوات الأولى بأنني قد تفكفكت، وبأنَّ جزيئات جسمي لم تعدْ متماسكة.

- «هل هو من فعلها؟».

* «نعم، فعل ذلك يا حبيبتي الصغيرة».

- «كان عليه أن يفعلها، أليس كذلك؟ لقد تلقَّى أمراً».

* «نعم. كان عليه فعلها».

- «ألم تكنْ لتفعلها لو كنتَ في مكانه؟».

* «لم أكنْ في مكانه».

- «ولكن... لنفترضْ، لو أنهم في مكانٍ آخرَ أمروكَ بذلك...».

* «لا أدري يا صبيَّة. لا يمكن للمرء أن يجزم أبداً في الأمور التي كان ليفعلها أو يمتنع عن فعلها لو أنه في مكان شخصٍ آخر».

- «ربَّما... ربَّما شخصٌ آخرُ كان ليؤذيكَ أكثر. كان في مقدوره أن يقتلك أليس كذلك؟».

* «طبعاً، كان يستطيع ذلك».

- «ولكنه لم يقتلْك، إنك حيٌّ تُرزق».

* «نعم، أنا على قيد الحياة».

- «ربَّما... ربَّما لم يُردْ قتلك».

* «كان ليقتلني لو أراد ذلك».

- «لكنك كنتَ تلومه على هذا، أليس كذلك؟ هل تلومه إلى الآن على ذلك؟».

* «لا أدري يا حبيبتي الصغيرة».

- «ألم يأتِ إليك أبداً فيما بعد؟».

* «بلى، أتى فوراً، حالما أصبحتْ خدمته بالقرب منا».

أتى والغضب يعتريه. «أيُّها الأحمق، أيُّها المغفل، يا ابن الحرام، يا ابن جماع الكلبة والجرذ، ألم أقلْ لك ذلك؟ ألم أحذِّرْكَ دائماً من أن يضبطوك وأنت تدخِّن؟».

* «نعم، لقد حذَّرتَني سيادة الملازم».

- «لقد تسبَّبتَ بذلكَ لنفسك».

* «نعم، تسبَّبتُ بذلك لنفسي يا سيادة الملازم».

- «إنك حيوانٌ معتوهٌ أبله!».

* «نعم، أنا حيوانٌ معتوهٌ أبلهُ يا سيادة الملازم».

- «كان عليَّ أن أقتلك».

* «نعم، كان عليك أن تقتلني يا سيادة الملازم».

غادر والغضب يتملَّكه، لكنه عاد. عرفتُ بأنه سيعود وقد عاد فعلاً.

- «كان عليَّ القيام بذلك»، قالها بصوتٍ منخفض.

* «أعرف».

- «خذْ، أشعلْ سيجارة».

* «لا أريد».

- «لا تتحامقْ مجدَّداً».

* «التدخين ممنوعٌ نهائياً، وهنالك عقوباتٌ صارمةٌ لذلك، خاصَّة عند تكرار المخالفة».

- «يمكن للسجين أن يدخِّن عندما يعرضُ الحارس عليه ذلك».

* «يمكن أم يجب؟».

- «يمكن».

* «إذاً لا أريد».

- «هل عليَّ أن أقحمها في فمك؟».

كان عليَّ أن آخذها.

- «لم يتمكَّن الروس من استرجاع سمولينسك».

* «أعرف ذلك يا سيادة الملازم».

- «في الربيع سنصنع منهم كفتة».

* «بفتيك بالجبنة، يا سيادة الملازم».

- «سنستولي على موسكو أيضاً».

* «بكلِّ تأكيد يا سيادة الملازم».

- «بعد الاستيلاء على موسكو سيتوقَّف الروس عن المقاومة».

* «هذا متوقَّع».

- «لم يوقفْنا الروس، بل الشتاء».

* «إنه الشتاء الروسيُّ يا سيادة الملازم».

- «لقد اقترف براوخيتش[1] أخطاءً استراتيجيةً فادحة».

* «سيصحِّحها الزعيم يا سيادة الملازم».

- «موسكو ستصبح لنا...».

* «وماذا إن لم يحدثْ ذلك يا سيادة الملازم؟».

نظر إليَّ نظرةً ملؤها القلق والريبة، ليمتنع منذ تلك اللحظة عن قول أيِّ شيء. ذهبَ وأدركتُ بأنه لن يعود أبداً. تنفَّستُ الصعداء، ففي واقع الحال لم يكن شعوراً جيِّداً امتلاكُ علاقةٍ كهذه مع عنصرٍ في الوحدة الوقائية. ولكنه لم ينسَني... ففي يوم الأحد التالي عُلِّقَ رئيس العمَّال الهولنديُّ من أصابعه لمدَّة ساعة. لقد أمسكَ به الملازم هاينكس وهو يدخِّن. لا أحد يعلم إن أمسكَ به حقّاً. ربَّما قدَّم له سيجارةً بنفسه.

كنت ألتقي الملازمَ خلال الاجتماعات بين الحين والآخر، فأنزعُ قبَّعتي كلَّ مرَّةٍ وفقاً للتعليمات، لكنه كان يتظاهر بعدم رؤيتي.

1- Walter von Brauchitsch (1881-1948): مشير ألماني وقائد الجيش في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية. (م).

- «ألم يأتِ مرة أخرى؟».

* «لم يأتِ أبداً».

مرَّتْ عدَّة أسابيع. وفي إحدى المرَّات اصطففنا جميعنا للاجتماع الصباحي. كان ذلك دائماً أمراً استثنائياً، وكُلُّ ما كان هناك استثنائياً، كان سيئّاً أيضاً يا حبيبتي الصغيرة. الاجتماعات الصباحية لم تكن مألوفة، فغالباً ما كانوا يكتفون بعدِّنا ثمَّ نتفرَّق للعمل.

بدأوا بالمناداة على الأرقام. لدى سماعنا الرقم الأوَّل أُصبنا جميعنا بخوفٍ هستيري. كنا نعلم ماذا يعني ذلك. الانتقال إلى مكانٍ آخر، إلى معسكرٍ آخر. كان ذلك دوماً أمراً كئيباً وحزيناً ومريباً. كلُّ سجينٍ كان لديه خوفٌ من المجهول. المعسكر كان شيئاً سيِّئاً، لكنه كان يعني الأمان.

نادوا على مئة رقم، ومن بينهم رقمي. أمرونا أن نجمع أغراضنا ونسلِّمها ثمَّ أعادوا إلينا رزماً تحتوي على ملابسنا. وبالقرب من بوَّابة المعسكر كانت تنتظرنا شاحنتان مغلقتان.

أشرف على عملية الصعود إلى الشاحنتين الملازم هاينكس.

لم ينظرْ إليَّ أبداً ولكن عندما بدأنا بالتحرُّك، صرخ:

«ولا تدعوني أرى وجوهكم الغبيَّة هنا مجدَّداً، يا أولاد الحرام!».
إلى اليوم لا يزال لديَّ شعورٌ بأنه كان يصرخ عليَّ.

- «ماذا كانوا يفعلون؟».

* «وقتها يا صبيَّة كانوا أحياناً ينقلون السجناء إلى معسكرات العمل القسري. السجناء الألمان».

- «لكنك لم تكنْ سجيناً ألمانياً».

* «كلّا».

لا أدري كم مرَّةً مشينا حول تلك الخرابة القاتمة. توقَّفت حبيبتي الصغيرة فجأة. اعتقدتُ بأنها أرادت قولَ شيءٍ ما، لكنها صمتتْ. صمتتْ لفترةٍ طويلة. ومن ثمَّ سألتْ:

- «لماذا رويتَ لي هذا؟».

* «لا يوجد سبب. أنتِ أردتِ مني أن أتحدَّث وأخبركِ».

- «ولكن هذا لم يكنْ عن هذه المدينة».

* «صحيح».

- «أعرف لمَ رويتَ لي هذا».

* «بعد الحرب يا حبيبتي الصغيرة، عملتُ لفترةٍ كمُتقصٍّ في لجنة ملاحقة مجرمي الحرب. كنتُ أمشِّطُ المعسكرات التي تحتوي على أسرى من الوحدة الوقائية. بحثتُ في السجلَّات وزرتُ أماكنَ مشبوهةً ومخابئَ محتملةً وعدَّة عناوينَ موثَّقة. لدى تجوُّلي في المدن الألمانية وتحديقي في وجوه الناس، وعند تصفُّحي قوائم الأسماء الطويلة، أو لدى مرور مجموعةٍ من الأسرى الألمان، كان ينتابني شعورٌ غريب. لم أكن أفهم ما يدور في نفسي. كنت أخافُ أن ألتقيه. أو يقع اسمه مصادفةً بين يدي».

- «ماذا كنت ستفعل؟».

* «لا أعرف. اليوم لم يعد الأمر بهذه الأهمِّية بالنسبة إليَّ، ولكن وقتها كان التفكير في ذلك يعذِّبني كثيراً».

- «لماذا؟».

* «لماذا... لماذا... كان من الوحدة الوقائية. حارساً في المعسكر. قاتلاً متعدِّد الجرائم. لم أخبركِ بكلِّ شيء عن ذلك الجحيم يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل كنتَ لتعتقله؟».

* «لا أعرف يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل كنتَ لتتركه؟».

* «لا أعرف، لا أعرف ما الذي كنتُ سأفعله. إنه سؤالٌ بلا جدوى. ولكن لم يكن في مقدوري الاستمرار في ذلك العمل، فتركتُه».

- «هل خفتَ من أن تتصرَّف تصرُّفاً سيِّئاً؟».

* «ربَّما يا حبيبتي الصغيرة».

- «وما الذي كنتَ لتعِدَّهُ تصرفاً سيِّئاً بالنسبة إليك؟ اعتقاله أم إخلاء سبيله؟».

* «لا أعرف».

- «لكنه ساعدكَ في الواقع».

* «نعم، لقد ساعدني».

- «في الواقع، يمكن القول إنه أنقذ حياتك».

* «هذا ممكن، بل شبه مؤكَّد».

- «ماذا كنت لتفعل لو قابلته الآن؟ بالمصادفة في هذه اللحظة؟ في هذا المكان؟».

* «أعتقد بأني لن أعرفه الآن».

- «لكن ربَّما كان هو ليتعرَّف إليك. ربَّما كان ليقدِّمَ نفسه إليك».

* «من المستبعد حدوث ذلك».

- «ولكن لو تمكَّنت من التعرُّف إليه؟ إنه أمرٌ ممكن».

* «لم أكن لأتعرَّف إليه، يا حبيبتي الصغيرة».

- «ألا تفهمني؟ ماذا لو حدث ذلك؟».

* «أنت لا تفهمينني. لقد أخبرتكِ بأني لن أتعرَّفَ إليه».

تابعت المشي وكأنها غير موجودة. أو كأنني أنا لم أكنْ موجوداً. لقد كنتُ معها لكنها كانت لوحدها.

نزلنا إلى الكورنيش.

- «عُد الآن، فأنا أسكنُ في منطقةٍ بعيدة. سيُمسي طريق العودة طويلاً جدّاً عليك».

* «لا أرغب في النوم يا حبيبتي الصغيرة...».

اتَّكأنا بمرفقينا على الدرابزين، وأصغينا إلى خرير النهر غير المرئي.

- «العام الماضي... العام الماضي قمتُ بفعلِ شيءٍ غريب...». بدأتْ بالحديث. «بحثتُ عن أسماء وعناوين بعض الطيَّارين الإنكليز من الذين أُسروا على يد الألمان».

* «في ذلك السجن الذي كان والدكِ آمره؟».

- «نعم في ذلك السجن، وراسلتهم. وصفتُ لهم كلَّ شيء. أردتُ أن أعرفَ كيف كان الأمر...».

* «كان في إمكانك طلب إذنٍ بالاطِّلاع على محاضر المحكمة».

- «لقد قمتُ بذلك، لكن المحاضر لم تخبرْني بما كنتُ أريد معرفته».

* «والطيَّارون؟ هل ردُّوا عليك؟».

- «كلا، لا أحد منهم. كنتُ تعيسةً جرَّاء ذلك. كنتُ آمل أن يكتب واحدٌ منهم على الأقل شيئاً سارَّاً. لم أنتظر الكثير، ربَّما أردتُ فقط أن أسمع ما يشبه كلامك. بأن والدي قدَّم سيجارةً لواحدٍ منهم على الأقل ولو لمرَّةٍ واحدةٍ خلال لحظة شهامةٍ مفاجئة. لم أحصل على جواب، فكان ذلك جواباً بحدِّ ذاته. فأنا لستُ إلا جَرَباً لا يستحقُّ أن يجري التعامل معه. لكنكَ كسرتَ الآن هذا اليقين».

* «لم أفهم».

- «بل تفهمُ جيِّداً. لقد قلتَ: لم أكن لأتعرَّف عليه. لأن معرفته كانت لتكون بالنسبة إليك أكثر مشقَّةً وتعقيداً. لقد مضى على الأمر زمنٌ طويل. وربَّما بالنسبة إلى الطيَّارين أيضاً قد مضى على الأمر زمنٌ طويل. لو كنتُ أعرف... لو كنتُ أعرف بأنَّ والدي قد أعطى ولو لواحدٍ منهم سيجارةً واحدةً فقط... لكني لن أعرف ذلك أبداً. لم تصلني عنه سوى الأخبار السيِّئة. كل ما عثرتُ عليه عنه كان سيِّئاً».

* «ووالدتك؟».

- «والدتي... هناك، في الجمهورية الاتِّحادية، حيث كلُّ شخصٍ يتحدَّث عن الأمر بطريقةٍ مختلفة. خلال اجتماعٍ ما للوحدة الوقائية أطلقوا على والدي صفة الضحيَّة، صفة الشهيد. وكانت والدتي تلعبُ

تلكَ المسرحية المقرفة معهم، كانت أمّي، مذ كنتُ صغيرة، تضع صورة أبي في إطارٍ أسودَ وتعلّقها فوق السرير وتزيّنها على الدوام بغصنٍ من الغار النَّضِر. وعندما لم يعد في الإمكان إخفاءُ الأمر أمامي، لم أكن أسمع منها سوى كلامٍ عن تضحيةٍ كبيرة. كانت أمّي على علاقةٍ مع أحد التجّار، ولكنها كانت تُخفي الأمر. أحببته نوعاً ما ولكن أمّي لم تكن تريد الظهور معه على الملأ، ناهيك عن رفضها لسماع أيٍّ شيءٍ يخصُّ الزواج. رفضتْه بذريعة أنها لا تريد تدنيس ذكرى المتوفَّى. أما في المنزل فقد كانت تبكي وتتأسَّف لحالها وتتحدَّث باستمرارٍ عن التضحية التي عليها القيام بها.

إلى اليوم تشعر بأنها أرملة الوطن. لقد كانت ميسورة الحال وأنا أعرف مصدر ذلك. كانت تتَّشح السواد دوماً، وتعرض حزنها للعالم كي يعجب به.

عندما كنت أسألها وأنا صغيرة عن والدي، كانت تتنهَّد وتبكي وتذكره كإنسانٍ رائع، رجلٍ صالح. وفيما بعد كانت تريد إخباري بأن المنتصرَ يحاكمُ الخاسر. هذه واحدةٌ من العبارات التي تلقى رواجاً هناك. فكرهتُها، ولذلك أيضاً غادرت...».

حبيبتي الصغيرة هذه عمرها تسعة عشر عاماً لكنها تعرفُ كلَّ شيء.

- «من ناحيةٍ أخرى، بدأ والدي يصبح هكذا بعد الغارة الجوية الكبرى على هامبورغ، لقد تأكَّدتُ من ذلك. فالقنابل قتلتْ والديه واثنين من إخوته الذين كانوا يسكنون معاً. يمكننا إدانته ولكن يمكن أيضاً فهمه».

* «هنالك اتِّفاقياتٌ ساريةٌ يا حبيبتي الصغيرة بخصوص معاملة أسرى الحرب».

- «اتِّفاقيات. ما هي الاتِّفاقيات؟ تحت أيِّ اتِّفاقيةٍ يمكن إدراج ما حدث في هيروشيما؟ وإن كان الجميع يتحدَّث عن هيروشيما، فماذا عن ناكازاكي المسكوت عنها بلباقة؟».

* «أتعتقدين أنتِ أيضاً بأن المنتصرَ قد حاكمَ الخاسر؟».

- «لقد كُتبَ الكثير عن غارة هيروشيما. أما غارة ناكازاكي فهنالك صمتٌ مطبقٌ حولها، لا أحد يهتمُّ بهم. لو أنَّ اليابانيين استطاعوا بمعجزةٍ ما أن يربحوا الحرب، كانوا ليحاكموهم كمجرمي حرب. إن كانت هيروشيما ضروريةً، إن كان من الضروريِّ وقوعُها، إن فعلاً سرَّعتْ في نهاية الحرب والموت الرهيب لمئات الألوف من البشر وأنقذت حياة مئات الألوف من الآخرين، فإن ما حدث في ناكازاكي كان غير ضروريٍّ بشكلٍ لا يغتفر. كانت جريمةً ضدَّ الإنسانية، لم يُحاسَبْ عليها أحد. كانت جريمة قتلٍ جماعية، جريمة قتلٍ عظمى».

كلُّ شيء واضحٌ في رأسها. عمرها تسعة عشر عاماً ويُفترض أن تفكر في أمورٍ مختلفةٍ كُلِّياً، يفترض أن تفكِّر في كيف تريد أن يكون حبيبها الذي تنوي الزواج منه. في الملابس التي ستشتريها. في نزهة يوم الأحد القادم. في الإجازة على شاطئ البحر، واليخت الذي سيأخذها عليه أحدهم في رحلةٍ حول العالم. في مسابقة ملكة الجمال التي ستفوز بها. في ليلةٍ مثيرةٍ مع إلفيس بريسلي، أو غيره من النجوم الذين تُعجبُ بهم الفتيات في هذه الأيَّام. في صديقةٍ غبيَّة، فتخطف

لها حبيبها. في شاعرٍ يقرأ لها أبيات شعر. في روليت مونتي كارلو. في كيفية تركيع هوليوود. في فليني[1] الذي سيكتشفها. وفي أمورٍ أخرى... أيَّة أمور، فأنا لا أدري بماذا أيضاً تحلم فتيات هذه الأيَّام!

ولكن حبيبها في مكانٍ أبعد من البعيد. ربَّما قالت له: سأرحل، عليَّ أن أغادر، عليَّ جعل الأمور واضحةً في داخلي، عليَّ معرفة من أنا وماذا أكون، لا أريد أن أتزوَّج، لا أريد، لا يمكن أن يكون لي أولادٌ قبل أن أعرف حقيقة نفسي، والدي كان مجرم حرب، ولكن أنا في الحقيقة لا أعرف إن كان أو لم يكن مجرم حرب، شنقه الإنكليز... فأنا ابنة مشنوق، ابنة شهيد...

بدلًا من روايات الفتيات، كانت تتصفَّح وثائقَ من زمن الحرب، مذكَّرات، محاضر جلسات المحاكم، حلقات بحثٍ عن الوراثة البيولوجية، ودليلًا في التحليل النفسي. ولن ينفعها أيُّ شيءٍ من هذا، لن تستطيع التخلُّص من الموانع التي تكبِّلها طوال حياتها، لن تعثر على إجابة.

تقبل دعوةً على العشاء من رجلٍ أجنبيٍّ يكبرها سنّاً. تخرج معه من المطعم، وتقول: أشعر بالبرد، تقترب منه وتقول له قبِّلْني، فقط كي تصدمه، ومن ثمَّ بأسلوب المنتصر وبرعبٍ وصراخٍ هيستيريٍّ تقول له: أتعرفُ من قبَّلتَ؟ والدي كان مجرم حرب، شنقوه لذلك، وأنا ابنته، لقد قبَّلتَ فتاةً غير طاهرة، مُدنَّسَةً ملعونةً إلى الأبد...

1- Federico Fellini (1920-1993): مخرج وكاتب سيناريو إيطالي مشهور. تعرف على الممثلة جوليتا ماسينا وتزوجها في العام 1943، وهي التي ظهرت لاحقاً في عدد من أفلامه، ووصفها بأنها المرأة الأكثر إلهاماً لأعماله. (م).

غزلٌ غريب. من يدري إن كان ممكناً في أيِّ بلدٍ آخر! حلَّ الليل ولم يكن أنيساً، وقفنا على ضفَّة نهرٍ يأتي منه البرد، واتَّكأنا على درابزين. اقتربتْ مني لأنها تشعر بالبرد، فاحتضنتُها من حول خصرها. ربَّما ستكون نهاية هذه الليلة في فراشها، ولكن هل ترغب في ذلك حقّاً؟ وهل أرغبُ أنا في ذلك؟

- «هذه مدينةٌ مذبوحة»، تابعتْ متحدِّثة، «حتى الصحف الأمريكية والإنكليزية كتبوا اليوم بأنها كانت مَهمَّةً لا جدوى منها. وبأنه لم يكن توجد هنا أية أهدافٍ عسكريَّةٍ مُهمَّة. في ذلك الوقت لم يعدْ يوجد في ألمانيا، بعد أن سوُّوها بالأرض، أية أهدافٍ عسكريَّةٍ مُهمَّةٍ ما عدا برلين ربَّما. وقبل بضعة أسابيعَ من نهاية الحرب أغاروا عليها ودمَّروها. ولكن في حال لم يكن لها أية أهمِّيةٍ عسكريَّة، ماذا سنسمِّي حينها نهاية عشرات الآلاف من البشر الذين لقوا مصرعهم؟ ستقول: كانوا ألماناً، فهم يستحقُّون ذلك».

* «الألمان يا حبيبتي الصغيرة، قتلوا عشرات الملايين من البشر الأبرياء في أوروبَّا. كيف تتوقَّعين بأنه لن يدفعَ ثمنَ ذلك إلا الألمانُ المذنبون؟».

- «جميع الألمان مذنبون، أعرف عن ذلك الكثير لكي لا أخدع نفسي بأمورٍ أخرى. ولكن أوروبَّا التي تتحدَّث عنها حاربت الألمان باسم الإنسانية. أيُمكن القتال من أجل الإنسانية بلا إنسانية؟ أيمكن إزالة الجريمة بجريمة؟ لا بدَّ من وجود من أعطى الأوامر بتدمير هذه المدينة! وهنالك من نفَّذها. الألمان الذين كانوا ينفِّذون الأوامر، قمتم بملاحقتهم بعد الحرب وشنقتموهم، بينما أولئك الذين نفَّذوا هذا

الأمر كنتم تحتفون بهم كأبطالٍ منتصرين وتكلِّلونهم بالغار وتمنحونهم أعلى الأوسمة وترقُّونهم، فقد كان عملُهم قمَّةَ البطولة والشجاعة والشرف العسكري. كان أبي يقتل ولا يمكن مغفرة ذلك. قتل عدداً من الأسرى بعد الغارة الفظيعة على هامبورغ. ولكن كم قتلوا هم أولئك الذين قتلهم هو؟ قلْ لي، قلْ لي بنفسك؛ ألم يحاكم المنتصرون هنا الخاسرين؟».

* «لم يكن الألمان يقبلون الاعتراف بهزيمتهم، رفضوا مناشدات الاستسلام كافَّةً، وكلُّ يومٍ استمرَّت فيه الحرب كان يكلِّف حياة الكثير من الناس الذين أجبرهم الألمان على الحرب، ومن أولئك الذين أرادوا رميهم في قُمَر الغاز وحرقهم في الأفران وفرمهم لرميهم للكلاب الألمانية، وإبادتهم كعرقٍ غير صافٍ، كأجناسٍ أدنى، كحشرات؛ كبقٍّ وقمل. كانوا يُسمِّمون أوروبَّا. بأيِّ حقٍّ تتجرَّئين على مقارنة ما لا يمكن مقارنته؟ أنا والملايين مثلي خسرنا حياتنا أو أفضل سنيّ عمرنا. كانت ستَّ سنوات. ستَّ سنوات من أجمل سنيِّ الرجل. كلُّ ذلك فقط لأنَّ عبقريَّ شرٍّ مجنوناً استطاع أن يَسلِب عقل شعبٍ عظيمٍ وقويٍّ بأكمله، وإقناعه بأنَّ المشيئة الإلهية قد اختارتْه ليحكم العالم، لأنه الأفضل، لأنه أعلى عرقياً، لأنه أقوى عسكرياً. طبعاً من الصعب التحدُّث عن هذه الأمور في هذه المدينة. حدث هنا أمرٌ فظيع، ولكنه حدث باسم قهر ذلك الوحش المجنون الهائج المتهالك، والذي كان لا يزال يتخبَّط خلال احتضاره الأخير، مادّاً مخالبه السامَّة على أوروبَّا. ربَّما كان على هذه المدينة أن تموت ليكون من الممكن إنقاذ حياة مئات الآلاف من البشر الآخرين، ولا أتردَّد في قول إنها أغلى من حياة الألمان وقتها».

- «ولكن ماذا أنقذوا؟ لم ينقذوا شيئاً. فذلك الوحش الموجود فينا نحن الألمان استمرَّ في القتال حتى النهاية. انسَ ما حدث وافترضْ جدلاً بأن هتلر ربح الحرب؛ ألم يكن ليطلب من الإنكليز المنهزمين أن يسلِّموه جميع الطيَّارين الذين قصفوا المدن الألمانية؟ ألم يكن ليحاكمهم ويعدمهم كمجرمي حرب؟ وكنتُ لأكون الآن امرأةً مرغوبةً، ابنة البطل الذي كان ينفِّذ حكم العدالة على المجرمين».

* «الإنكليز يا حبيبتي الصغيرة لم يطالبوا بتسليم الطيَّارين الألمان الذين دمَّروا كوفنتري، والذين كانوا يحلِّقون فوق مدنهم ينشرون الموت والخراب، لم يعذِّب الإنكليز ولا الروس الأسرى من الطيَّارين الألمان، ولم يرموهم للكلاب المتوحِّشة ولم يُردوهم برصاصةٍ في الرأس. وماذا يفعل طيَّارو هتلر أولئك اليوم؟ أولئك الذين دمَّروا كوفنتري وروتردام وأجزاءَ كبيرةً من لندن ووارسو ومدناً عدَّةً أخرى؟ إنهم اليوم آباء ناجحون يتنعَّمون في الرخاء الألماني ويلتقون أحياناً في واحدةٍ من أمسياتِ التعارف العديدة التي تُقام، ويتذكَّرون الماضي ويحنُّون إليه، ويتحدَّثون عن الأيَّام الجميلة وقتها... تقولين،إنكِ تعرفين الكثير... تقريباً كلَّ شيءٍ عمَّا حدث، ولكن للعثور على إجابةٍ عن سؤالكِ لم تختاري المكان المناسب. ربَّما مدنٌ مثل كوفنتري أو روتردام أو ليديتسيه أو مايدانيك أو وارسو كانت لتُقدِّم لك الإجابة. في وارسو يا حبيبتي الصغيرة توجد أيضاً هضبةٌ حزينةٌ وخاويةٌ سُوِّيتْ بالأرض كتلك الموجودة هنا في هذه المدينة. وهنالك أيضاً يرتفع في الوسط مبنى شاهق. لم يكن بقايا سجن، وإنما كنيسة. ذلك الحيُّ لم يدمِّره الطيَّارون الألمان. وإنما القوَّات البرِّية سوَّتْه بالأرض. ولم يكن

ذلك في خضمِّ العمليات القتالية، بل كان تدميراً مخططَّاً وممنهجاً، مبنىً تلو آخر، وشارعاً تلو آخر، وحياً تلو آخر، كانوا يفجِّرونها باستخدام الديناميت، مع الناس الذين كانوا يختبؤون في تلك الجدران... إن كنتِ تعرفين كلَّ شيءٍ عن الأمر كما تدَّعين، وإن كنتِ فكَّرتِ في الأمر من كلِّ تلك النواحي، فعليك لمرَّةٍ أن تفكِّري من هذه الناحية أيضاً».

- «في الواقع لم أفكِّر في الأمر من هذه الناحية...».

* «أترين إذاً...».

- «ولكن عندها... كيف سأعيش؟».

* «فقط بهذه الطريقة يا حبيبتي الصغيرة. إنها فُرصتكِ الوحيدة. لن تتقدَّمي أبداً، وكلُّ جهودك ومعاناتك ستذهب هباءً منثوراً، ما لم تكوني واضحةً وصريحةً في تعاطيكِ مع الأمر».

شعرتُ برعشتها. ربَّما من البرد وربَّما لا.

* «تأخَّر الوقت يا حبيبتي الصغيرة. سأرافقكِ في عودتكِ، وغداً إن أردتِ يمكننا المتابعة».

مشينا على كورنيشٍ خالٍ تماماً. المصابيح الغازية تُضيء ممرَّاً ضيِّقاً على الإسفلت، والرياح تتقاذف أوراق الخريف من فوقه. إلى اليسار هنالك نهر يعجعج وإلى اليمين ظلام حالك. فقط ذلك الممرُّ المضاء أخذ يمتدُّ أمامنا كبساطٍ حزينٍ يقودنا إلى مملكة الظلام. حبيبتي الصغيرة تبدو حزينة، فشيءٌ جديدٌ وبائسٌ يثقلها. أخذت تنظر إلى الأرض وهي تمشي مزيلةً في أثناء ذلك بقدمها أية أوراق في طريقها. عند أحد المصابيح أفلتتْ من يدي التي كانت تحيط بها، وتوقَّفتْ، ثمَّ

أدارتْني نحوها. عيناها كانتا تفيضان بالقلق والعجز، أرادت أن تقول شيئاً ما لكنها غيَّرتْ رأيها.

داعبتُ شَعرها. ارتعشتْ لكنها لم تبتعد.

- «لقد تخيَّلتَ هذا المساء على نحو آخر، أليس كذلك؟».

* «لا أبداً يا حبيبتي الصغيرة».

- «لكنكَ لم تدعُني إلى العشاء لكي تصابَ بالضجرِ من عُقدي».

جذبتها إليَّ ولمستُ بلطفٍ أنفها الصغير بإصبعي. ضحكَتْ.

* «أتريدين أن أقبِّلكِ؟».

- «أريد».

أردتُ تقبيلها، لكن عندها وقعت عيناي على البرج الصغير للمنزل الداكن الذي يغطِّيه الظلام. بالأحرى أحسستُ به أكثر من رؤيتي له، ولكن فجأةً بتُّ متيقِّناً، عرفتُ أين أنا. أبعدتُ الصبيَّة عني وركَّزتُ ناظري على الشارع الذي كان يفضي إلى الكورنيش.

- «ماذا هناك؟».

* «لا شيء». أجبتُها.

- «هل حدث شيءٌ ما؟».

* «كلَّا. لم يحدث شيء، يا حبيبتي الصغيرة».

- «أصبحتَ غريباً فجأة...».

* «لا شيء يا حبيبتي الصغيرة. لا تهتمِّي بالأمر. اليوم قبل العشاء كنتُ هنا أبحثُ عن شارع. لكنني لم أستطع العثور عليه».

- «أي شارع؟».

* «هذا».

- «عمَّ كنت تبحث هناك؟».

* «أنا نفسي لا أعرف. عن منزلٍ محدَّد. عليكِ الذهاب للنوم الآن يا حبيبتي الصغيرة».

- «لا أريد النوم... وأنا أيضاً سعيدةٌ بصحبتك. لا تجعلني أرحل. إني أفضِّلُ المشي معكَ هكذا حتى الصباح. أم أنه من تلك المنازل التي أظنُّها... لذا تريد أن تكون لوحدكَ؟».

* «لا، ليس من هذه المنازل».

دخلنا إلى الشارع الذي أخذ يلتفُّ يميناً ويساراً. يا لغبائي! كان عليَّ أن أبدأ بالبحث عنه بعد الظهر من جهة الكورنيش، ما كنت لأخطئه أبداً. استمرَّ الشارع في الانحناء بدرجةٍ شديدةٍ وفي المنتصف هنالك مصباحٌ قذرٌ واحدٌ وحيدٌ يضيء فوق عمودٍ خشبي.

عثرتُ عليه. لقد عثرتُ على ذلك المنزل...

- 5 -

في هذا الظلام الحالك لم أميِّزْ سوى الشكل العام للفيلا. هنالك سياجٌ مغطًّى بشجيرات، ربَّما الليلك أو شيءٍ آخر، وشجرةٌ طويلةٌ في الحديقة. من إحدى النوافذ ينفذ عبر الستائر إلى الحديقة خطَّان رفيعان من الضوء. هنالك أحدٌ ما في الأعلى. لا أستطيع رؤية أيِّ شيءٍ تقريباً، ولكنه ذلك المنزل بكلِّ تأكيد.

تحسَّستُ المقبض على البوَّابة الحديدية. عرفتُه... فحتى اللمس لديه ذاكرة. ضغطتُ عليه لكنَّ البوَّابة كانت مقفلة.

ماذا أريد الآن؟ لمَ يهمُّني كثيراً العثور على هذا المنزل؟ أقف هنا الآن وأتعجَّب من نفسي. كان يثيرني المنزل أكثر، عندما كنت في السنوات الماضية أستعيد هيئته في ذاكرتي، زينته الخارجية، ودرجه ومدخله. ولكن ذاك من الذاكرة كان غير حقيقي، إن تبقَّى منه شيءٌ حيٌّ، فبالتأكيد في داخلي فقط. على الأغلب يسكن هنا أناسٌ غرباءُ لا يعنونني، ولا أعرف شيئاً عنهم ولا يعلمون بوجودي. حسناً، إنني الآن هنا. عثرت عليه. وماذا الآن؟ هل سأكتفي برؤيته؟ لكني غير قادرٍ على

رؤية شيء أصلاً، ولا أعلم إن كنتُ أريد رؤيته وما الذي أردت العثور عليه هنا. انتهى الأمر، يمكننا المغادرة.

* «تعالي يا حبيبتي الصغيرة...».

- «كانت تسكنُ هنا، أليسَ كذلك؟».

* «نعم، هنا».

- «ربَّما ما كان عليَّ الذهابُ معكَ».

* «لماذا؟».

- «ربَّما أردت أن تكون لوحدكَ الآن».

سخرتُ منها. لم أكن في حاجةٍ إلى شيء.

- «إذاً لماذا كنتَ تحاولُ جاهداً العثور على هذا المنزل؟».

* «لكي أجده فقط، لا أكثر ولا أقل. والآن عثرتُ عليه، وبذلك حُلَّ الأمر».

- «أنا أعرف. كنتَ تعتقدُ... تعتقدُ... ربَّما طوال هذه الليلة... بأنكَ ستتوقَّف أمام هذه البوابة وسيُفتحُ الباب وشخصٌ ما سيخرجُ منه وستكون هي... أليس كذلك؟».

* «كم أنتِ طفلةٌ رومانسيةٌ يا حبيبتي الصغيرة!».

- «لكنكَ فكَّرتَ في ذلك، لا تكذِبْ، تعرفُ بأنه لا يمكنُ لذلك أن يحدث، لكنكَ فكَّرتَ في ذلك، كنتَ تتوقَّعُ شيئاً ما».

* «إنها ميتةٌ يا حبيبتي الصغيرة، وقد مرَّ على الأمر وقتٌ طويلٌ جدَّاً...».

- «كيفَ تعرفُ بأنها ميتة؟ هل رأيتَ جثّتها؟ هل رأيتها ميتة؟ ربَّما لم تمتْ أبداً».

* «هذا غير ممكنٍ يا حبيبتي الصغيرة. لقد انطلق دويُّ صفَّارات الإنذار بعد وقتٍ قصيرٍ من اقتيادي من قبل الغيستابو».

- «ولكنكَ قلتَ لي بنفسك إن أموراً لا تُصدَّق كانت تحدث في الحرب. ماذا لو أنها خرجَتْ خلفكَ مباشرة؟ قلْ لي.. قلْ... ألم يخطر في بالكَ طوال الوقت بأنه كان يمكن لذلكَ أن يحدث؟ وبأنه من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث فعلاً؟».

* «وقتها بلى... وقتها خلال فترةٍ قصيرةٍ تلتْ تلك الليلة، كنتُ أفكِّر في شيء مماثل. كنتُ آمل أن تكون قد خرجتْ بسرعة، أنها غادرتْ. ولكنَّ المعجزات لا تحدث يا حبيبتي الصغيرة...».

- «لماذا وقتها؟ لماذا لا تكون الآن؟ هل حاولتَ التحقُّق من ذلك؟ قلتَ لي إنك لأوَّل مرَّةٍ هنا في هذه المدينة منذ تلك الليلة. فهل اهتممتَ بأمرها؟ هل راسلتها؟ لم يكن في استطاعتها البحث عنك، لم تكن تعرف أين أنت، ومن المؤكَّد أنه لم يكن لديها عنوانك، وطبعاً لم تكن تعرف من أنت عندما كنت تتظاهر بأنك فرنسي. هي رأت فقط كيف اقتادك عنصر الغيستابو. ولكن أنت لم تفعل شيئاً، أليس كذلك؟ بالنسبة إليك كان من الأفضل أن تفكِّر فيها على أنها ميتة وتتعذَّب لذلك، ربَّما كان هذا أسهل من محاولة العثور عليها، على تلكَ الألمانية التي أحببتَها، ولكنها في النهاية تبقى ألمانيةً مع كلِّ تلك التعقيدات التي يمكن أن تُسبِّبها وقتها...».

* «تتفوَّهين بالحماقات يا حبيبتي الصغيرة».

- «ولن يناسبكَ الآن أن تكون على قيد الحياة. لن يناسبكَ أن تجدها على قيد الحياة، لأنك ستفقدُ ذكرياتك. ربَّما أصبح شعرها أشيبَ ووجهها مليئاً بالتجاعيد، ربَّما أصبحت بدينة، ربَّما عرجاء، ربَّما لم تلقَ مصرعها ولكن فقدت ساقها أو يدها، ولكنك تريدها أن تكون مختلفة، ميتة، ولكن المهم مختلفة، تماماً مثلما كانت فيما مضى. أنتَ أيضاً شابَ شَعرُك، ولكن هي لا يمكن أن تكون كذلك، مُحرَّمٌ عليها، لن تستطيع أن تغفر لها هذا، أليس كذلك؟».

إن حبيبتي الصغيرة هذه حيوانٌ مفترسٌ صغير. مثل حيوان الدلق. هل الأمر كذلك؟ ليس تماماً، ولكنَّ هنالك شيئاً من الصواب في حديثها. لن أحاول خداع نفسي، إن الأمر كان كذلك أيضاً. كانت هنالك أسباب أخرى، لكنه كان كذلك أيضاً... إنه أمرٌ لا يُصدَّق، أن هذا المفترس الصغير لم يتجاوز التسعة عشر عاماً.

- «ولكن ربَّما لم يشبْ شعرها. وربَّما لا تزال جميلة، محافظةً على قوامها، يمكن لهذا أن يحدث. وأنت مجرَّد رجلٍ جبان، أتيتَ إلى هنا لأنكَ تخيَّلتَ مئات المرَّات كيف أنكَ تقفُ هنا بجانبِ البوَّابة ومن ثمَّ تخرجُ هي، وها أنت هنا الآن وتخاف ممَّا ستقوله لها وممَّا ستقوله لك، هذا إن كان لا يزال هنالك ما يمكن قوله بعد كلِّ هذه السنين».

* «إنكِ وحشٌ خَطِرٌ صغيرٌ هزيلٌ يا حبيبتي الصغيرة...».

- «ربَّما...». لكنها لم تسمح لأيٍّ شيء بأن يجذبها بعيداً عن تلك التخيُّلات التي راحت تنسجها، «ربما كانت تفكِّر فيك بطريقة تفكيركَ فيها نفسها. ربَّما انتظرتْك هنا وربما لا تزال تنتظركَ إلى اليوم، أنت

عِشتَ سنواتك العشرين كما أردت، لكن هي لا، هي كانت ولا تزال تنتظركَ... أليس كذلك؟».

أليست هذه أفكاري الخاصَّة؟ أليست هذه تداعياتي وتصوُّراتي؟ إن لم يكونوا كذلك فهم قريبون جدَّاً منها. ولكن من أين أتتْ حبيبتي الصغيرة بكل هذا؟ ألديها كلُّ هذه الخبرة، والحكمة؟

* «كُفِّي عن هذا يا حبيبتي الصغيرة».

- «طبعاً. كُفِّي عن هذا! إنه مريحٌ وملائمٌ لكَ. في الواقع لم يكن يهمُّكَ طوال الوقت إن هي تمكَّنت من النجاة أم لا. لقد تأقلمتَ واعتدتَ على الألم والحزن المصاحبِ لفكرة أنها ميتة. إنها ميتةٌ وانتهى الأمر، ومن وقتٍ إلى آخرَ كنتَ تحصلُ على كآبةٍ لطيفة، لقد ضحَّيتُ بشيء ما، لقد سلبتني الحياة شيئاً... هنالك ضوءٌ مُنارٌ في المنزل...».

* «كفاكِ جنوناً يا حبيبتي الصغيرة...».

- «إنكَ ترى بنفسك، أن هنالك ضوءاً في المنزل. هنالك أحدٌ ما في الأعلى. يكفي أن تضغط على الجرس لتحصل على اليقين. لكنك لا تريد اليقين، فاليقين مهما كان يبقى أفقر من الأحلام والتصوُّرات. لماذا أنت متردِّد؟ لمَ لا تضغط على الجرس؟ إنك جبان. إنك جبانٌ مثل كلِّ الرجال!».

* «هذه ترَّهات يا صبيَّة. إنك مجنونة!».

- «إنك جبان، إنك جبان، إنك كذلك! إنك تخافُ مواجهةَ الحقيقة. ياه... كم هو رائع إعطاء النصائح، وكم هي رائعةٌ الكلمات

عندما لا يكون هنالك شيءٌ على المحك! أليس كذلك؟ يا حبيبتي الصغيرة عليك أن تتعاملي مع الوقائع كما هي، عليك أن تعرفي كيف تواجهين الحقيقة مهما كانتْ... أليست هذه كلماتك؟ ماذا الآن، هل ستضغط على الجرس؟».

* «الوقت متأخِّر يا حبيبتي الصغيرة. وكلُّ هذا مجرَّد ترَّهات».

قبل أن أتمكَّن من منعها، كانت قد تحسَّست الجرس على الجدار.

جذبتها بشدَّةٍ من يدها، لكن بعد فوات الأوان؛ فلقد سمعتُ رنَّة جرسٍ خفيفةً تصدر من مكان ما.

* «هل جننتِ؟ لماذا تتدخَّلين في أمورٍ ليست من شأنك؟».

- «حسناً حسناً، سأغادر الآن...».

* «وأنا أيضاً».

- «نعم اذهبْ، اهربْ كصفيق يقرع في الليالي أبواب الناس المطمئنِّين...».

ابتعدت الصبية جانباً مطقطقةً بقدميها، ولم يعد في استطاعتي المغادرة، مع أنني رغبت في ذلك جدّاً، رغبت فعلاً في الهروب كما يفعل صبيٌّ مشاكسٌ عندما يقرع أبواب أناسٍ غرباء. أُشعل الضوء عند مدخل المنزل. سمعت صوت خربشة المفتاح في القفل. فُتحَ الباب. وخرجت امرأةٌ طاعنةٌ في السنِّ وبدينةٌ ترتدي برنساً.

- «من هناك؟ ماذا تريد؟». زعقتْ بصوتٍ مزعج.

* «مساء الخير يا سيِّدتي»، حيَّيتُها باحترام. «آسف لإزعاجك، لكني أبحث عن شخص ما... ربما يمكنكِ أن ترشديني...».

- «الوقت متأخِّر...». زعقتْ، لكنها اتَّجهت نحو البوَّابة.

* «الآنسة ديكير. هل من الممكن أن تخبريني... ألا تعرفين إذا...».

اللعنة، هذا سخيف. ماذا سأسأل هذه المرأة الغريبة؟ كيف سأفسِّرُ لها بأنه هذا مجرَّد تصرُّفٍ أرعنَ من قِبَل حبيبتي الصغيرة؟ لم تجاوب السيِّدة العجوز حتى وصلت إلى البوَّابة.

- «الآنسة ديكير؟ أسألتَ عنها؟».

* «نعم، الآنسة لويزا ديكير...».

توقَّفت العجوز في منتصف الطريق. لم أكن أرى وجهها بشكل جيِّد. ولكن لم يعجبني صوتها.

- «هل أنت من أقربائها؟».

* «كلا. مجرَّد... كان تسكنُ هنا فيما مضى».

- «آه.. إذاً مجرَّد رفيق... رفيق جيِّد...».

هل يتهيَّأ لي، أم أن صوت العجوز قد اختلف فعلاً؟ أصبح متجاوباً أكثر، مع لمسةٍ من المفاجأة اللطيفة التي تلي الصدمة، عندما يكتشف المرء بأن مخاوفه من أمر ما لم تكن في محلها.

* «رفيق، رفيق جيِّد. ألا تعرفين... ماذا حدث لها؟».

- «الآنسة ديكير لم تعد على قيد الحياة منذ زمنٍ بعيد...».

طبعاً. بكلِّ تأكيد. لم تعد على قيد الحياة. فقد عرفتُ بطبيعة الحال أنها ليست على قيد الحياة، أنها لقتْ مصرعها. كانت العجوز قد باتتْ ملاصقة للبوَّابة.

* «بالطبع... لو سمحتِ... كان علّي توقُّع ذلك. لقد لقتْ مصرعها خلال الغارات، أليس كذلك؟».

تغيَّر صوتها مجدَّداً.

- «أنت لستَ ألمانياً؟».

* «كلا، أنا أجنبي».

- «اسمع... الآنسة ديكير لم تلقَ حتفها في الغارات». هذه المرَّة كان صوت العجوز قد بدا كصفيرٍ حاد. «الآنسة ديكير... قطعوا رأسها...».

بدا لي وكأني سمعتُ في مكانٍ ما إلى جانبي صوت صرخةٍ مكتومة! شيءٌ ما قد انغرس عميقاً في داخلي، سكِّين ربَّما، أو مشعل لحام. فسادت الغشاوة عينيَّ، كان عليَّ أن أتمسَّك بالجدار. سمعتُ صوت إغلاق الباب. وصوتاً بعيداً بعيداً جدَّاً يتوسَّل... لم أرد ذلك، حقّاً لم أرد ذلك، صدِّقْني، لم أرد ذلك. لم أرد...

«ارحلي...». قلت بصوت خافت. «ارحلي بعيداً. دعيني وشأني».

لا أعرف إن رَحلتْ. شعرتُ وكأنَّ هنالك مطرقةً ثقيلةً تنهال عليَّ بالضرب في رأسي. لم أعرف كيف وصلتُ إلى الكورنيش. سمعتُ صوت الماء غير المرئي، كيف يلتطم بمنظِّمات التدفُّق الحجرية. ومجدَّداً وجدتُ نفسي أقف أمام ذلك المنزل الداكن. أأقرع الجرس؟ أأقرعه مرَّةً أخرى؟ تردَّدت. سمعتُ وقعَ خطواتٍ ثقيلةٍ آتياً من ظلام الشارع. سأقرع الجرس... عندما يصلون سأقرع الجرس.

توقفتِ الخطوات، كانوا قريبين جدَّاً عندما توقَّفوا. لم أكترث لذلك أبداً.

سُلِّطَ شعاعُ مصباحٍ يدويٍّ مبهرٌ نحوي.

- «ماذا تفعل هنا؟». نبح صوتٌ حاد.

لم أرد.

- «ألم تفهم؟ ماذا تفعل هنا؟».

إنها الشرطة. اثنان من الشرطة في جولة ليلية.

* «لا شيء».

- «ماذا تقصد بلا شيء؟ كيف تتحدثُ معنا هكذا؟ أجبْ باحترام... أتفهم؟».

* «لقد أجبت باحترام... لا شيء. لا أفعل شيئاً هنا. أتجوَّل...».

اقتربا أكثر. وبكل ريبةٍ وقفا متنبِّهين ويحيطان بي من كلِّ جانب. إن بزَّاتهم تشبه تلك القديمة... وخوذ الشرطة الجنائية غريبة الشكل، معاطف خضراء، حزام، وفوقه شريط مع مسدَّس. ونباحهم مشابهٌ أيضاً لما كان سابقاً...

- «عمَّ تبحث في هذا الشارع؟ أمام هذا المنزل؟». أثاروا غضبي. لماذا يصرخون في وجهي؟

* «هذا ليس من شأنكم. دعِوني وشأني».

أمسكني أحدهما بشدَّةٍ من كتفي.

- «ارفع يديك!».

لم أرفع.

- «هيَّا!».

* «لا لن أرفع».

صوتٌ آخرُ أقلُّ حدَّةً نبَّه ذلك الذي يمسك بي:

- «إنه ليس ألمانياً».

- «هل أنتَ أجنبي؟».

* «نعم».

- «ألديك جواز سفر، وثيقة، هوية؟».

* «إنك تضيء في وجهي».

ذاك الذي كان يقف جانباً أزاح الضوء.

* «الآن يمكنني أن أريكما جواز السفر».

تفحَّصاه كلاهما بدقَّةٍ مطوَّلاً. لم يعد يمسك بي الطويل، وعندما أعادوا إليَّ جواز السفر، أصبحوا ألطف بمراحل.

- «أين تسكن؟».

* «في فندق "هانديلشوف"...».

- «حسناً يا هيني...». قال الأصغر. ولكن الآخر لم يُردْ أن يتركني وشأني.

- «ألا تريد أن تبوح لنا ماذا تفعل هنا؟».

* «لقد قلتُ لك. لا شيء. أتجوَّل فقط. لا يمكنني أن أنام، لذا أتجوَّل».

- «لماذا هنا بالتحديد؟».

استشطت غضباً.

* «تبّاً! هل عليَّ أن أتجوَّل في درب التبانة من أجلكما؟ ربَّما سأكون أفضل حالاً هناك. على الأقل لا يوجد هناك شرطة ألمانية».

- «هذا يكفي! انتبه لكلامك...». نبح الطويل.

* «عَرَّفتُ عن نفسي وتعرفون أين أسكن، إذاً ماذا تريدان؟ لستُ لصّاً، ولا تملكون الحقَّ في مضايقة المرء في الشارع. أم قانون الطوارئ يسري هنا؟».

- «لا يمكن التكلُّم معنا بهذا الأسلوب...».

* «ولا معي أيضاً. كانوا يتكلَّمون معي في هذه المدينة بهذا الأسلوب سابقاً. أما الآن فلن أسمح بتطاولٍ كهذا! إن لم تدعاني وشأني، فسأقدِّمُ غداً شكوى في المركز المسؤول عنكما. فأنا لست مشاغباً أجنبياً، أتفهمان؟».

لقد نجح الأمر. كان ينجح في كلِّ مكان، وهنا أيضاً. قال الصغير وقد نفد صبره: «تعال هيني، إنه على حق، أظهر لنا جواز سفره، وليس ممنوعاً التجوُّلُ في الليل في أيِّ مكان...».

غادرا... في الوقت المناسب. فلقد ترك كل ذلك أثره فيَّ وأحسستُ بالغثيان.

«إنه ثَمِل...». سمعتُ كيفَ كان يتحدَّث الشرطي وهو يبتعد.

«لم ألحظ الأمر أبداً...». قال الآخر، من المؤكَّد أنه الأصغر.

تقيَّأتُ عدَّة مرَّات، وشعرتُ بضغطٍ ثقيلٍ في مؤخَّرة رأسي. ابتعدتُ لخطوتين عن تلك القذارة واستندتُ بيديَّ وجبيني على الإطار الحديدي للسور. أحدهم وضع يده بلطفٍ كبيرٍ على ظهري.

- «لم أكن أريدُ ذلك. لم أكن أريد، صدِّقْني. حقّاً لم أكن أريد ذلك...».

* «لقد قلتُ لكِ: ارحلي... اذهبي بعيداً».

- «لن أذهب. أريدُ أن تذهب معي. أسكن قريباً من هنا. سأعِدُّ لكَ القهوة».

بدت لي تعيسة، تعيسةً لدرجة أني سمحتُ لها بأن تصحبني. أمسكتني من يدي وقادتني إلى الكورنيش ومن ثمَّ عبر الكورنيش.

- «خِفتُ أن يعتقلوك. أن يضربوك».

* «لحسن حظِّهما أنه لم يكن لديَّ مسدَّس. لَكنتُ أجبرتُهما على النزول إلى النهر».

- «هل أجبرتَ شرطياً على النزول إلى النهر من قبل؟».

* «في مكان قريب من هنا كان يوجد جسرٌ يا حبيبتي الصغيرة، ما زالت بعض بقاياه ظاهرةً على السطح على الأغلب. لا يمكن رؤيتها الآن لكن من المؤكَّد أنها لا تزال هناك. بالقرب من ذلك الجسر أجبرتُ شرطياً على النزول إلى النهر».

- «هذا رائع! كنتُ أتمنَّى رؤية ذلك! هلَّا حدَّثتني عن الأمر؟».

* «ربَّما. لكن لا رغبة لي في ذلك الآن».

- «لا رغبة لك في شيءٍ الآن، أليس كذلك؟ أعرفُ هذا الشعور عندما لا ترغب في شيءٍ على الإطلاق. لكني لم أُرِدْ ذلك. صدِّقْني لم أُرِدْ ذلك...».

* «أنا لا ألومكِ يا حبيبتي الصغيرة».

- «حسناً... لقد وصلنا...».

أخرجت المفاتيح من حقيبتها.

- «أسكنُ في الطابقِ السادس، وهنالك مصعدٌ يعمل».

أعدَّت لي قهوةً جيِّدة، خلَّصتْني من المذاق الحامض المزعج في فمي.

- «ليس لديَّ كونياك لنشربه ولا حتى أيُّ شيءٍ للأكل...». تأسَّفتْ حبيبتي الصغيرة. إنه أمرٌ مفاجئٌ نوعاً ما. فبناءً على إصرارها الكبير على اصطحابي إلى هنا كنت أعتقد بأنها مستعدَّةٌ لزياراتٍ كهذه.

جلسنا بجانب بعضنا البعض على الأريكة، وأمامنا طاولةٌ صغيرة. يكفي أن أجعلها تتمدَّد وأضغط عليها قليلاً. من يدري إن كانت تريد ذلك؟ ومن يدري إن كنتُ أريد أنا ذلك؟

- «هل كانت جميلة؟».

* «كانت تروق لي».

- «هل كانت أجملَ مني؟».

* «هل الإجاص أجمل من توت العُلَّيق؟».

- «إجاصةٌ مكتملةٌ كبيرةٌ غضَّةٌ تتوق إلى عضِّها؟».

* «حبَّة توت عُلَّيقٍ مكتملةٌ كبيرةٌ حمراءُ نديَّةٌ ومغطَّاةٌ بحبَّات طَلْعٍ دقيقة».

- «كيف كان شَعرُها؟».

* «كستنائي اللون، لم يكن لمَّاعاً لكنه كان غزيراً، كثيفاً وطويلاً. كانت تهدِّدني أحياناً بأنها ستقوم بلفِّ شعرها حول عنقي وأنا نائمٌ بعمقٍ وتخنقني. كان طوله كافياً للقيام بذلك».

- «عيناها؟».

* «عيناها كانتا رماديتين. ربَّما سماويتان، ولكن بشكل عام رماديتان».

- «وجهها؟».

* «وجهها كان صغيراً ومبقَّعاً وفيه قليلٌ من الحفر. يُدعى ذلك ببشرةٍ غير نقية».

- «وهل جسمها كان مبقَّعاً أيضاً؟».

* «كلا. فقط وجهها. جسمها كان أبيضَ... ناصعاً وناعماً».

- «هل كانت أطولَ مني؟».

* «كانت طويلة. كطولي تقريباً».

- «أنا قصيرة، أليس كذلك؟».

* «ابقي كما أنت».

- «وهل كانت ساقاها طويلتين؟».

* «كانت ساقاها طويلتين وجميلتَي التكوين».

- «وقوامها؟».

* «اليوم يُقال لذلك: ستة وتسعون، ثمانية وستون، أربعة وتسعون».

- «هل كانت مغريةً ومثيرة؟».

* «كلا. وقتها كانت مقاييسُ كهذه تُعتبر أكثر من المحبَّذة. فقد كانت الموضة نهوداً مدببة ووركاً ضيِّقاً».

- «ولكنها أعجبتك؟».

* «نعم، كانت تعجبني كثيراً».

- «هل كنتما تمارسان الحبَّ كثيراً؟».

* «نعم، كثيراً».

- «أنا وحبيبي أيضاً كنا نمارس الحبَّ كثيراً. لم نكن نعرف كيف نُشبع رغبتنا. لكنه أراد طفلاً، أمَّا أنا كنت أخاف. وأحياناً لم يكن الأمر جميلاً حتى. فقد كنتُ أتذكَّر أحياناً أنهم شنقوا أبي. لم أستطع نسيان ذلك حتى لدى قيامنا بالأمر. فكان حبيبي مُحبَطاً».

* «شنقوا أبي... شنقوا أبي... لن تصلي إلى نتيجة هكذا. في نهاية الأمر أنتِ تعيشين حياتك، وليس حياته».

- «أعرفُ ذلك. لطالما قال لي الجميع هذا، وحبيبي كان يقول لي الأمر نفسه وأنا أدرك ذلك. لكن لا يمكن فهم وتفسير وحلُّ كلِّ شيءٍ في هذا العالم باستخدام العقل. فأنا أيضاً لا أستطيع النهوض عندما تُثقلني همومي. كنتُ طوال بعد الظهر متحمِّسةً للعشاء معك. أردت أن أكون مع أحدٍ ما، أن أجلس معه. وهكذا يبدو الجلوس معي. دائماً ما يتغلَّب عليَّ الأمر. هل ذنبي أني ألمانية؟ أنا لم أختر قوميَّتي ولا مكان ولا زمان حياتي. هذا ليس عدلاً».

* «لم يكونوا مضطِّرين إلى إخباركِ. كان في إمكان والدتك أن تتدبَّر أمر حياتكما بطريقة أخرى».

- «كلا. أحبُّ الحقيقة. وإن كانت مُرَّةً، لكنها الوحيدة الممكنة. لكن... ما هي الحقيقة؟ لا أزال أتخبَّط بين رُحى حجرين. لأسباب تتعلَّق بي وأخرى خارجية. قبل عامين ذهبتُ مع حبيبي إلى البحر الأدرياتيكي. كانوا يُعامِلوننا هناك بطريقةٍ مناسبةٍ ومهذَّبةٍ جدّاً، لكنهم

لا يحبُّوننا. لا يحبُّوننا في أيِّ مكان. الأناس الآخرون ربَّما لا يأبهون لذلك، ولكني أعرف هذا. ولا يمكنني الذهاب حيث لا يريدونني، محكوم عليَّ بالسجن المؤبَّد فيما يعرف بألمانيا. الإعجاب والمحبَّة لا يمكن شراؤهما بأيِّ ثمن. سألتُ مرَّةً شاباً دلماسياً[1] خلال العشاء، تعرَّفنا إليه على الشاطئ، عن رأيه فينا نحن الألمان. فأجابني: إنكم صاخبون جدَّاً.

لم أفهم قصده حينها، لكن الآن أعرف ماذا كان يعني. إننا نعاني أمام أوروبا من العُقد والتي نحاول أن نخفيها في داخلنا بالتظاهر بكرامتنا وأهمِّيتنا، فنلفتُ الانتباه إلى وجودنا في كلِّ مكان بالحديث بصوتٍ عالٍ والغناء وطريقة المشي والتصنُّع في كلِّ شيء، فنحن ألمان، حتى تعرفوا ذلك، نحن ألمان... ولقد قالها ذلك الشاب بأسلوبٍ لطيفٍ جدَّاً حتى».

* «منذ فترة ليست ببعيدةٍ التقيتُ عندنا بألمانيٍّ، سألني: ما رأيك فينا نحن الألمان؟ أجبته: إنكم صاخبون جدَّاً... دعوته إلى العشاء مع مجموعةٍ من الناس. واحتسينا الشراب، وعندنا حين كنا نُكثر من الشراب، كان الأمر يتحوَّل أحياناً إلى احتفالٍ صاخب. وهذه المرَّة أيضاً رحنا نُغنِّي، في الواقع غالباً ما يكون ذلك أشبه بالصراخ. واحتسى ذلك الألماني الشراب معنا. لم يتحمَّل الكثير. جلس ثملاً في الزاوية وأخذ ينظر إلى ما كنا نفعله. ثم نهض فجأةً وأتى إليَّ، وقطع علينا غناءنا ثم

1- نسبة لدلماسيا منطقة على الساحل الشرقي من البحر الأدرياتيكي تقع حالياً ضمن كل من كرواتيا والجبل الأسود. (م).

بدأ يضحك ضحكاً هيستيرياً: هذا الإنسان... مشيراً إلي، هذا الإنسان قال لي اليوم إننا نحن الألمان صاخبون جدّاً...».

- «لم يفهم الأمر، أليس كذلك؟».

* «لم يفهم شيئاً».

- «كان الدلماسي معجباً بي. فتعلَّقَ بنا، وراح يتسكَّعُ حولي طوالَ الوقت، اصطحبني مرَّةً في قاربٍ إلى جزيرةٍ صغيرةٍ نائيةٍ في البحر. كان يشتهيني، وعيناه السوداوتان تبتلعان كلَّ شبرٍ من جسدي. وقد أعجبني أيضاً. كان يعجبني كثيراً، لدرجة أني كنت أرتعش. ولكن انظر لم ينتج عن ذلك أيُّ شيء. كنت خائفة... كنت خائفةً من أن يقول لي بعد أن ينتهي مني: إنكِ مجرَّد ألمانية. إنك ابنة مجرم حرب. لقد ضاجعتك لأنها غريزةٌ بشريةٌ، ولكني أحتقرك لأنكِ ألمانية... أما أنت فقد أحببتَ ألمانيةً في الوقت الذي كان العالمُ بأسره يكرهنا. ألم يزعجكَ ذلكَ أبداً؟».

* «أزعجني الأمر يا حبيبتي الصغيرة. كنت أقسو على نفسي وعليها».

- «ولكن الأمر كان أقوى، أليس كذلك؟ أقوى منكَ ومن الحربِ ومن الحواجز التي يصطنعها البشر فيما بينهم. لم تكن تريد أن تحبَّ ألمانيةً، لكنكَ لم تكن تقوى على منع نفسكَ من حبِّها، أليس كذلك؟».

* «كان الأمر أقوى يا حبيبتي الصغيرة. أقوى مني ومن الحرب...».

كان مساءً غريباً يا حبيبتي الصغيرة، مليئاً بشيءٍ غير محدَّد، لغز أو ربَّما حزن. كان مساءً رَغِب فيه المرء في أن يبكي على نفسه على

عدميَّته، على كلِّ ذلك البؤس واليأس وشقاء الحرب. كان مساءً مليئاً بالكآبة والرغبات، لكن لم يكن استوائياً حارَّاً حيث النساء بجلدهنَّ المتوهِّج يتقلَّبنَ في فراشهنَّ غير قادراتٍ على النوم، ولا ليلةً بحريةً خانقةً حيث كلُّ شيء ترتدينه يكون ضيِّقاً وغريباً، حتى جلدكِ يصبحُ ضيِّقاً عليكِ.

لم يكن الجوُّ جميلاً بل مزعجاً، مع ضبابٍ ممتدٍّ فوق المدينة، ورطوبةٍ مشبعةٍ برائحة تعفُّن الأوراقِ المتساقطة، والدخانُ من المداخن كان يزحفُ بالقربِ من الأرض مع سماءٍ غائمة. كان الظلام قد حلَّ تماماً مثل هذه الليلة.

كنتُ عائداً من الضفَّة الأخرى. أُصفِّرُ لحناً مرتجلاً، كان يحدث ذلك لي مراراً، يخطر لي لحنٌ معيَّنٌ ثم أنساه لاحقاً. كان الظلام حالكاً لدرجة أني كنتُ أضطرُّ إلى توقُّع موطئ قدمي على الرصيف.

مشيتُ مسافةً على الكورنيش وأنا أُصفِّر ذلك اللحن المرتجل، وفجأةً سمعتُ صوتَ وَقعِ خطواتٍ خلفي، خطواتٍ ناعمة، نسائيةٍ بكلِّ تأكيد. فكَّرتُ كيف أنها لم تكن خائفةً في هذا الظلام. فالمدينة لم تعد آمنةً كثيراً. كانتِ الخطواتُ خلفي لكنها بَدتْ وكأنها تُلاحقني وأخذَتْ تقتربُ مني شيئاً فشيئاً، وعندما انعطفتُ نحو ذلك الشارع، عاودتُ سماعها خلفي مجدَّداً بعد لحظات. في الواقع لم تكن خلفي وإنما على الرصيف المقابل. استمرَّت الخطوات بملاحقتي حتى أصبحتْ تقابلني ثمَّ تباطأت. كانت هذه المرأة تريد شيئاً، ولكن الأمر لم يكن يهمُّني كثيراً. تابعتُ السير بَخطواتي المعتادة وأنا أُصفِّرُ لحني.

فمشينا في الظلام جنباً إلى جنب، هي على رصيف وأنا على آخر، لم أستطع رؤيتها ولم تستطع هي رؤيتي، لكنها كانت تواكبني، فقد كان في مقدوري سماع ذلك. شعرت بالتوتُّر. لم أكن أرغبُ ذلك المساء في أية مغامرة، أردتُ البقاء لوحدي مع آلامي، أمَّا تلك المرأة ووجودها الخفيُّ فقد كان يسبِّب لي الإزعاج فقط.

توقَّفتُ وامتنعتُ عن التصفير. فلتتابع سيرها. ولكن الخطوات على الطرف الأخر هدأت وتوقَّفت أيضاً. اللعنة ماذا تريد؟ كان من الممكنِ أن تريد أيَّ شيء، لكن في الواقع لم يكن من الصعب توقع ما تريد.

وقفتُ وأخرجتُ من جيبي سيجارةً وأشعلتُها.

«ما كان هذا؟». سمعتُ صوتاً نسائياً عميقاً.

«من هذا؟». أجبت.

- «الذي كنت تصفِّره».

بَدتْ لي مضحكة. أرادت أن تتعرَّف، هذا مؤكَّد، ولهذا الغرض تكون أية بداية جيِّدة. ماذا كنتُ أُصفِّر؟ لم أصفِّرْ أيَّ شيء.

* «لا شيء...». قلت.

- «أردتُ أن أعرف فقط، من قام بتأليفها»، تابعت حديثها بصوتٍ من طبقة الألتو[1].

* «لا أحد».

- «هل أنتَ موسيقي؟».

1- صوت ذو طبقة الأوكتاف الأدنى بين أصوات النساء. (م).

* «كلا».

- «إذاً لا يمكن أن يكون أنتَ من اخترعها».

* «إذاً لم أخترعها. لا يهمُّني الأمر، إن كُنتُ قد اخترعتُ شيئاً أم لا».

- «هل في مقدورك إعادتها؟».

* «لا أعتقد».

- «ألديكَ سيجارة؟».

ياه... إنها بائعة هوى. كان عليَّ معرفة ذلك فوراً. لديها صوتٌ جميل من طبقة الألتو لكنها بائعةُ هوى. وأنا لا رغبة لي في بائعة هوى ولا غيرها.

* «السجائر أصبحتْ نادرة...».

- «أنتم الأجانب لا تعانون بعدُ من هكذا نقص».

* «كيف عرفتِ بأني أجنبي؟».

- «تستخدم لغةً سليمةً جدّاً مقارنةً بألماني».

* «أنتِ أيضاً تستخدمين لغةً ألمانيةً سليمةً في حديثك ولستِ أجنبية».

انتقلتُ إلى الطرف المقابل من الشارع حيث كنتُ أتوقَّع مكانها.

* «ولا تخافين من الأجانب؟ فأنا صانع مشاكل أجنبي. وربَّما من أسوئهم».

- «لا أخاف منك. إنك تحبُّ الموسيقا...».

غبيَّة! لو كانت تعلم أنماط وأشكال محبِّي الموسيقا!
كِدتُ أصطدم بها. لحظتها في آخر لحظة.
*«أَحقَّاً لا تخافين؟».
- «دعني. سأطلبُ النجدة...».
* «لن يسعفكِ ذلك كثيراً. لكن لا داعي للخوف. ألديكِ رغبةٌ كبيرة في التدخين؟».
بدأتُ ألمحها. قدَّمتُ لها سيجارةً ملفوفة.
- «إنها من التبغ الفاخر».
أخرجتُ أعواد الثقاب، وأشعلتُ لها السيجارة. متعمِّداً إبقاء عودِ الثقاب بالقرب من وجهها. لم تكن بائعة هوى. كانت لتكون أيَّ شيء، لكن لم تكن بائعة هوى.
- «أراضٍ أنتَ الآن؟». تكلَّمتْ ساخرة.
* «بماذا؟».
- «بي».
* «اعتقدتُ بأنكِ بائعة هوى».
- «أووه.. خابَ ظنكَ الآن حتماً».
* «وهل هذا مهم؟».
- «بالنسبة إليَّ لا».
* «ولا حتى إليَّ».
- «هل أنت من البلقان؟».

* «أنا فرنسي».

- «لَكنتُكَ بلقانية».

* «وهل هذا مهم؟».

- «لا على الإطلاق. أنا فقط... أعرْني عود ثقاب...».

وقامت بفعل الشيء نفسه. وجَّهت عود الثقاب نحو وجهي.

* «هل أنتِ راضيةٌ الآن؟». قلتها مقلِّداً نبرتها الساخرة.

- «وهل هذا مهم؟». ردَّتْ بالمثل.

* «لا على الإطلاق. هل أعجبتكِ السيجارة؟».

- «لم يعد مذاق السيجارة اليوم هو الأهم».

* «حسناً إذاً، سأغادر».

- «إن صَادفَ وكانت لكَ رغبةٌ الآن في احتساء القهوة...».

* «لا أحبِّذُ أسلوب تقديم شيء مقابل آخر».

- «ما كنتُ لأتجرَّأ على عرضِ ذلك»، ردَّتْ بمرح.

* «وهل لديكِ كلُّ تلكَ القهوة الأصلية؟».

- «وهل لديكَ كلُّ تلكَ السجائر؟».

كانت تتسلَّى بي وأنا بها. لم تكن بائعة هوى، ولكن عرفتُ تماماً ماذا كانت. ساقطة... ساقطةٌ راقية.

* «ربما أنا بولندي...». حاولتُ إخافتها.

- «لا يوجد على طيَّة السترة حرف "P". وحتى لو كنت...»

إنها ساقطة... ساقطةٌ تعرف بأنني لستُ بولندياً، تعرف ذلك

جيِّداً. ولكن لديها صوتٌ جميلٌ من طبقة الألتو وابتسامةٌ لطيفة. على كلِّ حالٍ اكتشفتُ في نهاية الأمر أنَّ لدي رغبةً في احتساء القهوة، إن صحَّتْ تسمية الأمر بذلك.

* «في الواقع لا يمكنني أن أرفضَ مثل هذه القهوة الجيِّدة الزكية...».

- «أنا في الواقع... أسكنُ هنا...».

أخرجتِ المفاتيحَ من جيبها. تحسَّستْ مكان القفل وفتحتْه.

- «يوجد هنا درجان صغيران...». قالت محذِّرة.

لَفتَ نظري أن البوابة لم تُصدِرْ أدنى صوت. لا يعني ذلك أن الأمر لم يفاجئني.

تبعتُها مباشرة. فتحتْ باب المنزل وسحبتْني إلى الداخل.

- «انتظرْ هنا، سأضيء القاعة...».

تقدمتُ إلى الداخل بعد أن أضاءتها. كنتُ أقفُ عند عتبة منزلٍ أجنبيٍّ مجهولٍ تُفضي إلى قاعةٍ واسعةٍ تحتلُّ الطابق الأرضيَّ بأكمله. كانت تلكَ الساقطة تقف في الوسط وتتأمَّلني بفضول. وقفنا هكذا لبعض الوقت يُقيِّمُ كلانا الآخر. كانت ترتدي زيَّاً رمادياً، وكانت طويلةً ولها قوامٌ جميل، يبدو أنَّ زوجها على الجبهة وتريدُ، بل تحتاج إلى رجل، لم يخطئ حدسي في الخارج، إنها من أولئك اللواتي لا يمكنهنَّ الاستغناء عن الرجال. فعندما تعترمها الرغبة، تصطادُ أيَّ رجلٍ في الشارع. لا يبدو أنها انتقائيةٌ كثيراً في اختياراتها. رجلٌ أيَّاً كان، المهمُّ أن يكون.

لم تكن لديَّ فرصةٌ ولا متَّسعٌ من الوقت لتفقُّد المكان الذي أنا فيه. كنا نقف وجهاً لوجه ولم يكن من الضروريِّ التفوُّه بأيِّ كلمةٍ أبداً، فتحتا أنفها كانتا ترتعشان وأنا أيضاً انتابتني موجة حَر. تقدَّمتُ نحوها فاتَّجهتْ إليَّ كالمنوَّمةِ مغناطيسياً. جذبتُها نحوي، حتى تأوَّهتْ واغرورقتْ عيناها، أرجعتْ رأسها إلى الخلف، وقربت نهديها وقدَّمتْهما لي... أمسك، اسحق، عض، اجعلني أتألَّم، أتأوَّه من الألم! عرَّيتها من ملابسها ونحن واقفان، بسرعة، بلا صبرٍ وبلا مهارة، كنتُ أرمي قطعَ ملابسها على الأرض، نزعتُ عنها كلَّ شيءٍ وشعرتُ كيفَ كانت يداي ترتعشان خلال ذلك، رفعتُها وحملتُها في الهواء كالريشة، ووضعتُها على أريكةٍ كبيرةٍ كانت هنالك لهذا الغرض، كانت الساقطة تلهثُ، وعيناها مغلقتان وتتنفَّس بشدَّة... الرجل على الجبهة، أو إنها أرملة، لكن غالباً ليست أرملة. كانت بيضاء... مستلقية، عيناها مغلقتان، تنتظر، حتى أنزع ملابسي، تمدَّدتُ بقربها، ارتفعتْ وأخذتْ تهمس كمجنون يهذي. هذا رائع، عظيم، رائع، نعم. جذبتْني نحوها ثم شدَّتْ صدرها مبرزةً نهديها. اسحق، افرك، عض، اجعلني أتألَّم، أتأوَّه من الألم....كانا صلبين ومرنين ومكوَّرين مثل نصف بطِّيخة، سَحقتُهما ففتحتْ فمها الرطب، كانت لها بشرةٌ غير نقيَّةٍ ومبقَّعةٌ في وجهها وقاسيةٌ بعض الشيء. صرختْ منتصرة، سعيدة، متألِّمة. أيضاً!! همست أيضاً!! يا إلهي! هذا مؤلم، مؤلم، أيضاً!! اجعلني أُجَنُّ من الألم. أمَّا أنا فقد جُننت، اختفيت، ضعتُ في هذا الجنون المتوحِّش، عضَّتني في فمي، كانت تتلوَّى، وتصرخُ أحياناً، يا إلهي يا رب السماوات!

ثمَّ توقَّف كلُّ شيءٍ وهدئ. و أخذ صدى الأصوات يتردَّد في الرأس، ونبض القلب توقَّف عن الدقِّ بجنون. كان صَدري يبدو وكأنه ممسوحٌ بالزيت، ولكنه كان العرق. وهي أيضاً كانت تلمعُ بأكملها. لَعقتُها...كانت مالحة المذاق.

«إنك مالحة...». فاجأني صوتي المبحوح، وبدا وكأنه يأتي من فجٍّ عميق.

* «ما اسمكِ؟».

- «لويزا. وأنت؟».

* «هذا غير مهم. فقط أردتُ معرفة اسمكِ».

تناولتُ سترتي من على الكرسي. وأخرجت سيجارتين.

- «أشعِلْ واحدةً فقط. سنُدخِّنها معاً».

اضطررتُ إلى أخذ البنطال، كانت توجدُ فيه أعوادُ الثقاب.

استلقيتُ على جانبي واتَّكأت على مرفقي، وضعتْ سيجارةً في فمها ونظرتُ كيف كانت تأخذ نفساً عميقاً. كانت تنفث الدخان من أنفها وهي مستلقيةٌ وبدتْ هادئةً راضية.

- «إنكَ صغير».

* «ليس كثيراً. وأنتِ أيضاً لستِ كثيراً».

- «هذا رائع، عظيم، هذا رائع». وكانت تضحك، كانت تضحك وكأنها أجراس ترن.

* «لماذا تضحكين؟».

- «لا شيء»، وضحكت، «هذا رائع، عظيم، هذا رائع».

* «كُنتِ رائعة».

زمجرتْ كالكلبة، بصوتٍ يَنِمُّ عن الرضا، ينبعث من رئتيها لا من حلقها. كانت تُحبُّ سماع ذلك على ما يبدو.

داعبتُها وتفحَّصتها من أصابع قدميها حتى شعر رأسها. لم تكن بشرتها نظيفة، لكن أنثى كهذه لا يلتقيها المرء عادة، ربَّما أبداً. ما زال وَقعُ الأمر في داخلها يتلاشى تدريجياً. كانت ساقطةً مثيرة. نخباً أوَّل.

انتهينا من التدخين. وكم كان مختلفاً مذاق السجائر بعد هذا! انتهينا من التدخين ومن ثمَّ نهضتْ، تمدَّدتْ وتمطَّتْ وقالت: لديكَ عينان جميلتان ويدان ناعمتان، يجعلونني أرتعش بمجرَّد لمسي. أمسكتْ رأسي بيديها وجذبته إليها، ثمَّ قامتْ بتقبيل عيوني وجبيني، ومرَّرتْ فمها بنعومةٍ على فمي، ثمَّ تركتْني وأزاحتْني وجلستْ. ثمَّ قالت: أنا جائعة، وأنت؟ أومأتُ برأسي. وأنا أيضاً جائع.

نهضتْ بانسيابيةٍ من على الأريكة. تقدَّمتْ نحو منتصفِ الغرفة، وأخذتْ تهزُّ رأسها من مشهد قِطَع ملابسها المنتشرة على الأرض، فرفعتْهم قطعةً قطعة، بادئةً بالجوارب ثمَّ بالتنُّورة الداخلية ثم بالسترة وبتنُّورة زيِّها، وعلَّقتْها بعنايةٍ وسرورٍ على الكرسي. ذهبتْ إلى غرفةٍ مجاورةٍ ثمَّ عادتْ مرتديةً بُرنساً مخملياً أسودَ، وكان نهداها الكبيران المكوران يُشعان بإبهارٍ من بين ذلك السواد، كانت تتجوَّل في الغرفة كالنَّمِرة، بمرونةٍ وليونة، تقدَّمتْ نحوي وقبَّلتْ أنفي وقالت: تغطَّ بالبطَّانية، سأذهبُ لأعِدَّ شيئاً نتناونه، استلقِ خلال ذلك ولا تفكِّر في شيء.

بقيتُ لوحدي. نهضتُ وارتديتُ قميصي وبنطالي، لا أحبُّ أن أكون عارياً. ارتديتُ جواربي أيضاً وانتعلتُ حذائي. نظرتُ من حولي، أين أنا . . .

كل شيء هناك كان ذا نوعيةٍ ممتازةٍ ومنسَّقاً بعناية. كانت للغرفة أبعاد كبيرةٌ وارتفاعٌ عالٍ مع نافذةٍ كبيرةٍ ممتدَّةٍ على طول الجدار الأمامي. والخشب يغلب على المكان، خشبٌ وجلدٌ ذو نوعيةٍ جيِّدة. مع طاولةٍ بيضاويةٍ ضخمةٍ في المنتصف، مغطَّاةٍ بقماشٍ نجد ثقيل. ومكتبة تحتلُّ كامل عرض الجدار الجانبي، وفي رفوفها مجموعاتُ كتبٍ بأحجامٍ متماثلةٍ مجلَّدةٍ بجلد عجلٍ أو خنزير. مجموعاتٌ من الأعمال الكاملة. لم يكن فيها سوى أعمالٍ كاملة. غوته، شيلر، هاوف، فرايتاغ. بالفرنسية بلزاك، فلوبير، موباسان. بالإنكليزية شيلي، بايرون، ديكنز، ثاكري، شكسبير وكان في عدَّة إصدارات. تورغينيف، تولستوي، دوستويفسكي مترجمةً إلى الألمانية. إبسن، ستريندبرغ، والتر سكوت مترجمة إلى الألمانية.. لم يكن هنالك أية أعمال من القرن العشرين. إنها مكتبة للتباهي وليس للقراءة، فأغلب هذه الكتب لم يقرأها أحد.

قسمٌ كاملٌ لأدب المذكَّرات. مجموعةٌ كبيرةٌ من الوثائق الدبلوماسية، والمراسلات والتقارير والإصدارات السنوية للجمعيات العلمية. كتيِّباتٌ عن السفر والجغرافيا. قسمٌ خاصٌّ بالطبعات الأولى. كلُّ شيءٍ كان من وراء الزجاج. جميع الكتب كانت تقف باستعداد كالعسكر. لم يكن هنالك مجلَّدٌ ناقص، ولم يكن هنالك على أيِّ رفٍّ مكانٌ فارغٌ لأيِّ كتابٍ آخر. كانت مكتبةً بلا فائدة، لأغراض الزينة

فقط. يبدو أنها هكذا على هذه الحالة بلا أي تغيير مذ قاموا بتركيبها. لم يُضفْ شيء ولم ينقصْ شيء.

بالقرب من الطاولة البيضاوية كانت توجد أربعة مقاعدَ ضخمةٍ يُغطِّيها جلدٌ طريٌّ ذو نوعيةٍ ممتازة. أما زاوية المكان فيشغلها موقدٌ خشبيٌّ تفاجأتُ بأنه من الخشب المحفور. بدا أشبه بمذبح كنيسة. وعند الحائط المقابل للنافذة كانت هنالك خزانةٌ زجاجيةٌ تحتوي على مجموعةٍ من المعادن والأحجار المصقولة الملوَّنة، وبلَّورات الأملاح المعدنية. عقيق، وجاد، وأماتيست، وتوباز، وبيريل بألوانها المتنوِّعة المرحة، كانت تشكِّل التنوُّع الحيَّ الوحيد في هذا المكان عالي النوعية. كانت تتدلَّى من السقف ثريًّا برونزيةٌ بطابع الأرت نوفو تضيء فيها كرتان اثنتان فقط من بين كراتها الستَّة. وأمام المكتبة كانت توجد كرةٌ أرضيةٌ من القرن الثامن عشر. أما أرض الصالة فيُغطِّيها سجَّادٌ سميكٌ رماديٌّ ناعمٌ كالطحالب، تبقى فيه آثار الأقدام. النافذة كانت مغطَّاةً لنصفها بستائرَ من ديباجٍ بتطريزةٍ ناعمة. وعلى الحائط الرابع كانت هنالك لوحةٌ واحدةٌ معلَّقة. كبيرةٌ وطولانيةٌ ضمن إطارٍ ضخمٍ مُعشَّق باللون البُنِّي، يظهر فيها بحرٌ لا نهائي متموِّجٌ بدون شاطئ، لا شيء سوى البحر، بلا سفينة، بلا صخور تتكسَّر عليها الأمواج، لا شيء سوى بحرٍ لا نهائيٍّ وفوقه سماءٌ لا نهائية رصاصية.

كان يوجد مكتبٌ بالقرب من النافذة، كبيرٌ أيضاً، مُعشَّقٌ مع لوحٍ مُرصَّع، وكرسيٌّ خشبيٌّ قاسٍ بلا وسادة، ومفكِّرةٌ بغلافٍ جلدي، الشيء الوحيد الذي كان موجوداً على المكتب، بدتْ أنها لم تُستعمل وكانت فقط للزينة.

كانت القاعة دافئة، لكنني لم أستطع العثور على مصدر ذلك الدفء.

رحتُ أخمِّنُ كم كانت تكلفة كلِّ هذا... فأخافني تخميني. شعرتُ بأنني محاصر، عمَّ أبحث هنا، لا أنتمي إلى هذا المكان. في ألمانيا في السنة الخامسة من الحرب لم يكن هنالك فائضٌ من المفاجآت، ولكن هنالك دائماً حدودٌ لا يمكن تخطِّيها. كيف حدث أني هنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟

الشيء الوحيد المُشوِّش هنا كانتِ الأريكة. أريكةٌ للنوم عريضةٌ ومريحة. لم تكن تناسب المكان هنا، كانت تنتهكُ وقار ووظيفة المكان. من المؤكِّد أنه كان يوجد بادئ الأمر مقعدٌ طويلٌ مغطَّىً بجلدٍ مماثلٍ لذلك الموجود على المقاعد. في مكانٍ ما في الأعلى وراء الأبواب التي اختفتْ خلفها، هنالك بكلِّ تأكيدٍ غُرفُ نومٍ ومخادعُ وحمَّاماتٌ ومطبخ. الأريكة في القاعة كان لها تفسيرٌ وحيد.

الزوج؟ بكلِّ تأكيدٍ إنه الزوج. على الأرجح زوجٌ من القرن التاسع عشر. ربَّما عجوزٌ هَرِم. ولكنَّ عجوزاً هَرِماً لن يخدم في الجيش. و- لقد انتبهتُ إلى ذلك- لا توجد أية أدبيات عسكرية في المكتبة. ولكن إن كان الزوج، إن كان عجوزاً هَرِماً ولا يخدم في الجيش، لماذا ليس هنا؟ لماذا يَترِكُ زوجته الشابَّة لوحدها؟ إنها وحيدةٌ في هذا المنزل الكبير، لا يوجد أدنى شكٍّ في أنها تعيش فيه وحيدةً، وإلا لما كان في مقدورها فعل ذلك.

لكن ما شأني في كلِّ هذا؟ عليَّ أن أختفيَ وأغادرَ بأسرع ما يمكن، لم أكن أشعر بالراحة هناك.

مع ذلك لم أستطع الكَفَّ عن التفكير في الأمر. لا يمكنها أن تكون وحيدةً في المنزل. على أحدٍ ما أن يتكفَّل بالتدفئة والترتيب والعناية وبنظافة المنزل. كانت الجهات المختصَّة تقوم بإسكان الذين تدمَّرتْ منازلهم بالقصف، والنازحين الألمان من الشرق في الفيلات الموجودة على الضفَّة المقابلة، فيلات المفضَّلين. وذلك بمرسومٍ رسمي، لا يمكن الاعتراض عليه. لم أكن أريدُ التفكير حتى في أيِّ مكانٍ وجدتُ نفسي فيه الآن، مع أنَّ أموراً عديدةً كانت توحي بعكس ما كنتُ أعتقد. فلا وجود لكتاب كفاحي ولا للصليب المعقوف ولا صورة الزعيم.

ومع ذلك فمن الأفضل أن أغادر.

كنت أعرفُ عنها كلَّ شيء. لم يكن من الصعب معرِفةُ كلِّ شيءٍ عن واحدةٍ كهذه. إنها شِبقة، ساقِطة، ربَّما من الطراز الأوَّل لكنها انحدرتْ بشكلٍ كبير، طالما أنها ترضى بأجنبيٍّ أخذته من الطريق ولم تكن قادرةً على رؤيته حتى، ولم تكن تعرف عنه شيئاً إلى الآن، حتى أنها لم تكن تعرف اسمه. ربَّما هي مُنحرِفةٌ بهذا الاتجاه، ربَّما هذا ما يُرضيها، ويُثيرها؛ تخرجُ مساءً إلى الكورنيش، تَلحقُ برجلٍ، أيِّ رجل، جنديٍّ في إجازة، شرطي، سائق، أجنبي، ربَّما كلَّما كان أقوى بنيةً وأوسخَ كان أفضل. وعند الفَجرِ تقول: يجبُ عليكَ الرحيل، يجبُ عليكَ المغادرة، طالما لا يزال هنالكَ ظلامٌ، كي لا يتمكَّن أحدٌ ما من رؤيتك وأنت تَخرُج، شكراً لك، لن أراكَ مجدَّداً... كان ذلك جيِّداً ولكن لا تحاول أن تَبذُلَ جهداً كبيراً وتحيِّيني في الشارع، إن قابلتْني في مكانٍ ما... يجبُ أن أحافظَ نوعاً ما على سمعتي، ليسَت سمعتي تحديداً وإنما احتشامي، وليس كثيراً وإنما قليلاً.

كيفَ كانت لتتظاهرَ لو أني قلتُ لها فجأة: أعطني مقابلَ ذلكَ مئتا ماركٍ! هل كانت لتعطيني؟ ربَّما كانت لتفعل.

ولكن على الرغم من ذلك، لديها جرأة، لا يمكنني إنكار ذلك. وفي مرَّةٍ ما يمكن أن تصادف أحداً لن يقبل أن يُصدَّ بسهولة، ليعثروا عليها ذات يومٍ مذبوحةً ربَّما.

كلا، هي ليست لغزاً. رأيتُ وسمعتُ وخبرتُ هنا ما هبَّ ودب. هذا البيت فقط هو اللغز، أما هي فلا.

كنتُ أتفحَّصُ الأحجار في الخزانة. اكتشفتُ المفتاح وأدرتُه، فملأ الخزانةَ سطوعُ ضوءٍ خفي، الأحجار أصبحت تنبض بالحياة، وأخذت تُشِعُّ بأبهى حلَّتها. فمنها المعرَّق، والصافي الشفَّاف، والأخضر، والأزرق، والأحمر، والأصفر بلون الكبريت، والبلَّورات معدنيةُ اللمعان، والأحجار المضلَّعة، والمكوَّرة، ومكعَّباتٌ بأشكالٍ رائعة، الشيطان وحده يعلم ما كانت أسماؤها، لكني لم أستطع الكَفَّ عن النظر إليها. مجموعةٌ كهذه ينبغي أن تكون باهظة الثمن.

غيَّر ذلك من مظهر المكان كُلِّياً. فاختفى الشعور بالمساحة الزائدة، والرقيِّ المصطنع، والبرودة الآتية من خشب البلوطِ الثقيل ومن الجلد. وكأنَّ هذه الأحجار كانت تُشِعُّ الحياة والسعادة في كامل المكان، كانت فكرةً بارعة، همستُ لنفسي، بارعة!

ذهبتُ إلى المفتاح الموجود قرب الباب وأطفأتُ ضوء السقف، وفجأةً أصبحتُ في عالمٍ سحريٍّ آخر. المصابيحُ المخفية داخل الخزانة لم تكن كافيةً لإضاءة المكان بأكمله، إنما فقط معالمَ الأثاث؛

فتغيَّرتْ درجة سواد جلد التنجيد، والأفاريز الذهبية على ظهر الكتب بدتْ وكأنها تضيء. الآن ظهرتْ ألوان الأحجار، الأزرق الآزوري، والأحمر الدموي، والبنفسجي، والأصفر الكبريتي، والأبيض الحليبي.

دخلتْ. كانت تحملُ صينية. وضعتْها على الطاولة.

«رائع...». لم أستطع كَبتَ إعجابي.

- «تبدو وكأنها حيَّة. يمكنني الوقوف أمامها لساعات. تبدو لي وكأنها دائمة التغيُّر. ليس صحيحاً أنَّ الأحجار مادَّةٌ ميتة. الأحجار حيَّة، لكن بدورة حياةٍ أبطأ بكثير. لكنها ظهرتْ للوجود في وقتٍ ما، نشأتْ، وهي أيضاً تختفي، وتموت، وتتعرَّض للتجوية. نحن نقيسُ الزَمنَ بمفاهيمَ بشرية. لا يمكنني تخيُّلُ أنَّ شيئاً ما يُمكن أن يحيا ويقاوم ويتغيَّر ويهلك ملايين السنين. الفلاسفة يصفون الطبيعة بأن كمالها يكمن في القيمة النفعية التي تنعكس في تركيباتها وأشكالها. ولكن لمَ هذه الألوان؟ هذا الجمال الباهر؟ تلك الأشكال الرائعة؟ للَّونِ والشكل لدى الكائنات الحية غاية، وهي تمايز الأنواع. ولكن لمَ الأحجار؟ أهي فذلكة الطبيعة؟ أمرٌ يمكنها أن تقومَ به خلال أبديتها دائمة التغيير؟ حِسٌّ للجمال؟ حِسٌّ للَّعب؟».

كانت تتحدَّث وكأننا لم نلتقِ منذ ساعةٍ فقط، وكأنه استكمالٌ لحديثٍ خاصٍّ قديمٍ بيننا. أو أن الجوَّ الساحر كان سببَ ذلك؟

ومن ثَمَّ قضتْ عليه.

- «تعالَ لتناول الطعام، إني جائعة...». قالتها بصراحةٍ واختصار. وأنا كنتُ جائعاً أيضاً، لكن الأمرَ بدا لي في تلك اللحظة وكأنه تدنيس.

لا يمكننا طبعاً الوقوف هنا هكذا طوال الليل، ولكن حتى لحظاتٌ كهذه لها سياقٌ طبيعيٌّ يُنهيها تدريجياً.

أضاءت المصباحَ فوقَ الأريكة.

- «غرفة الطعام باردة. أقوم حالياً بتدفئةِ غرفتي فقط».

* «أنتِ تقومين بالتدفئة؟».

- «البوَّاب فعلياً من يقوم بالتدفئة. يسكنُ هنا في القبو. هنالك صعوبةٌ كبيرةٌ في الحصول على الفحم».

مشكلةُ الحصول على الفحم أكبرُ بكثيرٍ ممَّا توحي به نبرةُ صوتِها الصريح. مَن يُمكِنه اليوم في ألمانيا أن يقوم بالتدفئة بواسطة الفحم؟ من أين سيحصل عليه؟

توقَّفتُ عن التحديق في الأحجار الساطعة. التفتُّ وتوقَّفتُ متفاجئاً. كانت قد تأنَّقتْ، سرَّحتْ شَعرها، جدَّدتْ زينتها، وارتدتْ ملابسَ سوداءَ بسيطةً مع بروشٍ على صدرها. وتحت الإضاءة الخافتة، ومع طبقةٍ من مسحوق الزينة، اختفت تقريباً بُقعُ وجهها المُشوَّشة. وضعَت الصحونَ على الطاولة.

- «المكان هنا ليس بالأفضل لتناول العشاء...».

* «لا مشكلة في ذلك».

قفزت إلى المقعد. بالفعل كانت الطاولة مرتفعةً أكثر من اللازم.

احتوت الطاولة على الطيِّبات من الطعام. شرائحُ بروشوتو مُقطَّعةٌ بعناية، ورائحة الهليون المطبوخ على البخار كانت تخرج من آنيةٍ خزفية. وزجاجة فودكا منزوعة السدادة.

«فودكا...». تفاجأتُ بصوتٍ عال. أمسكتُ بالزجاجة وأخذتُ أقرأ لُصاقتَها.

- «أتجيدُ قراءتها؟».

قمتُ بتهجئة الاسم المطبوع على اللصاقة البيضاء البسيطة. لم أفهم كلَّ شيء. كنت قد شربتُ ما هبَّ ودب لكني لم أشرب الفودكا بعد.

«اسكبْ...»، طلبتْ مني. «أُحِبُّ الفودكا...».

تُحِبُّ الفودكا. والفودكا هي ما تحب. قرعنا الكؤوس وشربنا نخبَ الصحَّة. شممتُها وجعلتها تنسابُ على لساني. إنه كحول، كحولٌ نقي، بشعورٍ لاذعٍ في اللسان والأنف. مشروبٌ روحيٌّ ممدَّدٌ بنسبة كحول 40 في المئة.

* «إذا تحبِّين الفودكا...».

ها هي... ها هي الحرب مجدَّداً. فزجاجة فودكا روسيةٌ في هذه المدينة تستدعي الحرب. هي أيضاً أحسَّتْ بوجودها على الطاولة. الحربُ، مزوِّدتُنا بالفودكا الروسية. إنها تنظرُ الآن بقلق. ألم تفعل شيئاً، ما كان ينبغي أن تقوم به؟ أليس هذا الأجنبيُّ في نهاية المطاف روسياً؟

مجدَّداً، انتابني شعور بعدم الارتياح والضيق. عمَّ أبحثُ هنا؟ إنها واضحة، واضحةٌ وشفَّافةٌ كما كانت في البداية، في الشارع، عندما نظرتُ إليها تحت ضوء عود الثقاب، إنها ساقطة جيِّدة، ساقطة العِرق الصافي، لكن ثمَّة خطبٌ ما، أمرٌ ما ليس على ما يرام. لديها كلُّ تلكَ الفودكا؟ لديها كلُّ ذلك البروشوتو، بحيث كان في مقدورها استضافة الرجال الذين كانت تجمعهم من الشارع، بكلِّ هذا الكرم؟ إن لم يكن

هذا صحيحاً، ما هو السبب الذي جعلني أستحقُّ كلَّ هذا الاهتمام؟ إنها لا تعرف حتى ما هو اسمي.

فودكا... بروشوتو... هليون... أحجارٌ نادرة... فحمٌ في القبو... منزلٌ كبير، تقطنه لوحدها.

* «زوجُكِ ينتمي إلى كبار الزعماء، أليس كذلك؟». هجمتُ مباشرةً. «دبلوماسي، أليسَ كذلك؟».

من الواضح تماماً أنها خافت. لقد هزَّها الأمر. فجأةً أصبحتْ في حالة من الترقُّب المتوتِّر. نظرتْ إليَّ بعينٍ متفحِّصةٍ ومرتابة. ومن أنت؟ سألت عيناها. أسئلتكَ ليست من ضمن اللعبة، غيرُ مسموحٍ بها، غير لائقة، إنها خطرة. من أنت؟ من أنت؟

وضعتُ الشوكة في الصحن. وفي هذه اللحظة لم يعد في الإمكان سوى القيام بأمرٍ واحد فقط، وهو المغادرة. مدَّتْ يدها عبر الطاولة، ووضعتْها على يدي، وكأنها أرادتْ أن تمنعني من مغادرة الطاولة.

- «إنه أبي»، قالتْها بأسلوبها الصريح المباشر، «إنه مستشارٌ للسفير في السويد».

هذا فسَّرَ كلَّ شيء تقريباً. ليس كلَّ شيء، وإنما تقريباً.

* «وأنا عنصرٌ من مخابرات الحزب...». حاولتُ أن أمازِحها، لكنها صدَّتني على الفور.

- «هكذا أمور لا تُقال ولا حتى على سبيل المزاح...».

* «أردتُ فقط أن أؤكِّد لكِ ما قرأتُه في عينيكِ».

- «يبدو أنكَ تُجيدُ القراءة جيِّداً. من العيون ومن غيرها».

سكبتُ لها الفودكا وشربنا. وكأنها تخلّصتْ من كُلِّ ما في داخلها، والتفتتْ مجدَّداً إلى الطعام. كنتُ أنظرُ إليها كيفَ كانت تُقلِّبُ في فمها الشرائح الغضَّة من البروشوتو القاسي شبه النيئ، كيف تسحَقُها في أسنانها، كيف تتلذَّذُ بعصارتِها وملوحتِها. كانت تأكلُ بفمها، وأسنانها، وبعينيها... كانت تأكلُ بأسلوبٍ جميل، وبتأنٍّ، وبلذَّة، كما يتلذَّذ المفترِس. كانت تأكلُ بتركيز، ناسيةً كلَّ شيءٍ آخر. كانت رؤيتها وهي تُقطِع شريحةً جديدة، وتأخذها بالشوكة وتحمِلها باتِّجاه فمها وتتلذَّذُ بها، باعثاً على السرور ومشجِّعاً.

* «أيعجبكِ مذاقها؟». سألتها مبتسماً.

«جدَّاً. دائماً و أبداً. ولكن لا يجدر بي ذلك...». مرَّرتْ يدها على خصرها. كان يعجبها... كلُّ شيء كان يعجبها، تناولُ الطعام والشراب والرجال كانوا يعجبونها، إنها متلذِّذة، حيوانٌ متلذِّذ، وقد كانت مجهَّزةً لذلك، يبدو أنها اعتادتْ أخْذَ كلِّ ما يُعجبها، من دون أية حواجز، تعتبره من حقِّها، هي يمكنها، هي يُسمح لها، الحقُّ الوحيد والقانون الوحيد الذي تعترف به هو الأنا. والدها دبلوماسيٌّ في السويد، دبلوماسيٌّ رفيع. يُحضِر لها في الحقيبة الدبلوماسية ما لذَّ وطاب، ممَّا لا يمكن الحصول عليه في ألمانيا. فودكا روسية، بروشوتو إيطالية، هليون دنماركي للمطبخ المنزلي، ومعدنٌ خامٌ سويديٌّ للمطبخ العسكري. ربَّما لا يعرف ما الذي تقوم به هنا. ربَّما كان ليفزع كثيراً، لو أنه ظهر الآن أمام الباب فجأة. مهما كان الأمر فإن ذلك يهدِّد مسيرته المهنية. إنها تُقامِر بكلِّ شيء. لن تكترثَ حتى لوكان على طيَّة سترتي حرف "P" أزرق على خلفيةٍ بيضاء. ربَّما كانت لتختبر إثارةً أكبر. فأبوها

سيخلِّصها من مشكلةٍ كهذه. فهو ليس دبلوماسياً عادياً في دولةٍ بلقانيةٍ بعيدةٍ مغتصبة. إنه دبلوماسيٌّ ألمانيٌّ في السويد. وهذا يعني الفولاذ. الفولاذ الآخذ بالتناقص لدى الألمان، تناقصاً يتناسب طرداً مع مدى حاجتهم المتزايدة إليه. وليس الفولاذ فقط وليست الفودكا فقط.

- «كم عمركَ؟». سألتني.

* «ثلاثة وعشرون».

- «تبدو أنك ابن ثمانية عشر عاماً. لكن ثقتكَ كانت تجعلني أخطئ التقدير».

* «ليست ثقة، هذه وقاحة. لم أجلس مع امرأةٍ مثلك من قبل. ليس لديَّ خِبرةٌ مع النساء. عندما اندلعت الحرب كان عمري ثمانية عشر عاماً. أُقحِمتُ فيها مباشرة منذ البداية تقريباً، ولم تُفلِتْني من قبضتها».

نهضتْ وأحضرتْ القهوة، كانت رائحتها منتشرةً في كامل الغرفة.

- «فلننسَ الحرب...».

لمَ لا؟ فلننسَ. لسنا مضطرِّين إلى الحديث عنها. لسنا مضطرِّين إلى الحديث عن أيِّ شيء. دَعتْني لاحتساء القهوة، يبدو أنها لوحدها، مع أن ذلك غير مفهوم، فيمكن للمرء أن يتخيَّل بأنها من أولئك اللواتي يُطلقنَ عليهن وصفَ الصحبة الجيِّدة. الليالي طويلةٌ وكئيبة، إنها ألمانية، لديها خوفٌ من الحاضر، خوفٌ ممَّا سيأتي. والِدُها دبلوماسيٌّ الآن، ولن يكون غداً، وماذا ستكون عليه الأمور؟ لا أحد يعلم. ولكنه سيكون أمراً فظيعاً، كلُّ شيءٍ سينهار. وهي لديها جسمٌ جميلٌ لا يشبع، يريد أن يعيش، يريد الحياة. وهذا في ألمانيا عام 1944 لم يَعدْ ممكناً،

في ألمانيا 1944 لم يَعدْ في الإمكان القيام بأيِّ شيءٍ تقريباً. لمَ التفكيرُ في الحرب مع البروشوتو الإيطالية والفودكا الروسية في مكانٍ يُدفِّئه الفحم؟ وعندما نكون لوحدنا ويعجبني الفتى... تبدو بريئاً ويافعاً، من الجيِّد أنه مظهرك فقط، هذا يجعل الأمر مثيراً أكثر. يمكنكَ أن تظنَّ بي ما تريد، لا أكترث لذلك، الحياة قصيرة، ولن تكون إلا أقصر. لمَ علينا إذاً أن نُثقل كاهلنا بالحرب، والحماقات وذلك السؤال الشنيع: ماذا سيحدث لاحقاً؟ خُذْ ما هو موجود، ما أعطيكَ إيَّاه وما آخذهُ منكَ أيضاً...

نهضتُ وتقدَّمتُ نحوها وجلستُ على حافَّة الكرسي، مرَّرتُ يدي بلطف مداعباً ذراعيها.

«رائحتكِ جميلة...». مدحتُها. إنه أمرٌ جميلٌ من قِبلها، أنها تكلَّفتْ كلَّ هذا العناء من أجلي، فتأنَّقتْ، وارتدتْ ملابسَ جميلة، أرادتْ أن تبدو فاتنة، أرادتْ أن يُعجَب بها المرء. تعطَّرتْ وهذا كلُّه من الأشياء الثمينة في مثل هذا الوقت.

إذاً أصبح في وسعي الذهاب، أن أغادر. لن أنتظر نباحها وهي تطلب مني المغادرة. توقَّفتُ عن مداعبتها ونهضت.

* «أشكركِ على القهوة».

نظَرَتْ إليَّ متعجِّبة، ما الذي خطر لي؟ لم تستوعِب الأمرَ حتى أخذتُ معطفي. كانت مصدومة، فقدت القدرة على الكلام.

- «ألن تبقى؟». سألتْ متردِّدة.

هززتُ برأسي. كلا، سأغادر. كان البقاء ليكون أمراً جميلاً، لا

يمكن المغادرة بسهولةٍ هكذا، ولكن سيكون ذلك أفضل، سيكون أفضل، أيّتها الساقطة، أعرف عنكِ كلَّ شيءٍ ومن الأفضل ألَّا تعرفي عني شيئاً، سأرحل ولو لمجرَّد كونِ الأمر لم يحدث لكِ من قبل. يمكن لأحدِهم أن يُطرد مرَّة ما.

* «هل ستدعينني أخرج؟».

شحُبَ وجهها. ربَّما اعتقدتْ بأنها مجرَّدُ لعبة، يبدو أنها لم تستطع استيعاب أنه يمكن لي أن أكون جادَّاً في طلبِ ذلك.

- «هل حدث شيء ما؟».

هززتُ برأسي. ما الذي يُفترض به أن يحدث؟

- «هل أسأتُ إليكَ بشيء؟ إن حدث ذلك فلم أكن أقصده».

كلا، هززتُ برأسي. لم تسيئي إليَّ بأيِّ شيء، على الأقل ليس كما تعتقدين.

شحُبَ لونها أكثر.

- «ألم تستمتع معي؟ ألا أعجبك؟».

كلا، هززت برأسي. إنك تروقين لي، لديك جسدٌ رائع.

- «إذاً ماذا؟ أتخافُ من شيءٍ ما؟».

* «ما الذي يُفترض أن أخاف منه؟».

هُرعَتْ نحوي. جذبتْني إليها، التصقتْ بي، أخذتْ تحتكُّ بي وتقبِّلني بشراسة.

- «لن أدعكَ...»، كانت تطلقها من بين القُبلات. «لا يمكنك... لن أدعك... لن أدعك...».

فليذهب من يستطيع. أمَّا أنا فلا أستطيع. قاومت بعدُ لفترةٍ قصيرة، إنها ألمانية، ألمانية، يا حيوان، إنها ألمانية نبيلة، في الصباح ستطردُك من فراشها إلى البرد القارس، ستقولُ لك: لا تجهدْ نفسك بمحاولة التعرُّفِ إليَّ في الشارع. تجاوزْها، يمكنك هزيمتها، أرِها بأنها لا تعني شيئاً بالنسبة إليك، أضفْ إلى ليلتها بعض العلقم، والخوف، أهنها بدموية، انعتها بالعاهرة، ساقطة نبيلة، أتيتُ إليك لاحتساء القهوة، لأنني إنسان في غاية الفضول، لكني سأذهب، متى يحلو لي... كان عليَّ أن أحملَ موساً وأحلق لكِ، كما يفعلُ ذلك البلقاني، عليكِ أن تكوني شاكرةً لأنكِ لم تلقَي مصيراً كهذا...

لم أفعل ولم أقل أيَّ شيءٍ من هذا. كانت تتسلَّل إلى أفكاري حرارة جِسمها الملتصق، ورعشة فمها وبياضها، بياضها الذي رأيته وداعبته، هذه الصورة أصبحت فجأةً أقوى من أيِّ شيءٍ آخر. أحسَّتْ بأنها قد نالتْ مني، صاحتْ بانتصار، أخذتْني من يدي وقالت: تعال... كانت تقودني وتركتُها تفعلُ ذلك، كنتُ مذهولاً من قُربها ورائحتها. اقتادتني عبر الدرج إلى الأعلى، ذهبتُ خلفها مسلوبَ الإرادة، في الواقع، بإرادةٍ وحيدة، أن أحصلَ عليها، وأجرِّدَها من كلِّ شيء، وآخذها... دخلنا إلى غرفةٍ لم تكن كبيرة، لم يكن فيها شيءٌ سوى سريرٍ كبير، وكرسي، ومرآةٍ كبيرةٍ فوق كرسيِّ الزينة، كان المكان دافئاً، فمدفئتان كهربائيتان كانتا تدفِّئان المكان.

التصقتْ بي. يا شرِّير! يا مشاكس! شرِّير، يا شرِّير...

دفعتُها بعيداً عني. أشرتُ بقدمي نحو المدفئة.

* «هل هذا مسموح».

- «كلا. لكني لا أكترث بما هو مسوح وغير مسموح».

* «أنتِ لا تكترثين بالكثير من الأمور، أليسَ كذلك؟».

- «أنا لا أكترثُ بكلِّ شيءٍ تقريباً...».

مجدَّداً أصبحنا قريبين من بعضنا البعض. تبخَّرَ الهذيان وانتابني الغضب، منها ومني ومن اقتيادها لي إلى هنا. رغبتُ في إيذائها، في أن أضربَها، في إهانتها بطريقةٍ ما، بدناءة، بقسوة، بدموية.

* «هذه ورشتك هنا، أليسَ كذلك؟».

لقد فعلَ هذا فِعلُه. رجعت ثلاث خطواتٍ إلى الخلف، وفي عينيها رعبٌ من الكلمات التي سمعتْها والتي لا تريدُ التصديق بأنها سمعتْها، نهضتْ مِثل ممثِّلةٍ في مشهدٍ تراجيديٍّ وتجمَّدتْ.

«اذهب». قالتْها ببرودة. استدرتُ ببطءٍ وحذرٍ وخرجتُ من الغرفة، ببطءٍ وبخطواتٍ حذرةٍ نزلتُ الدرج. في باب المنزل كان هنالك مِفتاح. فتحتُ القفلَ ببطءٍ وخرجتُ إلى الهواء النقي.

أمسكتُ بالبوابة واستعددتُ للقفز. شممتُ رائحة. إنها رائحتها. استدرتُ ببطء. كانت تقفُ خلفي مباشرةً.

«أشعرُ بالبرد...». قالت لي. جذبتها نحوي. كان كاملُ جسدِها يرتجفُ، وأسنانها تصطك.

«اهدئي...»، همستُ لها، «صه... صه... اهدئي».

أسندتُها حتى وصلنا إلى المنزل. أدرتُ المفتاح بنفسي. أسندتُها عبر الدرج حتى وصلنا إلى الغرفة في الأعلى.

رَمَت بنفسها إلى الفراش، سقطتْ عليه كشجرةٍ مقطوعةٍ وبيدين

متباعدتين، وتركتْ إحدى ساقيها متدليةً نحو الأرض، والأخرى ثنتْها عند الركبة وبكتْ، بكتْ بشدَّة، وبعنف، كانت تهتزُّ بأكملها عند كلِّ تنهُّد.

وقفتُ فوقها بلا حيلة. الرجلُ دائماً يكون بلا حيلةٍ عندما تبكي المرأة. بعد قليلٍ حاولتُ تهدئتها، لمستُ كتفها، هزَّتْ به بعنفٍ وبكتٍ بشدَّةٍ أكبر.

لم يكن في وسعي عملُ شيءٍ سوى الانتظار. توقَّف نظري على البياض الناصع لفخذِها المكشوفِ على الفراش. كانت تهتزُّ، لكني كنتُ أفكر في أمورٍ أخرى، ماذا سيحدُث عندما تتوقَّفُ عن البكاء. لم أستطع إبعاد ناظري عن الجزء المكشوفِ من جسدها. كان أكثر إثارة من جسدٍ عارٍ بالكامل. لقد أخذَ ذلك مني وقتاً طويلاً في نهاية الأمر.

«كفى!». صرختُ عليها. نجحَ الأمر. توقَّفتْ عن الاهتزاز، ارتفعتْ قليلاً وكأنها تستفيقُ من شيءٍ ما، وكأنها كانتْ تنتظرُ أمراً.

«كفى...». قلتُها بنبرة معتدلة أكثر. أدارتْ رأسها نحوي، بدتْ وكأنها كانتْ عائدةً من مسافةٍ بعيدةٍ جدَّاً إلى الحاضر. كانت عيناها لا تزالان مليئتين بالدموع. رفعتُ ساقها عن الأرض، أدرتُها بحيث أصبحتْ مستلقيةً على ظهرها وبحافَّة كفِّي مسحتُ دموعها.

- «لماذا قلتَ ذلك؟».

* «لا أدري. إنكِ ألمانية».

- «عرفتُ ذلك».

* «أينما حلَّ أقرانكِ كانوا يقتلون الرجال والنساء والأطفال. أنتِ

ربَّما لا تكترثين بشيء، لكن أنا لا يمكنني ذلك. ولا تظنِّي بأني غريبُ الأطوار. بدلاً مني كان يمكن للحظ السيِّئ أن يصادفكِ اليوم، فهنا في المدينة يعيش رجلٌ من الجبلِ الأسود، وسيمٌ، بلقانيٌّ مثير، يجيدُ التعامُلَ مع النساء ببراعة. كنتِ لتنتظرين مع عينين مغمضتين ليقوم عندها بإخراج موس. وكان ليحلق لكِ بقسوة».

- «كلا!».

* «كان ليفعل ذلك، ثقي بي».

- «لكن لماذا؟ لماذا؟».

* «من يدري ماذا فعلوا به. ربَّما... ربَّما لا يستطيع إلا بهذه الطريقة. ربما سحقوا له عضوه. لستُ متأكِّداً، لكن هذا ممكن».

- «لماذا يقومون بذلك؟ لماذا؟».

* «لا تسأليني. أنتِ الألمانية».

جلستْ، وضمَّتْ ركبتيها نحو ذقنها. نظرتْ إلى نهاية ساقيها ذات القوامِ الجميل. فكِّري، فكِّري، لن تصلي إلى شيء. كان عليكم جميعاً فِعلُ ذلكَ منذ البداية.

* «مِن السهلِ قولُ ذلك، لا تتحدَّثْ عن الحرب... فلننسَ أمرها. لنأكلْ ونشرب الفودكا الروسية ولنمارس الحب ولا نكترثَ بأيِّ شيءٍ آخر. ربَّما في مقدوركِ أنتَ القيامُ بذلك. لكن أنا لا».

- «ما الذي تظنُه بي الآن؟».

* «لا أعرف. أمورٌ عديدة ليست متوافقة. لا أعرف».

- «لكنها أفكارٌ يملؤها الازدراء».

* «كلا، بل الإطراء».

- «يمكنني أن أنطُقها عوضاً عنك. أنت مِنزعجٌ من كيفية وصولكَ إلى هنا. شارعٌ مظلم، خطواتٌ نسائية، إشعال عود ثقاب، دعوةٌ لاحتساء القهوة... وعلمت فوراً ما هي طبيعة الأمر».

* «اعتقدتُ بأني كنتُ أعرِفُ ذلك معرفةً دقيقة».

- «لكن لاحقاً لم يكن الأمر بهذه الدقَّة. لم تكن أنتَ تتفحَّصني فحسب، بل أنا أيضاً كنتُ أتفحَّصكَ. الكثيرُ من الأمورِ لم تكن متطابقةً مع ما يُمكن أن نسمِّيه تجربتكَ. منزلٌ كبيرٌ فارغ. امرأةٌ وحيدة. أين الرجل؟ ذهب للحرب. رقيبٌ ما. بل أعلى. ربَّما حيوانٌ كبير. زعيمٌ نازي. لقد نطقتَ هذه الكلمة بنفسك. ولكن أين صورة هتلر؟ أين كفاحي؟ وفي الخزانةِ التي يجبُ أن تحتوي على أوسمة استحقاقٍ هنالك أحجارٌ ملونة. حتى الأثاث ليس متوافقاً. لا يوجد جنديٌّ في الخدمةِ لن يحيطَ نفسهُ بأثاثٍ كهذا في مكتبه. في قاعته المثالية إن أردت. ليسَ إذاً بجندي. ربَّما عجوزٌ متقاعدٌ خَرِفٌ متهالك، ربَّما يعالجُ شيخوختهُ في منتجعٍ صحِّيٍّ ما، وهي تتمتَّع في أثناء ذلك، تجمعُ الرجال من الشارع، كلَّما كان متَّسخاً أكثر كلَّما كان أفضل، تضاجع الجنود والشرطة ولن تفرِّط ببولنديٍّ حتى، ربَّما يُمثِّل هذا لها تجربةً استثنائيةً بالنظرِ إلى القانون، الذي يعاقِبُ بالإعدام على جريمةِ إقامةِ علاقةٍ مع بولندي. أليس كذلك؟».

* «تماماً».

- «في يومٍ ما في شارعٍ مظلمٍ كان يمشي أجنبيٌّ ويصفِّرُ لحناً ما.

ويسمعُ على الطرفِ الآخر وقعَ خطواتِ امرأةٍ لا يراها. يتوقَّف. المرأة التي لا يراها تسأله عن اللحن الذي كان يصفِّره. يسخر منها، فهو يعرف تماماً هذه الحركات. إنها بائعةُ هوى. تطلبُ منه سيجارة. بكلٍّ تأكيد؛ إنها بائعةُ هوى، لكنه لا يعرف إن كانت كبيرةً في العمر أم شابة، إن كانت جميلة، أم قبيحة. أشعَلَ لها السيجارة. أشعلَها بحركةٍ تسمحُ له برؤية وجهها. أليسَ كذلك؟».

* «ليسَ تماماً. في الواقع مختلفة كلياً. توقَّفتُ كي تمرِّي حتى لا تزعجيني. وأردتُ رؤيتكِ لأن صوتُكِ من طبقة الألتو أعجبني. لم أكن أفكِّر أبداً في الذهاب معكِ، لم أكن أرغَبُ في صحبة امرأة».

• – «انتظرْ. أريدُ المتابعة. يكتشفُ أنها ليستْ بائعة هوى، يمكن معرفة ذلك فوراً. إن لم تكن بائعة هوى، إذا هي أرملة حرب، أو زوجة ضابط، على الأغلب ضابط وليس صف ضابط. تدعوه لاحتساء القهوة. كلُّ شيءٍ واضح. نساءٌ من مِثل هذه النوعية لا يُمكنهنَّ قول ما يُردنَ مباشرة. غالباً يُطلقنَ على ذلك تسمية: دعوة لاحتساء القهوة».

* «هل كنتِ لتستمرِّي في السير خلفي لو أني لم أتوقَّف بالصدفة أمام هذا المنزل؟».

– «كنتُ لأستمرَّ في السير خلفكِ، أو ربَّما كنتُ لأنادي عليكِ. سمعتُ على الكورنيش بأن أحداً ما يسير وهو يصفِّر لحناً غريباً. رجل... كنتُ أريدُ رجلاً. أردتُ رجلاً للفراش ولم يكن هنالك في الأرجاء سواك. أسرعتُ الخطى. تفاجأت قليلاً بأنكَ أجنبيٌّ، لكن سرعان ما تجاوزتُ الأمر، وعلى العكسِ كنتُ سعيدةً لذلك. إلى الآن كلُّ شيءٍ دقيق».

* «أين تبدأ التعقيداتُ بالنسبةِ إليك؟».

- «سأخبركَ بذلك. سأخبركَ بكلِّ شيء، لكن ليس بعد. أها، سيقول في نفسه ذلك الرجل: ألمانية... وليست مجرَّد ألمانية، إنها تجربته أيضاً وفيها ما هو بين السطور. إذاً ألمانية. إنها جميلة. والآن سأكمل فيما قمت بتصويبي. لمَ لا؟ لاحتساء القهوة، قهوة حبيبات أصلية. لمَ لا؟ أعطني سيجارة. لقد نفدتْ مني. لا أدخِّن كثيراً، لكنها نفدتْ مني...».

أعطيتُها سيجارة. وأنا أشعلتُ واحدة بدوري.

- «في المنزل، يكتشفُ بأن تلكَ الألمانية شَبِقةٌ وجشعة. لا تمانع ولا حتى ظاهرياً. تدعه يجرِّدها من كلِّ ملابسها وتصرخ خلال ذلك وقد اعترتْها السعادة. وتجيد الأمر. إنها ماهرةٌ في مثل تلك الأمور، لديها خبرةٌ هذه الألمانية الجشعة. تظنُّ بأنها تستطيع القيام بكلِّ شيءٍ ومسموحٌ لها بأيِّ شيء، تشير بإصبعها لأجنبي، قد انتُزِعَ من بيئته، ليقفز نحوها مسرعاً كجروٍ صغير. لكن أنا سأهينها، سأهينها بطريقةٍ لن تنساها أبداً... لقد نجحت. أهنتَني. لن أنسى ذلك أبداً. اخرسْ لم أنته بعد! عندما أرغب في ألمانية، لدي الحقُّ في ذلك، يجب عليها القبول بذلك. حتى في مثل هذه الحالة ممارسة الحب معها ليست طاهرةً، إنها من الموبقات، لكن هذه هي الطبيعة، لا يمكن خداعها، وإنه نوعٌ من الانتصار، نوعٌ من الرضا والارتياح، برؤية ألمانية مقهورة، بإهانتها والمغادرة كطاووسٍ ومنتصر. أن تقهر ألمانية هو أيضاً أمر يَبعثُ على الارتياح. يشعر المرء فوراً بأنه ذو قيمةٍ أعلى. في مكانٍ ما على الجبهة

يتجمَّد ألمانيٌّ ويكتب رسائلَ يملؤها الاشتياق. طبعاً يغتصب النساء الأوكرانيات، والصربيات، والرومانيات، والبولنديات، والتشيكيات. طبعاً يرتاد بيوت الدعارة الفرنسية والهولندية والبلجيكية. لكنه ألماني. وبالنسبة إلى كلِّ ألمانيٍّ لا يوجد ما يمكن مقارنته بالديار. الديار الجميلة! في يوم ما سيتلقَّى خبراً بأنهم قطعوا رأس زوجته لممارستها الحبَّ مع بولندي. أليس كذلك؟».

* «تقريباً».

- «كان هذا مختلفاً أيضاً. الانحطاط الألمانيُّ تخطَّى حدود المعقول، عندما تنحدر امرأةٌ كهذه إلى مستوى كهذا. عندما تنام معه ومن ثمَّ تسأله عن اسمه. بالطبع لن يخبرها. لماذا؟ بمثل هذا العمق وبمستوى كهذا لن يستطيعوا أن يربحوا الحرب، إنه أمرٌ يبعث على السعادة، يحتاج فقط إلى أن نخلطَ بعضاً من العلقم في الوعاء الألماني. إلى الآن أتمنى بأنه مطابق».

لقد أصابتني بحيرة. لم أكن مرتاحاً، شيءٌ ما كان يندفع إلى حلقي خلال تحليلها الرهيب. مطابق، مطابقٌ بشدَّة.

- «مطابق أليس كذلك؟ إذا يمكنني الانتقال إلى مواضع الاختلاف. ماذا تعتقد، هل كانت لتبقى الحرب قائمة، لولا ملايين الأجانب الذين ينتصرون يومياً في جبهة الفراش الألماني؟ لو لم يكونوا ينامون مع الألمانيات المهجورات، لو كنَّ يعتمدنَ فقط على بقايا الرجال الألمان المعاقين، الذين ليسوا مناسبين للجبهة، أو على الأعداد المتناقصة باطِّرادٍ لأولئك الذين لا يمكن الاستغناء عنهم؟ هل كانت لتبقى

الحرب قائمةً اليوم وبالتحديد في خريف عام أربعة وأربعين؟ أتعتقد بأنها كانت لتكون ممكنة؟».

* «لا أعرف. لم أفكِّرْ في الأمر».

- «هذه هي انتصاراتك. هكذا تبدو في الحقيقة عمليَّتكُم لتوهين نفسية العمق الألماني. كبرياؤكم. قهركم للمرأة الألمانية. هذا ما حقَّقتموه. لا ألومكم على ذلك. كلٌّ هذا جيِّدٌ ومُحِقّ. ستنتهي الحرب قريباً. والعديد سيعودون إلى ديارهم. أنتم الرجال تحبُّون التباهي بانتصاراتكم لدى النساء. ولكن هناك في الديار لن تتجرَّؤوا حتى أمام الرجال على التفوُّه بكلمةٍ واحدةٍ عمَّا كنتم تفعلون، فأنا في نهاية الأمر أبقى ألمانية».

* «لماذا تخبرينني بكل هذا؟».

- «لا أتحدَّث إليك بل إلى نفسي. لقد توصَّلتُ إلى أمرٍ ما اليوم. عرضتُ نفسي عليك. لم أكن أئنُّ. كلا، لا، لا تفعل، لا يمكنك. لقد تفاجأتُ قليلاً بأنك أجنبيٌّ ولكن لبرهة، ثم كنت سعيدةً بذلك. كنت لأذهبَ اليوم مع أيِّ رجلٍ كان ومهما كان. لسببٍ ما كنتُ سعيدة، بأن الأوَّل المناسب، الوحيد الذي قابلته كان أجنبياً. كان يجب أن يحدث ذلك اليوم».

* «لماذا اليوم بالتحديد؟».

- «اليوم بلغتُ الخامسة والعشرين عاماً. وحيدة. والدي بعيد. أخي على الجبهة. لن أعيش حتى السادسة والعشرين. سيسكن في هذه الفيلا عشرون جندياً شريراً. أحافظ عليها من أجلهم مرتَّبةً ونظيفة.

اليوم أصبح عمري خمسة وعشرين سنةً ولم أكن أرغب في أن أكون وحيدةً، وأعلم بأن لديَّ ما أقدِّمه، ورغبتُ بشدَّةٍ في بعض الدفء البشري إضافةً إلى دفئي. أردتُ أن أنسى الحرب. بالنسبة إليَّ كان يعني ذلك أن أنسى أنني ألمانية. أردتُ أن ينسى كلانا أنني ألمانية. ربَّما كنتُ حمقاء، ربَّما هذا غير ممكن».

طوال الوقت كانت تسند ذقنها على ركبتيها. نهضت الآن.

- «إنكَ أحمق. هذه الشبقة، هذه المهووسة، هذه الجشعة لم تكن منذ عامين مع رجلٍ في الفراش. هذا ما أردتُ إخباركَ به. لذلك كنتُ أتوسَّل إليكَ أن تبقى. لذلك لحقتُ بكَ إلى البوَّابة. تعال سأفتح لك البوابة حتى لا تُضطرَّ إلى القفز...».

ذهبتْ أمامي. أمسكتْ لي بالباب مشرعاً. فتحتُ البوابة وخرجتُ إلى الشارع من دون أن أنبس ببنت شفة، إلى ليلةٍ من ليالي تشرين الثاني الباردة. بعد عدَّة خطواتٍ التفتُّ، لكنني لم أرَ سوى الظلام. كان في داخلي ارتباكٌ رهيب. ضَمُرَ فمي وكأنني قد تذوَّقت طعماً مُرَّاً. ذهبتُ إلى "أتلانتيك"، وحصلتُ على زجاجة من البالينكا الكريهة بعد استجداء الساقي. شربتها مع بوريس وفتاته الفرنسية الجديدة. أصابتني بتوعُّك.

- 6 -

- «أهذا كل شيء؟».

* «بالطبع لا، يا حبيبتي الصغيرة. لو كان هذا كلَّ شيء، لكان لا شيء. لم أستطع العثور على ذلك المنزل البارحة مساء، لكن هذا حصل معي للمرَّة الثانية. لم أعثر عليه حينها أيضاً. كان الظلام مخيِّماً ذلك المساء، لم أستطع ملاحظة أو تذكُّر أيِّ شيء، وتلك الفيلات في الحيِّ الحدائقي، على الرغم من تنوُّع نمطها، كانت جميعها تبدو متشابهةً بطريقةٍ أو بأخرى. اعتقدت بأني سأجدها في النهار، لكن كان يمكن أن تكون أية واحدةٍ منها، ولم أكن حتى أعرف ما هو اسمها.

كنتُ بسببِ ذلك كُلِّه خارجاً عن طوري. تشارلي سألني عدَّة مرَّات عمَّا أصابني. استشعرَ ما حلَّ بي».

«لم يكن ينقصكَ سوى أن تحبَّ ألمانيةً في نهاية المطاف، أيُّها الأخرق!». كان يسخر مني.

رِحتُ أتجوَّل هنالك كلَّ مساءٍ وكلِّي أملٌ بأن ألتقي بها. كان يجبُ أن يبدو ذلك مجرَّد مصادفة. وأحياناً كنتُ أصفِّر متظاهراً بأنه مصادفةٌ أيضاً.

كنتُ عائداً ذلكَ المساء من الضفَّة الأخرى، وأنا أشتُمُ نفسي: كم أنا ثورٌ رومنسي مضحك... وغيرها من الحيوانات!. كان ضبابٌ كثيفٌ قد أخذَ يخيِّم في الأرجاء مع رطوبةٍ عالية، إنه وقتٌ مثاليٌّ لكي يَنفُق المرء. كانت تلتصق أوراق الكستناء المبلَّلة على حذائي.

لَمحتُها عندما كنتُ على مسافةِ خطوةٍ واحدةٍ منها. كانت تقفُ بالقربِ من البوَّابة المفتوحة. قالت: تعال. لا أدري إن كانت تنتظرني، من الممكن أن يبدو كذلك، لكنها لم تتحدَّث عن الأمر ولو بكلمةٍ واحدةٍ أبداً، وأنا لم تكن لديَّ الشجاعة الكافية لسؤالها. ربَّما كانت مجرَّدَ مصادفةٍ غبية. لا أدري.

- «أتظنُ بأنها كانَت على حق؟»

* «بماذا؟».

- «بحديثها عن الأجانب والنساء الألمانيات».

* «لا أعرف. ربَّما لا. إنها كانت تفكِّرُ بكاملِ جسدها. ربَّما كانت تبالغُ في ذلك. ولكن إلى اليوم أعتقدُ بأن كلامها كان يحملُ قدراً من الصواب».

«هل أعِدُّ القهوة؟». ابتسمتْ حبيبتي الصغيرة بخبث.

أعدَّت القهوة وجلستْ بقربي وأمسكتْني من يدي.

- «تكلَّمْ».

* «ألا تريدين أن تنامي؟».

- «أتريدُ أنت؟».

ضحكنا بصوتٍ عالٍ. أصبح كلُّ ما نتفوَّه به فيما بيننا يحتمل معنىً آخر.

- «تكلَّمْ».

عِشتُ معها وفقدتُ تشارلي. تؤثِّرُ المرأة دائماً في صداقةِ الرجال. لا يمكن أن يكون لديكِ وقتٌ لكليهما. كنتُ نادراً ما ألتقي به. لم يكن يسألني عن أيِّ شيء، لكن عَرفتُ أنه كان غاضباً مني. اللعبُ مع ألمانيةٍ شيءٌ، والعيش مع ألمانيةٍ شيءٌ آخر. أن تُذهِبَ عقلَ الألمانية أمرٌ جيِّد، أن تُذهِبَ عقلها ثمَّ تسخر منها؛ لكن أن تَدعها تُذهِبُ عقلكَ ليس بالأمر الجيِّد على الإطلاق.

طبعاً لم يكن هنالكَ مجالٌ لديَّ لأن يُذهَبَ عقلي. عِشتُ معها، كنت سعيداً معها. كنتُ أُقنعُ نفسي بأنها البيولوجيا. لكلِّ أمرٍ نهاية، حتى هذا، سأقول لها وداعاً لويزا كنتُ سعيداً معكِ، لكن لن ينفع الأمر، إنكِ ألمانية... وهي أيضاً لم تكن تعيشُ الأوهام.

كنتُ لا أزالُ أسكنُ عندَ تشارلي لكني لم أكن أنام هناك. كنتُ أوزِّعُ التبغ عندما كانت هنالكَ حاجةٌ إلى ذلك، نتقاسمُ المال، نجلسُ معاً، نشربُ شيئاً ما، لكن لم يعد الأمر كما كان من قبل. الثقة القديمة، التي لا يمكن لها أن تكون إلا بين الرجال، والمرتبطة بوحدة المصير والمخاطر، اختفت. لم يسأل عن لويزا أبداً ولم أكن أحدِّثهُ عنها أبداً. عندما لا يخبر الرجلُ صديقَهُ عن المرأة التي يعيشُ معها، يعني أن الأمور ليست على ما يُرام بينهما. تشارلي كان يرى في ذلك خيانةً من صديق. فعندما كنتُ في الحضيض كان يناسبني، أما الآن فقد تخلَّيتُ عنه.

كنتُ سعيداً مع لويزا. لم نكن نتظاهر بشيء، لم يكن لدينا ما يَعدُ أحدُنا به الآخر. كانت سعيدةً عندما كنتُ ألاطفها وأخبرها كم هي جميلة، لم نكن نتحدَّث عن الحب، لم نكن نضع أي مخطَّطات مستقبلية، فقد كانت واضحةً لكلانا. أرادَت أن أنتقل للعيش معها بشكلٍ كامل، لكني رفضتُ ذلك.

مع معرفتي بها أكثر، اضطررتُ إلى تغيير نظرتي الأولية عنها بالكامل. كانت لويزا ناعمةً ورقيقةً وحسَّاسة. وعلى الرغم من الإمكانات والميزات التي كانت لديها، فإن حياتها لم تكن سهلةً أبداً. ألمانيا كانت سجناً، حتى بالنسبة إلى الألمان كانت عبارةً عن سجنٍ مؤبد. لم يكن هنالكَ أيُّ مهرب، ولا مستقبل. برأيي يا حبيبتي الصغيرة، إن الألمان لم يتمكَّنوا إلى يومنا هذا من التخلُّصِ من هذا الشعور. فكلُّ من في مقدوره يهرب من هنا، ولو لقضاء أسبوعين أو ثلاثة من إجازاته، الألمان ربَّما هم الشعب الأكثر سفراً في العالم، يغادرون ألمانيا بالملايين، متَّجهين إلى أوروبا وإفريقيا، إلى الشمال والجنوب، إلى الشرق والغرب. عمَّ يبحثون؟ ما الذي ينقصهم في ديارهم؟ لديهم جبال ولديهم البحر، طبعاً لا يمكن مقارنته بالريفييرا الفرنسية ولا بالأدرياتيكي ولكنه بحر، بحرٌ مماثلٌ لذلك الموجود في "اسخيفينينغن"[1]، حيث يحتلُّ الألمان كلَّ الفنادق وكلَّ الشواطئ.

بالطبعِ، سلوكها في ذلك المساء الذي تعرَّفنا فيه إلى بعضنا البعض لم يكن اعتيادياً. لكن ما الأمر المختلف الذي كان في إمكاني أن أظنه

1- Scheveningen: شاطئ رملي في هاغ في هولندا من المناطق السياحية المشهورة في بحر الشمال. (م).

عنها؟ في النهاية لم يكن الأمر غير اعتياديٍّ إلى هذه الدرجة، لم تختلف عن الأخريات في شيء، أرادت رجلاً، كانَت تشعرُ بالوحشة لوحدها، لم يكن الأمر يُطاق، وقد كانت على حق، لن يطول الأمر كثيراً وسيأتي الجنودُ الأشرار، سيصبحُ كلُّ شيءٍ معقَّداً ومتقلِّباً. لكن تلكَ الصراحة، التي سيطرتْ بها عليَّ، تلك الصراحة التي أثارتْ سخطي عليها بداية الأمر، كانت في الواقع فعلَ تمرُّدٍ وبحثٍ عن طريقٍ للهروب من اليأس الذي تعيش فيه. أرادت رجلاً، لم تعد تقوى على تحمُّلِ ذلك. أرادته لليلةٍ واحدة، أرادتْ أن تحتفل هكذا بيوبيلها الفضِّي، محتجَّةً على سنواتِ الضياع التي تَمضي بانتظارِ الدمار الذي سيحلُّ حتماً ولا سبيلَ إلى تجنُّبه أبداً.

كان لديها ما تقدِّمه، وقد أجادتْ تقديمه. وأحبَّ جسدانا بعضهما البعض، كانا يتوقان إلى بعضهما البعض على الرغم من الفوارق الكبيرة بيننا التي لا يمكنُ تجاوزها.

إنها المرَّة الأولى التي أتحدَّثُ فيها عنها لأحدٍ ما، يا حبيبتي الصغيرة، وذلك فقط لكوني في هذه المدينة. لم أكن أتحدَّثُ عنها لأحد، ليس لأن هنالك ما أخجل منه كموضوع العلاقة مع ألمانيةٍ مثلاً، ولكن على الأغلب لأن فُراقنا ترك في نفسي أثراً أعمق ممَّا كنت قادراً على الاعتراف به لدى تفكيري فيه لأوَّل مرَّةٍ قبل أن يحدث. بالطبع كنتُ لأقول لها في آخر يومٍ من الحرب: مرحباً، كان الأمر جيِّداً معك. هكذا كان على الأمر أن يتم، بشكلٍ طبيعي، وليس بتدخُّلٍ عنيفٍ لقوى أخرى، أنهتْ فجأةً ما كان يجب أن لا ينتهي بعد. لم أكن أقصد بذلك الغيستابو، بل القنابل، فحتى يومنا هذا لم أكن قد عرفتُ ما حلَّ بها في الواقع.

لم يكن أمراً مميَّزاً يا حبيبتي الصغيرة، كانتِ الحربُ قائمةً وتطحن مصائر ملايين البشر. لكن أن تعرف بأنها تطحن ملايين المصائر شيءٌ وأن تَعلقَ في براثنها الحديدية شيءٌ آخر تماماً. عندما كان يقتادني عنصر الغيساتبو ذاك، كانت هذه هي النهاية. انتهى كلُّ شيء. ولكنها كانت نهايتي وليس نهايتها. عندما كان يقتادني كنتُ أفكِّر في كلِّ شيءٍ آخر عداها. كنتُ أُقنِعُ نفسي: لقد قامرت، وخسرت، فعليَّ أن أدفع الثمن، كان لا بدَّ من حدوث ذلك يوماً ما. لم أتحدَّثْ عن ذلك أبداً مع تشارلي، كنا وقحين ومتغطرسين، كنا نتظاهر بأننا ذكيَّان وماكران لا يمكن أن يحصل لنا شيء، ولكن ربَّما هو أيضاً كان يشعر في مكانٍ ما في أعماقه برعشة الخوف المكبوت. كنا نبيعُ التبغَ المسروق مدركين بأننا سندفع ثمن ذلك يوماً ما. لكن حدثَ أمرٌ مختلفٌ كُلِّياً. في الواقع كان عنصر الغيستابو هذا بمثابة طوق النجاة بالنسبة إليَّ. فتدخّلهُ أدى لنهايتها وليس نهايتي. هذا ما كنت أعتقِدُه حتى اليوم على الأقل. يجب أن أعرف ماذا حدث يا حبيبتي الصغيرة. حضرَ وقتها عنصران أحدهما اقتادني إلى الخارج، لم أفكِّر في الأمر حنيها كثيراً، لكنني أنظر للأمر نظرةً مختلفةً الآن. أعتقد بأنهم أتوا من أجلها وليس من أجلي، ربَّما لم يعرفوا عن التبغ مطلقاً، لسببٍ ما لم يكونوا يريدون اقتيادنا معاً. لا بدَّ من أن العنصر الآخر خرج معها خلفنا مباشرة، فكلُّ من كان في "أتلانتيك" لقي مصرعه. يجب أن أتحقَّق من الأمر يا حبيبتي الصغيرة. أريدُ معرفة ما الذي حصل.

عندما كان يقتادني، كنتُ أفكِّرُ في كلِّ شيءٍ آخر سواها. ولكن فجأةً تغيَّرَ كل شيء، أصبحتُ حُرّاً، وأوَّلُ فكرةٍ كانت عنها. فكرةٌ

فقط، فلم يكن في الإمكان القيام بأيٍّ شيء على الإطلاق. ربَّما كنتُ ألقيتُ بنفسي إلى النار، لو كنتُ أعلمُ بأنه في وسعي إنقاذها. لكن في تلك اللحظة لم يكن هنالك ما يمكن إنقاذه. عندها، وربَّما عندها فقط يا حبيبتي الصغيرة، أدركتُ بأني فقدتُ شيئاً ما، شيئاً لن أعثرَ عليه مجدَّداً أبداً.

كنا سعيدين سويَّةً يا حبيبتي الصغيرة. كان جسدانا يحبَّان بعضهما البعض، يلتهمان بعضهما البعض، يرتعشان شوقاً ولهفةً إلى بعضهما، كانا يريدان أن يكونا معاً مراراً وتكراراً. كم من مرَّةٍ قمتُ بتقبيلها بأكملها من قدميها حتى جبينها! كم من مرَّةٍ عضَّتني بأكملي! لكنَّ الليالي ليست مجرَّد تماهٍ واحتكاكٍ وارتعاش جسدين عاريين. إن كانت كذلك فحسب فلا قيمة لها، ولن يبقى منها سوى حزنٍ صباحي. ليالينا لم تكن كذلك. لم نتحدَّثْ عن الحب، لم نَعِدْ بعضنا البعض بأيٍّ شيء، كنتُ أسخر من تشارلي عندما كان يغضب ويقول إنني أتحامق مع ألمانية. لم نقلها لبعضنا، لا أنا لها ولا هي لي، ولكن كنا عاشقَين، من يدري إن كان الفراقُ سيكونُ سهلاً كما كنتُ أعتقدُ حينها عندما أخذت الحربُ في الانحسار وأصبح على المرء أن يفكِّر ماذا سيكون وماذا سيحلُّ بالعالم وبكلِّ شيءٍ آخر.

كانت تخبرني: «أبي دبلوماسي. دبلوماسي من المدرسة القديمة، رسمياً هو مستشارُ السفير في استوكهولم، أنت أجنبيٌّ، لا ينبغي أن أخبركَ بذلك، ولكن لا أريد إخفاء أيِّ شيءٍ عنك. لأبي مكانةٌ خاصة، إنه واحدٌ من الألمان القلَّة الذين لم يخسروا بعد كلَّ الاحترام في العالم، فقط لذلك ما زالوا يحتفظون به. يحتاجون إليه، يحتاجون إلى معارفه

واتِّصالاته، من يدري ماذا يمكن أن يحدث، وعندها من الممكن أن تكون السويد ملائمةً لأمورٍ مختلفة.

أبي لم يعد إلى المنزل منذ زمنٍ بعيد، أعتقد بأنه يخافُ القدومَ إلى برلين منذ محاولة الاغتيال تلك، لا أعتقدُ بأنه متورِّطٌ فيها، لكنَّ انتقامهم أعمى، يمكن أن يسعى أحدهم إلى تصفية حساباته الشخصية معه، وينقضُّوا عليه. في بادئ الأمر كان كثيراً ما يتردَّد على المنزل، حاملاً معه مختلف الطيِّبات، لكنَّ الأمر انتهى الآن، فحجرة المؤن أصبحت فارغةً تقريباً. أريدُك أن تعرف ذلك. من الغريب أنهم ما يزالون يتحمَّلونه، فبعد محاولة الاغتيال قاموا باستبدال السلك الدبلوماسي كلِّه تقريباً، لا بدَّ من أنهم يحسبون له ألف حساب كونهم ما زالوا يتحمَّلونه هناك. إنهُ في قبضتهم، هم يدركون ذلك وهو أيضاً، أنا موجودةٌ هنا وأخي على الجبهة، أبي يحبُّني كثيراً، أنا كلُّ شيءٍ بالنسبة إليه، وأبي يعلم تماماً ما في وسعهم القيام به. لقد حاولَ مرَّتين إخراجي من هنا، لكنهم لم يسمحوا لي أن أذهب إليه في السويد. أشعرُ بتأنيبِ الضمير لذلك. كلُّ هذه الملايين التي ماتتْ وستموت في هذه الحرب، وأنا أحبُّ نفسي، لكني مدركة، بأني لا شيء، مع ذلك يوماً ما ستسقطُ القنابلُ على هذه المدينة، أعرف بأنها ستسقط، وفي حال نجوت سيأتي الجنودُ الأشرار القذرون الجائعون، لا أعيش في الوهم، أعرف بأنهم سيأتون وهذا أمرٌ جيِّد. ليستْ لحياتي قيمةٌ أكبر من أية حياةٍ أخرى، الحيوات في الحرب؛ إنها أرخصُ الموجود، ولكن أبي يحبُّني، وليس في مقدوره التصرُّف كما يريد، وأنا أعرف بأنه يريد، لقد لمَّح لي عدَّة مرَّاتٍ بأنه أراد. لكنه يخاف ممَّا قد يحصل لي. هذا ما أعرفه، لو كنتُ هنالك معه

في استوكهولم، لما كان موجوداً في السفارة الألمانية. أعرفُ أبي، أعرفُ كيف يفكِّر. عندما كان هنا آخر مرَّة، كنتُ أريد أن أقول له كلَّ شيء، لا تهتمَّ بشأني يا أبي، افعل ما يجب عليك فعله، لكنه أوقفني قبل أن أتفوَّه بأيِّ شيء، ربما كان يدرك نواياي، وأظنُّ بأن الأمرَ قد تأخَّر، إن كان ينوي القيام بشيءٍ كهذا كان عليه أن يفعله منذ البداية، الآن لم يعد في الإمكان تغيير أو إصلاح أيِّ شيء. لستُ أنا الوحيدة. فأبي ألماني، والألمان لديهم حِسٌّ غريبٌ مريضٌ بالمسؤولية والشرف، إنهم يعرفون ذلك جيِّداً، فقد أخذوه في الحسبان ضمن خططهم، وتمكَّنوا بإتقان من انتزاع الإنسانية من شعبٍ بأكمله، لا يجب أن يتجرَّأ أحدٌ ما على التصرُّفِ بناءً على أفكاره ومشاعره، وفعلاً لم يتجرَّأْ أحدٌ على القيام بذلك. حِسُّنا بالشرفِ والمسؤولية ساعدهم في جرِّ الشعب بأكمله إلى الكارثة، إلى التهلكة التي لن نتمكَّن من التعافي منها أبداً. أبي ألمانيٌّ أيضاً، يرى إلى أين تتداعى الأمور، لكنه يبقى ألمانياً. في نهاية المطاف إنه أمرٌ عادل، بعد هذه الحرب لا يجب أن يكون لدى أيِّ ألماني عذرٌ أو حجَّة. جمعينا نتحمَّل مسؤولية ذلك. منذ ذلك الوقت الذي أعلن فيه غوبلز الحرب الشاملة أصبحنا جميعنا نتحمَّل المسؤولية».

كانت تخبرني: «في إحدى المرَّات كنتُ أسير على الكورنيش، كان مساءً غريباً، ليلةً غريبة، مليئةً بالحزن الخريفي، كانت قد تساقطتْ من الأشجار أولى الأوراق وانتشرتْ رائحةُ تعفُّنها، كنتُ مهجورةً ووحيدةً مع شعورٍ كئيبٍ بعذوبة الخريف بدأ يتسلَّل إليَّ، كنتُ أتوق إلى الحصول على شيءٍ ما، مهما يكن، للخصول على أيِّ كان، مهمن كان، ربَّما تعرف ذلك، يشعر المرء بالتعب، لكنه تعبٌ لطيف.

كان هنالك شخصٌ ما أمامي. وكان المساء بلا نجوم، غائماً وقاتماً، ولم يكن في وسعي رؤية شيء، ولا حتى ظِلٍّ واحد، ولكن كان هنالك شخصٌ ما أمامي، أحدٌ ما يُصفِّر لحناً غريباً يتخلَّل المرء... مليئاً بالأسى وبرغبةٍ مشابهة للتي كنتُ أشعرُ بها أنا. جذبني ذلك الشخص الذي أمامي، كان رجلاً ومن المؤكِّد أنه وحيدٌ ويبحث عن شيءٍ ما، جذبني محوِّلاً كآبتي غير المعروفة إلى شيءٍ محدَّدٍ تماماً. كنتُ أسأل نفسي، ما الغاية من جسمي الجميل المرن، من وركي؟ نهداي مشدودان بلا فائدة، وحرارتي لا تُدفِّئ أحداً، وشعري لا يداعبه أحد، وفمي لا يقبِّله أحد... لن يطول وصول القنابل ولا قدوم الجنود. الجنود الأشرار، أمريكيون أو روس، سيأتون ولن يقوموا بالسؤال. سيكونون قذرين وجائعين، سيكونون منتصرين وجامحين. سيستولون على المنزل، وفي الليل وهم ثملون سيخلعون باب غرفة نومي... هذا الذي ينتظرني. ربَّما يشعرُ بالوحدة مثلي، وربَّما هو شابٌّ جميلٌ ومعافى... فلم يبقَ للناس هنا سوى سعادةٍ واحدةٍ فقط، وإن لم تكن سعادةً فهي نسيانٌ على الأقل... بلغتُ اليوم الخامسة والعشرين من عمري وكلُّ ساعة وكلُّ يومْ لا يُستغَلُّ هو خسارة... فوجئتُ قليلاً من كونه أجنبياً، لكن لاحقاً كنتُ سعيدةً بذلك. تفحَّصته تحت الضوء... كان يافعاً، كان جميلاً ومعافى، فأعجبني. أردته، وهو أيضاً أرادني.

أعرِفُ بأنكَ سترحل، ومحاولةُ إقناعكَ لن تجدي نفعاً، لكن من الجيِّد أنكَ هنا، فأنا سعيدة معك، ومحظوظةٌ لكوني تمتَّعت بكلِّ تلك الجرأة حينها، لأن القيام بالأمر تطلَّب أية جرأة! لا أعرف كيف تعيش، وماذا تعمل، لكنني أنتظرك عندما تكون غائباً، وأخاف من أن يصيبك

أيُّ مكروه، وحتى عندما ترحل، ستبقى في داخلي ما حييتَ، وربَّما بعد ذلك أيضاً، ربَّما سيبقى شيءٌ من ليالينا كذكرى لهذا العالم. لا أملكُ حقَّ الحصول على أكثر من هذا. فالحرب قائمةٌ، وأنا مع ذلك ألمانيةٌ سعيدة...».

كانت تخبرني: «إنني أرملةُ حربٍ. لم تكن أنت تعرفُ بهذا. أنا أرملة حرب، امرأة بطل، يرقد في مكانٍ ما في قعر المحيط في غوَّاصةٍ حديدية، لقد كان قائدها. لا أحمل اسمه، وليس مسجَّلاً حتى في بطاقتي الشخصية، هنا في المدينة لا أحد يعلم بذلك، في نهاية الأمر أنا لا أختلط بأحد، وتلك المجموعة القليلة التي تعرفني، من البائعين والجيران، أنا بالنسبة إليهم الآنسة ديكير، لكن ذلك لا يغيِّر شيئاً في الأمر، فقد كنت متزوجةً رسمياً وزوجي ميت، إذاً أنا أرملةُ حرب. لم أكن أطالبُ بمعاشٍ عالٍ، ولا بامتيازاتٍ تحصل عليها أرملة بطلٍ حاصلٍ على صليب الفرسان. لا أريدُ الاعتراف بوضعي القانوني، لا أشعر بأني مرتبطةٌ به بأيِّ شكلٍ من الأشكال، لستُ مضطرَّةً إلى تفسير أفعالي لأحد، ولكن رسمياً أنا أرملة حرب..

وأنا أيضاً كنتُ واحدة من أولئك الفتيات الألمانيات الحمقاوات. كنتُ عندما أرى هتلر في الميدان، تنهمر دموعي من الفرح، وأصرخ حتى يُبَحَّ صوتي: «هايل»، كنتُ أحاول أن أخترقَ الطوق الذي فرضتْه الشرطة، أردتُ أن ألمسه، إنه حبيبي وزعيمي، إنه إلهي. وأنا أيضاً كنتُ أعيشُ نشوةً مثيرةً في كلِّ مرَّةٍ ظننت فيها أنه نظر إليَّ. أما في الليل فقد كانت تُراودني الأحلام عنه، أردت أن أكون خليلته، عشيقته، لكنني كنت أرى نفسي تافهة، عاديةً جدّاً، غير ملائمةٍ لعبقريته.

وأنا أيضاً رميتُ طوبةً كبيرةً على واجهة متجرٍ يهوديٍّ تلك الليلة[1]، عندما كان صوت هشيم زجاج واجهات المتاجر اليهودية يدوي في كلِّ أنحاء ألمانيا. كان أبي يائساً مني، عندما أجبته عن سؤاله عن مخطَّطاتي، بأني لا أريد أي شيء سوى أن أصبح أُمّاً، أُمّاً ألمانيةً من أمهات الجنود، مهمَّتها الأساسية الجليلة والوحيدة تتلخَّص في منح الرايخ والزعيم جنوداً، أكثر ما يمكن من الجنود الشجعان الشقر الأصحَّاء ذوي القوام الضخم.

كنتُ أرى نفسي غير جميلةٍ وأدنى منزلةً، لأني لم أكن شقراء الشعر وزرقاء العينين. أوَّل مرَّةٍ وهبتُ نفسي فيها لعنصر من الوحدة الوقائية، كان طويلاً ذا غرَّةٍ شقراءَ وعيونٍ زرقاء، وكنتُ أهمسُ له عندها: اجعلْ لي ولداً، اجعلْ لي ولداً مثلكَ، يكون شبيهاً لك، يكون أكبر وأصلب وأقوى منك... فأنا أيضاً استسلمتُ كُلِّياً لهذا الجنون الألماني، لهذه القذارة الألمانية، لفكرة انتمائي إلى شعبٍ مختار، بأني مختارة، بأني ذات منزلةٍ أعلى من الفرنسية أو البولندية. وبالتالي يحقُّ لي كلُّ شيءٍ، وواجبي الوحيد هو: إنجاب المختارين.

وأنا أيضاً كنت أتلقَّى بكلِّ شغفٍ الأخبارَ التي كانت تتحدَّث عن شبابنا المشمِّرين عن زنودهم وهم يتقدَّمون بخطى عسكريةٍ واثقةٍ في جميع أنحاء أوروبا، كيف كانوا بكلِّ سهولةٍ ويُسرٍ يتغلَّبون على كلِّ مقاومة، كيف كانوا يقضون على تلك الحشرات اليهودية والبولندية والبلقانية.

---

1 - ليلة البلور وهو مصطلح يستعمل للإشارة إلى عمليات نظمها ونفذها النازيون ضد مصالح وبيوت يهودية في ألمانيا بين 9 و10 تشرين الثاني 1938. (م).

كنتُ أعرفُ منذ طفولتي صبياً، كان ولداً لطيفاً، وكان أهلنا يعرفون بعضهم البعض، فكنا نقضي العطلة معاً. كان أكبرَ مني قليلاً، تطوَّعَ في البحرية، وتَرفَّعَ بسرعة، ليصبح في النهاية أصغرَ وأشجع قبطانِ غوَّاصة، في وقتٍ كانت لا تزال فيه تصدح في الإذاعة وبكلِّ فخرٍ أغنية "فلنبحر ضد إنكلترا". جاء إليَّ في إحدى المرَّات ليقول لي: لويزا، كثيراً ما أكون في البحر وتحت البحر، أتربَّص أحياناً لأسابيعَ عديدةٍ بالسفن المعادية أو أتجنَّب هجوم المدمِّرات، ففي الأسفل لا وجود للنهار ولا لليل، وأحياناً يكون هنالك الكثير الكثير من الوقت، وأنا لا أستطيع منع نفسي من التفكير فيكِ، لقد كنتُ أفكِّرُ فيكِ منذ زمن، لكنه لم يبلغ قط مدى تفكيري فيكِ الآن. إننا في حربٍ قد لا أعود منها. وإنه لمن دواعي سروري أن أموت من أجل ألمانيا ومن أجل الزعيم، ولكن سأموت براحة أكثر وأنتِ لي، وأنتِ زوجتي، وأنكِ تنتظرينني، وستحزنين عليَّ عندما لا أكون هنا...

كيف يبدو لكَ ذلك؟ بالنسبة إليَّ بدى الأمر وقتها وكأنه حلمٌ يتحقَّق، أخيراً جاء بطلي، قائد الغوَّاصة، حامل صليب الفرسان، كانوا يتحدَّثون في الصحافة عن أعماله الباسلة، وكيف أغرق لدى إبحاره في الأطلسي آلاف الأطنان من حمولات السفن المعادية. كنت أقول له بكلِّ سعادة: هيلموت، يا عزيزي، يا بطلي، كيف تطلبُ هذا مني؟ فأمثالك لا يطلُبون بل يُعطَون ما يستحقُّون، وأنا سعيدةٌ لأنك فضَّلتَني عن أية فتاةٍ أخرى، وبأني أستطيع أن أكون امرأتكَ المختارة، أن أكون لك إلى الأبد...

كان عليه أن يعود في اليوم نفسه إلى لو هافر[1]، فاتَّفقنا على كلِّ شيء، و بأني سألحق به إلى هناك، كنتُ سعيدةً بأن الأدميرال سيعقِدُ قراننا، كنتُ أعيش في انتظارٍ مثير، أحسست بأنه أخيراً أصبح لحياتي معنى، سأصبح زوجة بطل، سأنتظر عودته بقلق، سأتابع بفخر أخبار أعماله، ولكن في حال لم يعد، لن أبكي، لا يليق بزوجة بطلٍ ألمانيٍّ أن تبكي، سأحمل نصيبي برأسٍ مرفوع، نصيب أرملة الشعب، سأقوم بتربية ابنه، ليشبهه بشجاعته وعظمته وجماله. سأربِّيه ليصبح ضابطاً وقبطاناً وأدميرالَ بَحْريةٍ شجاعاً، كنتُ فتاةً ألمانيةً حمقاءَ بأفكارٍ مشوَّشةٍ مليئةٍ بالأحلام الرومانسية.

عارضَ أبي ذلك. لم يكن أبي يحبُّ رؤية غوَّاصاتنا وهي تدمِّر السفنَ الإنكليزية. كان أبي مُحِبَّاً لإنكلترا، لم يكن يُشهِر الأمر أمام الملأ في ذلك الوقت، لكنه لم يُخفِه في المنزل. كتب لي أبي من استوكهولم رسالةً تحذيرية، كان يحثّني فيها على التعقُّل، لكنه بدا لي حينها كعجوزٍ محافظٍ لا أمل منه، غير قادرٍ على فهم الروح الجديدة للتاريخ. كنتُ أحبُّه حبَّاً جمَّاً، لكن لم أكن أوافقه الرأي في أيِّ شيء تقريباً.

استقبلوني في لو هافر كما كنتُ أحلم. كنتُ عروسَ حاملِ صليبِ الفرسان، واحدٍ من أشهر وأشجع قادة الغوَّاصات، كنتُ ضيفة الأدميرال قائد قاعدة الغوَّاصات، الذي كان يعتني بي بكلِّ أبوية، لأنه لم يكن في مقدور أبي القدوم. الكل هنالك كان ينظرُ إليَّ باحترام، والضبَّاطُ الصغار بإعجاب ورغبة، أما النساءُ الألمانيات اللواتي كنَّ قلَّةً

1- Le Havre: مدينة تقع في النورماندي شمال غرب فرنسا وتطل على القناة الإنكليزية. تأسست عام 1517 و مصنفة من بين مواقع التراث العالمي. (م).

في القاعدة، فقد كُنَّ ينظرنَ إليَّ بغيرة. هيلموت كان في البحر، وكنت أتوق إلى عودته، فأخرج إلى شاطئ البحر أبحث بواسطة المنظار عن نقطةٍ سوداءَ صغيرةٍ على السطح. ثمَّ همس لي رئيسه بسرِّيةٍ تامة: سيأتي غداً، سأل عنكِ، يريد عقد القران فوراً، لأنه سيعود إلى البحر مجدَّداً. كنتُ أشعر ببعض الضيق وبالفرحة، سيأتي بطلي، سيأتي، وإنه على قدر من الأهمِّية، لدرجة أن أخبار تحرُّكاته يجب أن تبقى في سرِّيةٍ تامَّة، فبالنسبة إلى الإنكليز كانت أية معلوماتٍ عن إبحاره لا تُقدَّر بثمن. كنتُ أشعر بالإثارة، سيأتي غداً، ياه! يا إلهي! كم أتمنى أن يكون كلُّ شيءٍ كما هو مخطَّطٌ له! الحفلة، هل سيعجبه فستاني الأبيض؟ ألن يزعجه وجهي الملطَّخ؟

لم أستطع النوم في تلك الليلة، فالانتظار الفرح كانت تحلُّ محلَّه المخاوف السوداء، ماذا لو حدثَ له مكروهٌ خلال طريق عودته؟ ماذا لو اصطدمت الغواصة بلَغَمٍ، أو اكتشفت السفن المعادية موقعه؟ كنتُ أغضبُ من نفسي لخوفي هذا، فقبطاني، قبطان غوَّاصتي لا يموت، حتى لو اصطدم بلَغَمٍ سيكون من النوع الذي لن ينفجر. بدوتُ لنفسي وكأني لا أستحقُّه، زوجة البطلِ لا يمكن أن يكون لديها شكوك، لا يمكن أن تخاف.

في الصباح جاءت لتساعدني بارتدائي ملابسي زوجةُ الأدميرال، لم تُرِدْ تركَ الأمر لأحدٍ آخر، كانت تتحسَّر لعدم ارتدائي ذيلاً للفستان، فكم كان الأمر ليبدو رائعاً لو أن مُلازمين من الغواصة حملا خلفي ذيل فستاني. كانت تنظر بسعادةٍ إلى وركيَّ المكشوفين، ثمَّ تنهَّدتْ ربَّما لذكرى ما، وقبَّلتني وقالت لي: إنه محبوبنا، محبوب القاعدة بأسرها.

في العاشرة إلا ربع حضر إليَّ شاهدي، كان من معارف الطفولة أيضاً، وضابطَ بحريةٍ أيضاً، نظرتُ مرَّةً أخرى إلى المرآة، كنتُ جميلة، البقعُ التي على وجهي تكادُ لا ترى، كنتُ عروساً، كنتُ جميلة. كنتُ أقفُ بجانبِ الفراشِ في غرفة الفندق، وخطر لي، أريدُ فحسب أن يتمَّ الأمر، أن ننتهي من كلِّ شيء، أريد أن أكون معه هنا!

الجميعُ كان ودوداً معي يومها، وفي الميناء كان يرسو طرَّادٌ كبيرٌ قد تمكَّن الأدميرال من الحصول على إذنٍ من قيادة البحرية بالسماح بإقامة مراسم الزواج عليه. أنا كنتُ أحبِّذ أن يتمَّ على الغوَّاصة، لكنها لا تتَّسع لكلِّ ذلك العدد من المدعوِّين، فقد أعدَّتْ زوجة الأدميرال مأدبةً عامرة، كلُّ شيء كان على نفقة قيادة القاعدة. بكلِّ هذا كانوا مدينين لخطيبي وبطلي وحبيبي.

أرسل أبي برقية، ووردتْ برقياتٌ من معارفَ آخرين مقرَّبين أيضاً، أصدر الأدميرال أمراً يومياً، بأن يُطلِق الطراد في لحظة التوقيع طلقاتٍ احتفاليةً من مدافعه كافَّةً. بيدين مرتعشتين استلمت برقيةً من الزعيم. كان يهنِّئنا بزواجنا، وعبَّر عن أملِه، أن نكون على قدر المسؤولية الملقاة على عاتق رجلٍ ألمانيٍّ وامرأةٍ ألمانية، وتمنَّى لنا دوام السعادة. الزعيم! زعيمي! في وسعي أن أريكَ البرقية لاحقاً، إنها الوحيدة التي لم أمزِّقْها.

خلال مراسم الحفل كانت تُحلِّقُ فوق الطراد طائرات ماسرشميت كي لا يعكِّر أمرٌ صَفوَ عُرسِ البطل. لقد كان يوماً مثالياً، فالجوُّ جميل، والسماء صافية، بلا رياح، وفي مركز القيادة كانت أُعدَّت طاولةٌ مغطَّاةٌ بعلم البحرية. عندما سألنيِ الأدميرال إن كنت أقبلُ بالموجود هنا هيلموت برينكمان زوجاً لي، انتابتني قشعريرة من السعادة، قلتُ نعم

بكلِّ ابتهاج، وأضفت ما لم يكُن من اللائقِ ربَّما أن أقوله: وبكلِّ فخر. الأدميرال وجميع الحاضرين كافأوني على ذلك بابتسامةٍ لطيفة، وصاح صفُّ الضباط المجتمع "زيغ هايل". في غرفة طعام القيادة كانت هنالك طاولةٌ كبيرةٌ مُعدَّة، فنزلنا عبر الممرِّ الضيِّق الذي شكَّله صفُّ الضباط الممتشقين لسيوفهم الحادة.

ثمل زوجي باكراً وفقد وعيه، لم ألمْه على ذلك، فالمسكين يحقُّ له هذا، بدا لي الأمر عادياً ولطيفاً، فتركتُه ليصحو بنفسه، وبقيتُ في محيط الضبَّاط والفتيات الألمانيات اللواتي كنَّ يخدمنَ في المحطَّة. حتى أنه قد خطر لي أنه عليَّ أن أصبح واحدةً منهن، عندها يمكنني أن أكون دائماً هنا في القاعدة عندما يعود إلى هنا. كانت حفلةَ عُرسٍ سعيدةً شُرِب الكثير خلالها، وعند الغروب حضر هيلموت منتعشاً ومتجدِّداً، كان أصدقاؤه يربِّتون على كتفه مع ابتسامةٍ تحمل أكثر من معنى، ومع حلول الظلام جاءت فرقةٌ من البحَّارة لتغنِّي لنا بضع أغان، بالطبع من بينها " فلنبحر ضد إنكلترا".

وبدأ الشربُ من جديد، وهيلموت بدأ مجدَّداً، لكني كنتُ أعرِف كيف أبقيه ضمن الحدود المقبولة. بدا لي المساء ساحراً، لكن ما الذي كان فيه ساحراً؟ اليوم أتذكَّره بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً، كلُّ شيء في الواقع كان مصطنعاً ومضحكاً ومحرجاً، تلك الوجوه الثملة الغبية، والألعاب الجماعية السخيفة، والتلميحات البذيئة، والنكات الغبية، كانت تعجبني وقتها، ولم أكن أشعر بأني أسيرُ أو أرقص وإنما أحلِّق في الهواء، إلى هذا الحدِّ كنتُ سعيدةً وفرحة.

غادرنا قبل حلول الساعة الحادية عشرة. مررنا فوق الجسر عبر

صفٌّ ضيِّقٍ من الضباط الثملين، الذين كانوا يضحكون بصوتٍ عالٍ، ويصيحون على هيلموت: أيها المحظوظ، وعلى البرِّ ودَّعَنا أصدقاؤنا المقرَّبون، كان عليَّ أن أقبِّلَهُم على خدودهم. قام سائق الأدميرال بإيصالنا إلى الفندق. هناك رميت نفسي في أحضانه وأنا أصيح، يا حبيبي، أخيراً حصلتُ عليكَ، أخيرا أصبحتَ لي، لي وحدي...

جرَّدني من ملابسي ببطء، كأننا في طقسٍ ما، كنت أرتعش من شدَّة ترقُّبي. بدا لي وكأن أصابعهُ تنقصها البراعة. حملني بين ذراعيه ووضعني على الفراش، وأخذ يقبِّلني بأكملي.

عندما أتى إليَّ، أدار المذياع. همس لي بأنه يحبُّ القيام بذلك مع الموسيقا، مع إيقاعٍ متغير. لقد فاجأني نوعاً ما، لماذا يخبرني بذلك؟ كان يكفي أن يدير المذياع، هنالك أمورٌ ليس من الضروري الحديث عنها. كدتُ أفقد وعي من ذلك الشعور غير المعروف لديَّ لحينها من الرعشة والضياع في اللانهاية، كان معي، كان لي، مارسنا الحب، وقد كان يجيد ممارسة الحب... كان يصدر عن المذياع المكتوم، فالس، وقع خطوات عسكرية، تانغو، أخبرك بذلك لأنه ضروري. مارسنا الحب، كنا في أفضل أوقاتنا عندما أذاعوا نشرة الأخبار الليلة الأخيرة. قدَّم لي هدية زفافٍ رائعة، فبالإضافة إلى اللؤلؤ الذي قدَّمه لي صباحاً. كانت هنالك عدَّة سفنٍ إنكليزيةٍ قد أُغرقَتْ، ومن بينها طرَّاد. كانت تصل إلى مسامعي وكأنها قادمة من مسافةٍ بعيدة، كانت مفاجأةً لطيفة، كدت أُجَنُّ من فرط سعادتي، أتوحَّش من شدَّة لذَّتي...».

* «عند منتصف الليل، تعرفين ذلك، يعزفون في الإذاعة النشيد الوطني...».

شعرتُ كيف اهتزَّتْ حبيبتي الصغيرة التي كانت تجلسُ بجانبي.

- «كلا!». صاحتْ مذعورة.

* «بلى يا حبيبتي الصغيرة. عند منتصف الليل دائماً كانوا يعزفون في الإذاعة الألمانية النشيد الوطني الألماني. "ألمانيا فوق الجميع"».

- «توقَّفْ لا أريد سماع ذلك. هذا غير معقول... هذا غير معقول...».

* «ماذا أصابكِ يا حبيبتي الصغيرة».

راحت ترتجف بأكملها وعيونها متوسِّعةٌ وتتنفَّس بشدَّة.

- «إنه...إنه...لا هذا غير معقول... لقد اختلَقَتْ ذلك، أو أنتَ من قام باختلاقِ ذلك».

بعد قليل أخذَ ذُعرها الساخِط بالتبدُّد. رفعتْ رأسها الصغير ودموعها على وشك أن تنهال وتنهَّدتْ. ثمَّ ابتسمتْ.

- «إنني أفضَلُ الآن. تابع حديثك وأخبرني بكلِّ شيء».

كانت تخبرني:

«عند منتصفِ الليل بعد نشرةِ الأخبار، كانوا يعزفون في الإذاعة النشيد الوطني، "ألمانيا فوق الجميع". بدأ الأمر يراودني، تعلم ما أقصد؟ كنتُ أطيرُ من النشوة لكنَّ شيئاً ما قد حدث، شيئاً مشوَّشاً، فتصلَّبَ وتجمَّد في مكانه. ثمَّ توقَّف ونهض. لم يعد موجوداً. عندما فتحت عينيَّ، رأيتُ كيف كان يقفُ باستعدادٍ بجانب السرير. كان يقف هناك عارياً، والنشيد الوطني يصدحُ من الإذاعة وهو يقف عارياً باستعداد. أصابني تشنُّجٌ جعلني أتلوَّى، تشنجٌ رهيب في أحشائي. خُيِّلَ

إليَّ بأنَّ أحداً ما كان يعبثُ في داخلي ويعذِّبني بمخالبه الحادَّة. ومن ثمَّ أدركتُ ما يحصل. أدركتُ ذلك وانفجرتُ بعدها بالضحك، أضحكُ بشدَّة، بصوتٍ عال، بجنون، حتى تحوَّل تشنُّجُ جسمي إلى تشنُّجِ ضحك، أُصِبتُ بصدمة ضحك، لم أقوَ على التوقُّف، كان الضحك يخنقني، يضغط على صدري، يحرق حلقي، كان ينطلق مني كطلقات المدفعية، هاهاهاها هيهيهي هاهاها... انحنى فوقي متفاجئاً، مذعوراً، لم يكن يفهم لماذا كنتُ أضحكُ هكذا، كان يهزُّني بشدَّة، يوبِّخني ويتوسَّلني، لكني لم أقوَ على القيام بأيِّ شيء، لم أستطعْ أن أكبتَ في داخلي ذلك الضحكَ الرهيب، المميت، المؤلم، المنهك، المعذِّب.

كنتُ أضحك، وأضحك، وشاهدتُ في أثناء ذلك كيف كان يدور عارياً بلا حولٍ ولا قوَّةٍ في أرجاء الغرفة، صرخ في وجهي، قفز نحوي وقد استشاطَ غضباً، وأخذ بصفعي، لكن لم يكن أيُّ شيءٍ يُجدي نفعاً، ولا حتى الصفعات، ولا أيُّ شيءٍ آخر، كنتُ أضحك وأضحك... كنتُ أشعر بأنها ضحكة الموت، تمنَّيتُ أن لا أستفيقَ منها، توقَّفتُ عن إدراكه وإدراك كلِّ ما حولي، كان هنالك ذلك الضحكُ فقط، حتى بتُّ لا أرى شيئاً. شعرتُ بأني لن أتحمَّل ذلكَ لفترةٍ طويلة، صدري سينشق، قلبي سينفجر، حلقي سيُسَدُّ، سأختنق...

فتحت عيوني لأجد طبيباً يقف فوقي، طبيباً مُسنّاً ولطيفاً، كان يقول شيئاً ما وقد احتجتُ إلى بعض الوقت لكي أدركَ بأنه كان يخاطبني، وأنه كان منحنياً فوقي يُربِّت على ذراعي العارية، بأن كلَّ شيءٍ سيكون بخير، كل شيءٍ سيكون على ما يرام. كان يُمسِكُ حقنةً في يده ولم تكن

هذه غرفة الفندق، كنتُ في مكانٍ ما آخر، كذلك تطلَّب الأمر مني وقتاً كي أدركَ أنني في المشفى. هذا كان آخر ما كنتُ قادرةً على استيعابه، في الواقع لا، آخر شيء أذكره كان إدراكي لكوني عارية، أستلقي عاريةً في سرير المشفى، ولم أكن قادرةً على معرفة كيف وجدتُ نفسي هنالك...

استيقظتُ بعد فترة نومٍ طويلةٍ أشبه بغيبوبة، كان الطبيبُ العجوزُ يقف منحنياً فوقي، صلةُ اتصالي الأولى والأخيرة مع العالم الخارجي، كان يراقبني بقلق، ثمَّ سألني عن حالي، وإن كان في إمكاني التحدُّث. هززتُ برأسي، لم أكن أعرفُ بعد أيَّ شيءٍ عمَّا حدث، لكن كان في مقدوري التكلُّم.

أين أنا؟ لماذا أنا في المشفى؟ ماذا حدث لي؟

يجبُ أن تبقي هادئة، هادئةً تماماً، لا ينبغي أن تغضبي، يجبُ أن تنامي، وتأكلي وتنامي لفتراتٍ طويلةٍ جدّاً، هذا الآن هو كلُّ ما يجبُ عليكِ فعله".

أومأتُ برأسي مُنصاعةً. سأفعلُ... سأفعلُ كلَّ ما يأمرونني به. شعرتُ بأني ضعيفة، غير قادرةٍ على القيام بأيِّ شيء، كنتُ لا أزال تحتَ تأثير تخدير الحقنة. ولكن في تلك الأثناء فُتِحَ الباب وظهر شخصٌ يرتدي بزة ضابط في البحرية، أراد أن يقترب من السرير الذي كنت أستلقي عليه، وفجأة بدا لي وكأنه لا يرتدي أيَّ شيء، ويقف باستعدادٍ عارياً بالقرب من السرير، وأخذتُ أضحك وأضحك، وذلك الطبيب العجوز أخذ يصيحُ على الزائر مؤنباً: اخرجْ! اخرجْ! ودفعه بيده خارج الغرفة ونادى على الممرضة طالباً حقنة... ومن جديدٍ لم أعد

أرى شيئاً أمامي ورحتُ أغطُّ في نومٍ عميقٍ وطويل... بصعوبةٍ وبألمٍ بالغٍ فتحتُ عينيَّ، كان الوقت نهاراً وذلك الطبيبُ العجوز كان منحنياً فوقي وأخذ يقول: كلُّ شيءٍ سيكون بخير، كلُّ شيءٍ سيكون على ما يُرام. أردتُ أن أبتسم له، وأصدِّق أن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام، ولكني لم أعرف كيف أبتسم ولا كيف أحرِّك يدي، وأردتُ أن أسأله أيَّ شيء، لكن لم يخطرْ في بالي أيُّ شيء، ومع ذلك فقد استطاع أن يفهم عليَّ، فقال لي: لقد حلمتِ حلماً سيِّئاً جدّاً، لكنَّ الأمور ستكون بخيرٍ الآن، كل شيءٍ سيكون على ما يرام، فقط عليكِ ألا تفكِّري في أيِّ شيء، ولا تحاولي تذكُّر أيَّ شيء، وعليك أن تنامي وتأكلي وتنامي جيِّداً وبعمقٍ لفترةٍ طويلة.

بعدها ذهبت إلى غريفنبرغ للعلاج بالماء وحيث يوجد الهواء النقيُّ والغابات والهدوء. كنتُ أشعر بأني خاويةٌ وكأنني ممتلئةٌ بالرماد فقط، ولو أني وَخزتُ يدي فسيسيل من الأوردة رمادٌ رماديُّ اللون عوضاً عن الدم. جاء أبي المهموم لزيارتي، علمتُ لاحقاً بأنهُ قد أتى ليخبرني بأن زوجي قابعٌ في غوَّاصةٍ أُغرِقتْ في قاع المحيط، لكنه لم يملكِ الشجاعة الكافية لفعل ذلك، مع أنه لم يعد ممكنٌ حدوثُ شيءٍ لي. أمَّا طبيبي المعالج، والذي يبدو أنه كان من أعلى الكفاءات في اختصاصه، فقد حاولَ مراراً وتكراراً معرفةَ ماذا حدثَ لي، وما الذي كان وراء كلِّ هذا، لكني لم أكن أرغب ولا حتى أستطيع الحديث، كنتُ أشعر بأني مدنَّسة، مهانةٌ وخاوية. فتخلَّى عن الأمر في نهاية المطاف.

اليوم أنا سعيدةٌ بذلك، بكلِّ ما حصل. أدركتُ مدى الكارثة التي أقحموا ألمانيا فيها. لقد جرَّدونا من إنسانيتنا واغتصبوا ودنَّسوا كلَّ

شيء. أدركتُ ذلك في اللحظة التي كان يقفُ فيها بالقرب من السرير مستعدّاً، لقد انتابتني جرَّاء ذلك صدمةٌ من الضحك، وحتى من دون نوبةٍ عصبيةٍ كان الأمر غبياً ومضحكاً. أهذا ما صنعوه منا! كيف يمكن للأمور أن تنتهي على نحو غير ذلك؟

لم يعلم أحدٌ ما الذي حصل. لم يتم تعديل بطاقة الهوية خاصتي بعد، حتى أني لم أقم باستصدارها. عملياً هو غير موجود وأنا لا أذهب إلى أيِّ مكان، هنا في الأنحاء من أحتاج إليهم يعرفونني بالآنسة ديكير، لقد نسيت كلَّ شيءٍ منذ زمنٍ بعيد، ولكني سعيدةٌ لحدوث كلِّ هذا، فتلك التجربة غيَّرتْني كلياً. لم أحتفظ بأيِّ شيءٍ سوى برقيةِ ذلك المجنونِ المصابِ بالفصام، حرقتُ الملابس وأتلفتُ كلَّ ما يمكن أن يذكِّرني بالإهانة التي تعرَّضتُ لها، فقط تلك البرقية احتفظت بها للعبرة.

«بعدها عدتُ إلى منزلي هنا، كان لدينا خادمةٌ من قبل لكني صرفتها. وفي أحد الأيَّام جاء ذلك الطبيبُ العجوز من لو هافر لزيارتي. وافقوا له على طلبه بأن يتسرَّح من الجيش لتقدُّمه في السن. لم يسألني أبداً ما الذي حدث، لكنَّه خمَّن ذلك بكلِّ تأكيد. لقد استقرَّ في هذه المدينة، فقد كان من هنا، وكانت لديه عيادةٌ مشهورةٌ قبل أن يستدعوه للالتحاق بالجيش. أعاد فتحها. وأخذ يتردَّد عليَّ، كان محترماً ولطيفاً، وأعتقدُ بأن شفائي على يديه كان بمثابةِ معجزةٍ صغيرةٍ. فقد كنتُ أخافُ النظرَ إلى نفسي في المرآة لفترةٍ طويلة. وأشعرُ بأني قذرةٌ وبأن ذلك بادٍ عليَّ. كنتُ حتى أخافُ التفكيرَ بمجرَّد لمسةٍ من رجل، فترتعد أواصري لمجرَّدِ فكرةٍ كهذه. اعتقدت بأن الأمر لن يتغيَّر أبداً، ولم أكن أشعر بالحسرة على ذلك أبداً.

مع مرور الوقت بات الطبيب العجوز يتردَّد عليَّ بكثرة، وفي إحدى المرَّات قال لي: لويزا، أنا إنسانٌ مُسنٌّ، وأمورٌ كثيرةٌ لم تعد كما كانت من قبل، ولكن مرَّةً فيما مضى رأيتُ جسدكِ، وكنتُ قد رأيتُ في حياتي الكثيرَ من الأجسادِ النسائية، لكنَّ جسدكِ إلى اليوم ما زال يُبهرني، بالطبع أنا إنسانٌ مُسنٌّ ولم أعد حَسَنَ المظهر، لكن كان عليَّ أن أقول لك هذا، فلطالما عذَّبني ذلك.

قبَّلتُه على رأسه العاري ومن ثمَّ على فمه. كان لطيفاً وجيِّداً معي، ولم يكن لديَّ ما أعطيه له مقابل ذلك. ربَّما كان من الأفضل أن نبقى أصدقاء، ولكن لم يكن ذلك ممكناً على ما أظن. لم أكن أشعرُ بشيءٍ ولذلك لم يكن لديَّ ما أخسره، وإن مَنحَهُ الأمرُ قليلاً من السعادة، سأكون أيضاً سعيدة.

لو أنكَ لم تقل لي ذلك، لكنتُ بادرتكَ أنا اليوم، كذبت. خلعتُ ملابسي، وأخذَ ينظرُ إليَّ، جثا على ركبتيه بجانبي، وأخذ ينظر وينظر لفترةٍ طويلة، يبدو أنه لم يكن واثقاً من نفسه، كان خائفاً من أن يخفق، أردتُ مساعدته، فأخذتُ زمام المبادرة، أغمضت عينيَّ وقلتُ له، تعال هيا تعال، لا تدعني أنتظر... أطفأ الضوء، سمعتُ كيف كان يخلعُ ملابسهُ في الظلام، اقتربَ مني... كان لطيفاً جدّاً و محترماً، بدت عليه قلَّة الخبرة والتردُّد قليلاً، لكني بدأت أستمتع معه، لم أعد أشعر بأني مليئةٌ بالرماد، لقد عاد الدم الأحمر للتدفُّق والغليان في عروقي مجدَّداً، جسدي، وركي، نهداي، فخذاي، يداي، وفمي كانوا سعداء، كانوا في قمَّة النشوة والمتعة، في الواقع كان لحينها حبيبي الوحيد فعلياً، كان

لطيفاً، يبدو أن كبار السنِّ يعرفون كيف يكونون لطفاء، ربَّما كبار السن فقط يجيدون ذلك، كانت رأسه خاليةً من الشعر ومضلَّعة الشكل، وكان يرتدي النظَّارات بعدساتٍ ثخينة. كان سميناً ولكنَّ يديه وساقيه كانتا نحيلتين، لكنه كان يعجبني، يعجبني أكثر بكثير من كل زيغفريد[1] قبله، والذين كنت أفكِّر فيهم فقط بعد رؤية آثار الاحمرار الذي كانوا يتركونه على جسدي. مارست الحبَّ معه، ولأوَّل مرَّةٍ في حياتي كنت أمارس الحبَّ بكلِّ جوارحي، بكامل جسدي وروحي. كان الأمر معه رائعاً وجميلاً. أحببتُ تجاعيده، صلعته، الثنايا على بطنه غير المتناسق، ساقيه ويديه النحيلتين، كان يبدو لي جميلاً، ولكن هذا فقط لأني مارستُ الحبَّ معه.

قبل عامين قاموا باعتقاله. لأنه كان يستمعُ لإذاعة لندن. منذُ ذلك الوقت لم أسمع عنه شيئاً، ربَّما لا يزال حياً أو إنه ميتٌ الآن.

أردتُ أن أسمِّم نفسي، لكني لم أملك الشجاعة الكافيةَ للقيامِ بذلك. وعلى كلِّ حالٍ كان الأمر ليبدو غبياً. إنه لمن العدل أن تقومَ هذه الطاحونةُ الشيطانيةُ بإبادة كلِّ هؤلاء الأخيار، وبالأخصِّ هؤلاء الأخيار من الألمان. لأنَّ هؤلاء كانوا قد خيَّبوا الظن يوماً ما...»

- «إنها قصةٌ حزينةٌ».

* «إنها قصةٌ ألمانية يا حبيبتي الصغيرة. إنه لمن المؤكَّدِ أن شيئاً مماثلاً لهذا يمكنُ أن يحدثَ في أيِّ مكان، ولكنها مع ذلك تبقى قصةً ألمانية».

---

1 - Siegfried: اسم ألماني يرمز للبطولة والشجاعة، يشير هنا إلى أفراد الوحدة الوقائية. (م).

- «كُنتَ لا تزالُ منزعجاً من كونها ألمانية؟».

* «كانت ألمانيةً في نهاية الأمر».

- «وأنا ألمانية. ابنة مجرمِ حربٍ أُعدِمَ شنقاً. أنا أيضاً قصَّةٌ ألمانية. من المؤكَّدِ أن قصةً مشابهةً لي يمكن أن تحدثَ في مكانٍ آخر، ولكنني أبقى قصَّة ألمانية».

* «أنتِ يا حبيبتي الصغيرة ما زال في وسعكِ تحقيق كلِّ ما يمكن تحقيقه في هذا العالم. أن تكسبي وأن تخسري».

- «أتريد القولَ إنه لم يعد لديَّ أية علاقةٍ بالقصصِ التي تحدِّثني عنها؟».

* «بلى يا حبيبتي الصغيرة، وأنتِ تعلمين ذلك. والدك...».

- «آه يا الهي! والدي، لم أكن حينها قد أتيتُ إلى هذه الحياة بعد، لقد ولِدتُ بعد موته. وماذا لو كان يُنفِّذُ الأوامرَ فحسب؟ ربَّما تلقَّى تعميماً كهذا عندما بدأ الطيَّارون الغربيُّون بتدمير المدن الألمانية، عندما سوُّوا هامبورغ بالأرض».

* «يا حبيبتي الصغيرة، كان هنالك ضمن التعليمات الميدانية للفيرماخت[1] بندٌ غريب. لم أكن لأصدِّق ذلكَ لو أني لم أقرأه بنفسي. فقد جاء فيه بأنه يمكن للجنديِّ رفضُ تنفيذِ أمرٍ ما، إن لم يكن متوافقاً مع شرفه العسكري. الجنديُّ بالطبع يَقتلُ على الجبهة، لكن لا أحد يُمكن أن يُجبره على ارتكاب المذابح».

1- Wehrmacht: قوة الدفاع، وهو اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا من العام 1935 إلى 1945. (م).

- «والدي كان عضواً في الوحدة الوقائية. كان يخضع لتعليماتٍ أخرى».

* «لكنه انضمَّ إلى الوحدة الوقائية طواعية. هذا يعني بأنه كان متماهياً مع برنامج الوحدة الوقائية، وموافقاً عليه وأقسم على تنفيذه. في نورينبرغ اعتُبِرَتْ تشكيلاتُ الوحدة الوقائية كافَّةً منظماتٍ إجرامية».

- «في نوريمبرغ كان يُحاكِمُ المنتصرون المهزومين. لو أن هتلر ربح، كان ليُحاكِمَ أولئك الذين كانوا يُحاكِمونَ في نوريمبرغ بتهمة جرائم الحرب».

* «أشُكُّ في أنه كان ليتكلَّفَ عناء الأمر. على كلِّ حالٍ عليكم أنتم الألمان أن تجدوا طريقةً للتعامل مع الأمر مع أنفسكم وفيما بينكم. خاصَّةً أنتم الشباب. لأن أولئك الكبار جميعهم متأثِّرون بماضيهم. لا يمكن انتظار أيِّ شيءٍ منهم. فعندما يقفون أمام المحاكم الدولية أو الألمانية لا يتذكَّرون، بل ينكرون ويتحجَّجون بأنه كان عليهم تنفيذ الأوامر. طالما أنكِ مهتمَّةٌ بشدَّةٍ بهذه المسائل، أتعرفين حالةً واحدةً فقط لمتَّهمٍ ألمانيٍّ توجَّهَ نحو رئاسة المحكمة وقال: كنتُ أقوم بالأمور التالية. ما فعلته في مايدانك[1] و أورادور[2] وفي أوكرانيا وفي البلقان هي أفعالٌ مدانة، إجرامية، ولا يمكن أن تُغتفَر. وقتها لم يكن يبدو الأمر لي هكذا، لأني كنتُ معمياً، ومعدياً بآفة الجرب النازية وإني أعترف بذلك

---

1 - Majdanek: معسكر اعتقال وتجويع ألماني خلال الحرب العالمية الثانية يقع على مشارف مدينة لوبلين في بولندا. (م).

2 - Oradour-sur-Glane: قرية في وسط فرنسا رفضت الاستسلام للقوات النازية الألمانية فاجتاحتها في حزيران من عام 1944 وارتكبت فيها مجزرة أبادت فيها جميع سكانها البالغ عددهم 642 شخصاً بينهم 207 أطفال. (م).

الآن. أتعرفين حالةً كهذه؟ أرأيتِ؟ لا تعرفين. وأنا أيضاً لا أعرف. جميعهم أبرياء. إذاً من كان يقترف تلك الفظائع في أنحاء أوروبا، طالما الجميعُ أبرياء؟ أم تريدينَ تصديقَ تلكَ الأصوات التي تعلو بين الحين والآخر لديكم، بأنَّ كلَّ ذلك قد اخْتِلِقَ من قبل البروباغندا المعادية للألمان؟ بأن الألمان لم يكونوا يقتلون اليهود؟ إذاً أين اختفت كلُّ تلك الملايين من اليهود والبولنديين والأوكرانيين والصرب والغجر؟ إن سمحتم لذلك أن يحدُثَ، فسيصبحُ المؤرِّخون الألمان يدَّعون بعد فترةٍ ما بأنه لم يكن هنالك أيُّ يهوديٍّ في أوروبا. وسيساعدهم آخرون على تمرير ذلك. هل تعرفين يا حبيبتي الصغيرة ماذا حدث خلال زيارة السفير الألماني حينها إلى أوسفينتشيم[1]؟ كان يتجوَّل ويستمع وفجأة بدأ يضحك بصوت عال: إنكم لا تحاولون إقناعي - وكان ينفجر ضاحكاً بين كلمة وأخرى - بأن هذا الذي تطلعونني عليه الآن وما تدَّعونه هو حقيقة؟».

- «حسناً، يمكن لهذا أن يكون أحمق».

* «لقد قلتُ لكِ، إن الأمر يخصُّكم. وبالأخصِّ الألمان الشباب. لن يقوم أيُّ هرقل أجنبيٍّ بتنظيف حظيرتكم بدلاً عنكم. إما أن تتأقلموا مع مسألة الذنبِ الجماعيِّ للشعب بأكمله، أو أن تتكفَّلوا بمعاقبة المذنبين. لكن لا يمكن الادِّعاء بأن الشعبَ كان مُضلَّلاً ولم يكن يعرف بشيء، وبأنه لا يتحمَّل مسؤولية أيِّ شيءٍ ممَّا حدث، وفي الوقت

1- مدينة بولندية كان يوجد بالقرب منها معسكر أوشفيتز أحد أكبر معسكرات الاعتقال والإبادة والذي بني و شغل من قبل النازيين في أثناء احتلالهم لبولندا خلال الحرب العالمية الثانية. (م).

نفسه تقومون بحماية وإنقاذ والدفاع عن المذنبين والمجرمين الذين ارتكبوا جرائم ضدَّ الإنسانية بالادِّعاء بأنهم لم يقوموا بشيءٍ وبأنهم كانوا ينفِّذون الأوامر فحسب. لم يكن أحدٌ بناءً على أية أوامرَ مُكرهاً على الانضمام إلى الوحدات الوقائية أو كتيبة العاصفة أو مخابرات الحزب أو الغيستابو. لم يكن النازيون هنالك يختارون لهذه الوحدات إلا الأكثر جدارةً وولاءً وقدرةً على التطوُّر. ولكن جميع هؤلاء كانوا يقرأون كفاحي، وجميعهم كانوا يعرفون ما هو البرنامج ووافقوا عليه ومضوا في تطبيقه».

- «هل جميع الألمان كانوا يعلمون أية فظائع كانت تحدث هنا؟ هل كان الجميع على علمٍ بذلك؟».

* «الكثير منهم كانوا يعلمون. والكثير وهم بمئات الألوف وربَّما أكثر كانوا يقومون بها. الكثير سمعوا أمراً ما، ولديهم ظنونٌ بحدوث شيءٍ ما، لكنهم لم يكونوا يرغبون في معرفة أي تفاصيل. الجميعُ كان لديهم مِن أقاربهم أو معارفهم المقرَّبين أو البعيدين من اعتُقل من قِبَلِ الغيستابو. ولكن حتى أقاربُ القتلى لم يكونوا يرغبون في الاعتراف بأن ما يحدث هو إرهابٌ وحشي. الملايين من الجنود الألمان مرُّوا عبر بولندا وأوكرانيا وبيلاروسيا والبلقان، ولكنَّ أحداً منهم لم يرَ ولم يعرفْ أيَّ شيء. ومع اقتراب الحرب من نهايتها كانت هنالك شتيمةٌ رائجة في ألمانيا: ليجعلوا منك صابوناً.[1] لكن يبدو أنه لم يكن أحدٌ يدرك ماذا تعني».

---

1 - إشارة للاعتقاد السائد بأن الألمان كانوا يصنعون الصابون من أجساد ضحايا معسكرات الإبادة النازية خلال الحرب العالمية الثانية. (م).

- «يبدو أني لن أتخلَّص من ذلك أبداً».

* «يمكنكِ التخلُّصُ منه بطريقةٍ واحدة. عليكِ أن تَحسِمي الأمر مع نفسك. لا يمكنكِ في ليلةٍ واحدةٍ أن تقولي عدَّة مرات: والدي كان كذا وكذا، ثم تعودين وتقولين عدَّة مرات إنه لم يكن كذا وكذا. عليكِ أن تحسمي أمركِ أخيراً. هذا سيحدِّدُ لكِ كلَّ ما سيكون بعد ذلك».

- «من السهل الحديثُ عن الأمر، لمن لا يعيشُ ضيقي وشكوكي وخوفي».

* «لن يخلِّصَكِ أحدٌ منها. فقط وحدكِ أنتِ يمكنكِ التخلُّصُ منها».

- «ما الذي يمكنني فعله؟ لا يمكنني فعل أيِّ شيء».

* «بل يمكنكِ. يمكنكِ عدمُ السماح للأمر بأن يتكرَّر».

- «أنا؟ لوحدي أنا؟».

* «وأنتِ أيضاً. إنكم ملايين. لستِ وحيدة. سيتوجَّبُ عليكم أن تقرِّروا. إما هكذا أو هكذا».

- «لويزا تلك كانت قد اتَّخذتْ قرارها حينها، واستطاعت أن تتأقلم مع الأمر. ولكن ماذا عني؟».

كُنتُ أشفِقُ عليها. تلكَ الصغيرة المهمومة المعذبة.

* «إنها ليلة غريبة يا حبيبتي الصغيرة. فبدلاً من النومِ أو ممارسة الحب، أروي لكِ تلكَ القصص القديمة».

- «أتريدُ ممارسة الحب؟».

* «لا، كلا، لم أقصِدْ ذلك».

- «أتريدُ أن تَخلُدَ إلى النوم؟».

* «ربَّما سيكون ذلك أفضل».

- «لا تذهبْ. تحدَّثْ، أخبرني. أشعرُ براحة عندما تتحدَّث. وأنا مرتاحةٌ لوجودي قريبةً منكَ هكذا، ربَّما بالنسبة إليك لا يعني ذلك شيئاً، لكن بالنسبة إليَّ فهو يعني الكثير. ربَّما ستساعدني، وربما قد ساعدتني».

* «وحدكِ أنت من تستطيعين مساعدة نفسك».

جلسنا بالقرب من بعضنا البعض، وضعت يدها حول عنقي وأنا أمسكتُ بها من خصرها. لقد فوَّتُّ تلكَ الفرصة عندما كان في وسعي دفعها نحو الأريكة. لقد مرَّتْ تلك اللحظة التي كنت أرغبُ فيها في فعل ذلك منذ وقتٍ بعيد. لم أستطعْ. لم يكن ذلك ممكناً. والدها كان مجرمَ حرب. ربَّما ما كان للأمر أن ينتهي بطريقة جيدة. لو أنها لم تخبرني بذلك... لكنها أخبرتني ولم يعد في الإمكان التراجع. و لكني أيضاً لم أكن أرغب في النهوض والمغادرة.

- «أنتَ أيضاً ليس في وسعك التخلُّص من الأمر، أليسَ كذلك؟ فعندما تلتقي بأصدقائك، ومهما كانت بدايةُ حديثكم فإنكم ستصلون في نهاية المطاف إلى الحديث عن أمرٍ ما هنا».

* «هنالكَ أمورٌ أحدث نتكلَّم بها يا حبيبتي الصغيرة، ولكنك على حق. ليس في مقدوري التخلُّصُ من ذلك. وربَّما ما كان ذلك ليكون جيِّداً».

- «تحدَّثْ، أخبرني عن تشارلي. تحدَّثْ عن أيِّ شيء...».

- 7 -

نادراً ما التقيتُ بتشارلي في الأسابيع الأخيرة قُبيلَ رحيله. بدا لي وكأنه كان يتجنَّبني متعمِّداً، ولكن كان من الممكن أن يبدو له الأمر كذلك أيضاً. كان يتركُ لي على الطاولة رسائلَ مكتوبة تتعلَّقُ بعملنا بالتبغ وأنا كنتُ أتركُ له النقودَ في الدُرج. قليلاً ما كنت أنام لدى لويزا يا حبيبتي الصغيرة، فكنتُ أعوِّضِ ذلك في منزلنا المشترك. كنتُ دائماً آخذ قيلولةً بعد الظهر. وكان يعرف ذلك، فتوقَّف عن المجيء إلى المنزل بعد انتهاء ورديته. أنَّبني ضميري بشدَّةٍ على ذلك، فقد كنت متطفِّلاً وبدا لي الأمر وكأني طردتُه.

في إحدى المرَّات كان الأمر مختلفاً. حيث أتى إلى المنزل باكراً، ووجدني مستلقياً على الأريكة.

«انهض!». أخذ يصيح نحوي. «لا تتمدَّدْ هنا كالخنزير!».

نهضتُ من دون أن أنبسَ ببنتِ شفة، وجمعتُ بعضاً من أغراضي. لم يكن لديَّ الكثير. ولم أكن أرغبُ في الشجار معه. أردتُ المغادرة من دون قولِ أيِّ شيء. يبدو أن الوقت قد حان لأن نفترق، كان عليَّ أن

أفعل ذلك منذ زمن، وبشكلٍ ودِّي، لكنه أرادَ الشجار. لاحظتُ ذلك فوراً حال دخوله.

«اغربْ عن وجهي وحسب»، كَشَّر في وجهي. «اذهب وانتقل للعيش لدى تلكَ الخنزيرة الألمانية، تلكَ العاهرة الساقطة ذاتِ ثديي البقرة».

ضَربتُه، ضَربتُه بكلِّ قوتي. هوى متراجعاً نحو زاوية الغرفة وارتطم رأسه بالحائط. وبسرعةِ البرق كان يقفُ أمامي مجدَّداً. نسيتُ في نوبةِ الغضب التي أصابتني بأنه كان ملاكماً محترفاً. فتلقَّيتُ ضربةً هائلةً كادت أن تقتلعَ رأسي.

هويتُ إلى الأرض.

- «انهض! انهض، يا خنزير!».

نهضتُ على قدميَّ. هجمتُ عليه، فاسودَّت الدنيا في عينيَّ وأخذتُ أحصي النجوم. كان هنالكَ شيءٌ ما يزعجني في حنكي الأيمن، كنتُ أشعرُ بطعمٍ مالحٍ ورطبٍ في فمي. مسحتُ فمي بظاهر يدي وقد كانت مُدَمَّاة، جعلني الدم أستشيط غضباً. قفزتُ نحوه. فعاجلني بضربةٍ فظيعةٍ أسفلَ البطن، قضتْ عليَّ، آلمني ذلك بشدَّة، أحسستُ بأني كنت أوشكُ على تقيُّؤ أمعائي. ومباشرةً أحسست بضربةٍ مخدِّرةٍ رفعتني من على الأرض، وشيء ما ضربني بقسوةٍ على رأسي. ففقدتُ الوعي.

استيقظتُ وأنا ممدَّدٌ على الأريكة، كان تشارلي يضعُ لي كمَّاداتٍ باردةً على جبيني. تنفَّسَ الصعداء عندما فتحتُ عينيَّ.

- «غبي! لا تبدأْ عراكاً مع ملاكم أبداً...».

تحسَّستُ رأسي. كنتُ أشعرُ وكأن شلالاً يهدرُ في داخله. كلُّ شيءٍ كان يُؤلمني. لا بدَّ من أنَّ مؤخَّرة رأسي قد ارتطمت بشيءٍ حاد، كان شعري دبقاً ويداي مضرَّجتين بالدماء.

- «أرِني...»، رفعني. «لقد جُشَّ رأسكَ».

* «وليس جمجمتي إذاً»، حاولتُ أن أمازحه. كانت ابتسامةً بائسةً جدّاً.

أجلَسَني، وغَسلَ لي رأسي بمنشفة، ووضع لي اليود.

- «يجب أن تذهب إلى الطبيب».

* «أنت من سيذهب إلى الطبيب إن تشاجرنا مرَّةً أخرى».

أحسستُ كيف كان وجهي يتورَّم. كانت الأفاعي تتصارع في معدتي. كلُّ حركة كانت عذاب. عندما نظرتُ من حولي باحثاً عن تشارلي، لم أجده. لا بدَّ من أنه رَحل. كان محقاً. لم أكن أستحق غير ذلك. كنتُ أحمقَ معميَّ البصيرة، من أجل ألمانيةٍ تخلَّيتُ عن صديقي، أكثر من مجرَّد صديق، لقد تكفَّل بي عندما كنتُ في الحضيض، أطعمني وكساني، عشنا معاً الكثيرَ من الليالي الرائعة، قاسمني كلَّ شيء. لقد كان على صواب ومحقّاً بضربه لي هكذا. هنالكَ حربٌ دائرةٌ الآن، والملايين يموتون، كل من ما زال يمتلك القليلَ من القوَّة كان يحملُ سلاحاً ويبيدُ هذه الحثالة الألمانية. وأنا أعاشرُ امرأةً ألمانيةً وأتاجر بالتبغ المسروق.

لن أذهبَ إليها بعد الآن. لا اليوم ولا في أيِّ يومٍ آخر أبداً.

عاد تشارلي ووضعَ على الطاولةِ زجاجتين من البالينكا. لم يتخلَّ عني، ذهب ليحضرها من أجلي فقط.

«تعال...». قالها متجهِّماً. كنتُ لا أزالُ أجدُ صعوبةً في التعافي، وجلستُ إلى الطاولة في الجهة المقابلة له. كان قد شَرَع بصَّبِ الشراب.

- «اشرَب. تبدو كجثَّةٍ مصابةٍ بفقر الدم. ستشعرُ بتحسُّن».

شَربتُ وشرِبَ معي. شربنا مِن كؤوسٍ كبيرةٍ حتى فَرِغتْ. كانت تسبّبُ شعوراً بحروقٍ رهيبةٍ في الفم، ولكنه كان على حق، انتعشتُ. شعرتُ كيف كانتِ الحرارة تنتشرُ في أنحاء جسمي. عاودَ صبَّ الشراب وغدت الكؤوس ممتلئةً مجدَّداً.

- «كنتُ اليوم في زيارةٍ للسيدة شيرف في المشفى»، أخبَرَني، «لا أظنُّ بأنها ستتمكَّنُ من السير يومياً، مع أنها لا تعرفُ ذلك. لقد وافقتْ على أن تسكُنَ هنا، لكنها تطلبُ منكَ أن تقومَ بزيارتها من وقتٍ إلى آخر. ستكون سعيدةً لكونِ المنزل لن يبقى بلا أية عناية. إنها تعتقدُ بأنكَ مسجَّلٌ هنا بشكل نظامي، لا ضرورة لأن تخبرها غير ذلك. زُرْها بين الحين والآخر وأحضرْ لها شيئاً حلواً ومغذِّياً. الطعام هناك سيِّئ».

ماذا؟ أما زلتُ فاقداً للتركيز؟ لم أفهم؟ لم أستوعب؟ عمَّ يتحدث تشارلي؟ لماذا ستكون سعيدةً لعدم بقاء المنزل بلا عناية؟

- «غداً سأرحل. لقد سئمتُ من كلِّ هذا، من ألمانيا ومنك. لم أذهبْ إلى براغ منذ عامِ تسعة وثلاثين. لقد أعطوني جواز سفر».

شيءٌ حارقٌ كان يندفع من معدتي إلى حلقي.

«تشارلي...». صحتُ، كان أشبه بعواء.

- «لا تبدأْ بإظهار المشاعر الآن، لقد تخلَّيتَ عني، لذا احتفظْ بها لنفسِك، لأنكَ لن تفتقدني. هنالكَ تبغٌ كافٍ، ستتحمَّل حتى قدوم

الربيع ومعه ستنتهي الحرب. ولا تكن أحمقَ، واجعلِ الألمانَ يدفعوا. في صحَّتك...».

بعد ساعةٍ كان كلٌّ منَّا يمسكُ الآخرَ من عنقه، ونصيح، لا بدَّ من أنَّ منظري كان غريباً جدّاً وأنا أغني مع فمٍ متورم "وداع الأم هو الفراق الأكثر حزناً" و"فطائر البطاطس". بين الحين والآخر كان تشارلي يضرِبُ بقبضته على الطاولة ويصيح: «كلُّ شيءٍ مُقرف، أنت مقرف، الحرب مقرفة، العالم مقرف...».

عندَ منتصفِ الليل قاطعنا صوتُ جرسِ الباب. رَنَّ لفترةٍ طويلةٍ، كان يبدو مُلِحَّاً وطارئاً. قفز تشارلي ونظر إليَّ بتمعُّن. صحونا من نشوَتِنا. كان تشارلي شاحباً وأنا كنتُ أرتجفُ كشجر الحور الرجراج. يا إلهي... لقد أتوا! أراد تشارلي الرحيلَ غداً بلا عودة. فأتوا اليوم...

توقَّفُ الجرسُ عن الرنين، ليعاود مجدَّداً وبحدَّةٍ وإلحاحٍ أكثر.

«مهما حدث...». قال لي تشارلي، «أنتَ لا تعرفُ شيئاً. دعوتكَ لاحتساء البالينكا فقط...».

كان تَصرُّفَ صديقٍ، لكنه سيكونُ غير مجدٍ. فإن عثروا في القبو على التبغ، سيسلخون جلدنا من الضرب والتعذيب.

توجَّه تشارلي نحو باب المنزل.

كانت لويزا...

كيف تتجرَّأ! من سمح لها! كيف عثرتِ عليَّ أصلاً؟

«ماذا تريدين هنا؟». صِحتُ في وجهها بغضب. كانت تنظرُ إليَّ مذعورة. دعاها تشارلي للدخول مع انحناءةٍ ساخرة.

- «تشاجرَ الرفيقُ مع حافة الطاولة... لكن ستندمل جروحه...».

أرادَت أن تركضَ للخارج لكنَّ تشارلي أمسكَ بها من كُمِّها.

- «لا تذهبي. يجبُ أن تحتسي الشرابَ معنا. إننا نحتفل. سأرحلُ غداً. وجَلسَتُنا تفتقِدُ للنساء، فبلا نساءٍ لا يوجدُ احتفال...».

سَحبَها إلى الطاولة وأجبرها على الجلوس. لقد كانَت مرتبكةً لدرجة أنها لم تعترضْ على شيء. ملأ تشارلي قدحاً آخرَ بالبالينكا كريهة الرائحة.

«في صحَّتك». وشَرِبَ وهو يضحكُ ساخراً، «على جمالكِ وسعادتك وسعادة كلِّ النساء الألمانيات... أم أن هذه البالينكا، هذا الشرابُ الأوروبي غير المرخَّص لا يعجبكِ؟».

طبعاً لم يكن يعجبها، فقد كان ذا رائحةٍ كريهة. وكان تشارلي يشعرُ بتفوُّقه فاستمرَّ بالحديث.

- «إنه شرابٌ بولندي لا يُعلى عليه. تفوح منه رائحة الحرب. ففي أيامنا هذه تفوح رائحة الحرب من كلِّ شيء، فلمَ لا تفوح من البالينكا أيضاً؟ اشربي القدحَ بأكمله، أنتِ مدينةٌ لنا بذلك، لقد شربنا حتى الثمالة، عليكِ أن تلحقي بنا، فلا مرح مع امرأةٍ صاحية».

كانت لويزا تنظرُ إليَّ نظرةَ تأنيب. لقد فهمتُ ما تقصده جيِّداً. إذاً هذا هو صديقكَ الرائع؟ هذا الحقير؟ هذا الهمجي ذو الأنفِ الأفطس؟

«لم يدعكِ أحدٌ إلى هنا...». صحتُ في وجهها، فقفزَتْ من مكانها، لكن تشارلي أعادها مجدَّداً إلى كرسيِّها.

- «لن تذهبي إلي أي مكان! ستبقين هنا! لقد تسلَّلتِ بيننا، وقضيتِ

على أجملِ شيءٍ في العالم يمكنُ لرجلٍ أن يحصلُ عليه، لقد سرقتِ لي صديقي، والصديقُ في يومنا هذا هو كلُّ شيء. جعلتِ من رجلٍ جرواً مطيعاً. اشربي... يجبُ أن تَشربي. أريدُ أن تشربي! كلَّ ما في القدح...».

انصاعتْ له. لقد أبهرها وأبهرني أنا أيضاً. كانَت كضفدعٍ مُنوَّمٍ مغناطيسياً يَدخلُ إلى فمِ ثعبانِ الماء. ارتعشتْ من القرفِ لدى شعورها بمذاقِ البالينكا، لكنها استمرَّت في الشرب، وشَرِبتها كُلَّها. كان تشارلي يُحدقُ فيها إلى أن فرغتْ من قدحها، ثم رَفعَ قَدحهُ وسكبهُ في حلقِه، بل بدا ذلكَ وكأنهُ يدفعهُ دفعاً مرَّةً واحدةً إلى داخل حلقِه. سرعان ما ارتعدَ جرَّاء ذلك واخضرَّ لونه، ثمَّ غطَّى فمه وركض نحو الحمام. سمعنا كيفَ كان يتقيَّأ.

«ما كان عليكِ القدومُ إلى هنا ...». صرختُ في وجهها غاضباً.

- «ماذا حدثَ لكَ؟».

* «لا شيء. هذا ليس من شأنكِ».

أردتُ أن أكونَ فظّاً، أردتُ طردَها. ألمانيةٌ لعينةٌ لماذا أتت إلى هنا؟

- «هل تشاجرتُما؟».

كان تشارلي قد عاد. ولونُه لا يزالُ أخضر.

«املأْ...». صاح، «املأ الكؤوس من جديد!».

«لا تَشربْ...». توسَّلتْني لويزا.

- «ماذا تريدين هنا؟ من أنتِ لتأمريه؟ اشربي أو اخرجي من هنا! لم يدعكِ أحدٌ إلى هنا. ألا ترَين بأننا نودِّعُ بعضنا. ما زال هذا مسموحاً

على ما أذكر. اعتقدتُ بأننا سنمرحُ معكِ هنا، فبلا نساء لا يوجدُ أيُّ احتفال، لكن امرأةً لا تشرَب هي امرأةٌ مزعجة. إن لن تشربي، فارحلي من هنا. لم يدعكِ أحد، ولا أحدَ يرغمكِ على البقاء».

اندفعتْ إلى الخارج، لم يكن البابُ مقفلاً.

- «حسناً إذاً، لنشرب حتى الثمالة! "أكواخٌ تحت الجبال"».

كنا نصرخُ ونشربُ ونبكي. أنتَ صديقي المفضَّل... بربَرَ تشارلي، صديقي المفضَّل... أحبُّكَ... خُنتني من أجلِ ألمانية... وبكى.

شربنا الزجاجة الثانية. وشعرتُ بمذاقٍ يشبِهُ السمادَ في فمي. سقطَ تشارلي من على كرسيه إلى الأرض وغطَّ فوراً في نومٍ عميق. لم أتمكَّن من سحبِه ووضعه في فراشه إلا بعد جهدٍ جهيد. ثم استلقيتُ بجانبِه وأنا ما زلتُ منتعلاً حذائي، فنمنا كما نحن.

استيقظتُ أولاً. كان تشارلي لا يزالُ يَشخُر. كان رأسي ثقيلاً وكأنَّ فيه رصاصاً، يداي وقدامي أيضاً. أما فمي فقد كان جافّاً، جافّاً وذا رائحةٍ كريهة. أخذتُ سيجارة، لكني لم أستسغ طعمها. كنتُ في حالةٍ سيِّئةٍ. ذهبتُ لأغتسل، وضعتُ رأسي تحت الصنبور وفتحتُ الماء البارد.

لم ينفع الأمر، لم ينفع معي أيُّ شيء. كنتُ أشعرُ بالغثيان لمجرَّدِ التفكير بالطعام. وكان المكان مشبعاً برائحةِ الشراب. بالكادِ استطعتُ فتحَ النافذة. نظرت إلى المرآة. كان فمي متورِّماً، كدمةٌ على ذقني، وضمادٌ على عيني. نظرت إلى الساعة. كان الوقتُ بعد الظهر. يا إلهي تشارلي سيفوتكَ القِطار! فليتأخَّرْ، لن يرحل، فليبقَ هنا. لن أذهبَ إليها بعد الآن. إنها ألمانية. تشارلي على حق...

كلُّ فكرةٍ كانت مؤلمة. جلستُ على الكرسي، ونظرتُ بغباء إلى الفوضى الموجودة على الطاولة. لن أوقِظه، فليتأخرْ، ربَّما لن يرحل أبداً، وكلُّ شيءٍ بيننا سيعود إلى سابقِ عهده مجدَّداً...

لكنَّ تشارلي انتفضَ على السرير فجأةً.

«كم الساعة؟». سألَ مذعوراً.

فأخبرته. «يا إلهي...».

نهضَ في الحال واقفاً على قدميه، وخلع ملابسه، وقميصه، وأخذ حمَّاماً بارداً. كان يتنهَّد ويصرخ، ثم خرج من الحمَّام عارياً وأخذ يجفِّفُ نفسه بمنشفةٍ سميكة. ارتدى ملابسه بسرعة، ورمى أغراضه في حقيبَتَي سفر، لكنهما لم تمتلئا حتى.

- «أحضِر لي تبغاً بسرعة. كيلوغرامان سيفيان بالغرض».

وضعَهُ في أسفلِ الحقيبة.

* «يمكنكَ البقاءُ للغَد».

- «لا أستطيع، لن أتحمل يوماً آخرَ هنا».

رَكِبنا الترام. أصبحوا يسيِّرونه بشكلٍ نادرٍ وغير منتظم. لا أعرف كيف تمكنَّا من الصعودِ إليه مع الحقائب. كان الناسُ ينظرون إلينا نظراتِ كراهيةٍ وريبة. وبالفعل لم يكن منظري أخَّاذاً.

* «حذارِ يا تشارلي من أن يمسكوا بكَ مع كلِّ هذا التبغ...». قلتها متخوِّفاً ونحن ننزلُ أمامَ المحطة.

- «لا تقلقْ. لا يفتِّشون من يغادِر. لا يوجد ما يمكنُ إخراجه من هنا، كلُّ شيء الآن يُجلَبُ إلى ألمانيا، لذا هم متشدِّدون جدَّاً مع القادمين.

من أين برأيك لرجالِ الشرطة تلكَ البطونُ المنتفخة؟ من المؤكد أنها ليسَت نتيجة المخصَّصات. فنحن من يُطعِمُهم...».

وراح تشارلي يشتُم المدينة، والألمان، وكلَّ شيء.

- «إن الأكواخَ الريفية المنعزلةَ عِندنا هي بالفعل أكواخٌ ريفيةٌ منعزلة. فهي تقع في وسطِ حقل ما غير مرتبة، أمامها بضعة أشجار من الزيزفون أو التفَّاح المُعمِّر، فتجعلُ المرء يشعرُ بأن هنالكَ شيئاً ما حيّاً وأن أحداً ما يعيشُ هناك، يعاني ويطمحُ بشيءٍ ما ويعتني بأمرٍ ما. أما هنا لو ذهبت خارج المدينة لوجدت القرى والأكواخ الريفية المنعزلة تبدو كمشهد أوبريت جعلوه يتلاءم مع البيئة المحيطة. إنه عالمٌ منمَّقٌ بأرواحٍ منمَّقة. لطالما عاشَ الألمانُ وِفق أفكارِ وأهواءِ أحدٍ ما آخر، وعليه بالطبع أن يكون ألمانياً أيضاً. الأمرُ نفسه ينطبق على هذه المدينة أيضاً. إنها عبارةٌ عن تحفةٍ مُقلَّدة، لا تبدو لكَ بأنها نشأتْ تدريجياً، بل وكأنَّ أحداً ما اخترعها دفعةً واحدة. انظرْ كم هو نظيفٌ المكان هنا! فمن غير الممكن أن تروقَ لي امرأةٌ تستحمُّ في المغطسِ مرَّتين يومياً متخلِّصةً من أيِّ رائحةٍ لبشرتها، وخائفةً من أي لمسةٍ تنقل معها الجراثيم. وهذه المدن النظيفة تبدو لي هكذا، فالألمان يعانون من عقدة النظافة. كان يمكن للفاشية أن تظهرَ في أيِّ مكان آخر، فالألمان لم يقوموا باختراعها. لكن عندما تربطها مع صفاتهم، عندَها فقط ستتكَشَّف لكَ كاملُ فظاعتها».

كنا نقفُ في صالةِ المحطَّة. أخذتْ مشاعرُ الاشتياق إلى براغ تتغلَّب على تشارلي. سيصِلُ مساءً إن لم يتأخَّرْ لعدَّة ساعات. ستكون المدينة خاوية، والشوارع يعلوها ضبابٌ رمادي. فغالباً ما يسود ضبابٌ كهذا براغ، مشكِّلاً غطاءً من الدخان والضباب والغبار الذي يمتدُّ فوقها.

- «سأتسكَّع. لن أقوم بأيِّ شيءٍ آخر. سأتسكَّع حتى نهاية الحرب، سأصعدُ مجدَّداً إلى كلِّ الأبراج، وأستكشف القنوات تحت الأرضية، لم أكن هنالكَ منذ خمس سنوات، آمل أن لا يكون الكثيرُ قد تغيَّرَ هنالك».

* «لم أفهمْ أبداً لماذا لم تغادرْ هذا المكان من قبل، لمجرَّدِ عطلة قصيرة، إن لم ترغب في الرحيل نهائياً. لم تكن مرغماً على البقاء هنا خمسة أعوام كاملة».

- «هل رأيتني مرة عارياً؟».

هل رأيته؟ كان عليَّ أن أَفكِّر في الأمر. كلا، لم أرَه. لا في الواقع رأيته.

* «رأيتكُ اليوم، عندما خرجتَ من الحمام».

- «لم ترَ شيئاً. يا أخي أتعرفُ كيفَ كان الأمرُ مع النساء؟ لم أكمِلْ ليلةً واحدة مع أيٍّ منهن قط. لم ترني أيٌّ منهنَّ عارياً بالكامل أبداً. بعض النساء يحبُّون المداعبات. كنتُ أخاف أن أغفو ويكتشفن الأمر».

لم أفهم شيئاً ممَّا كان يتحدَّث به. ما علاقة ذلك بفراقه لبراغ خمس سنوات وبُعدِه عن دياره؟

- «أنا يهودي. أنا يهوديٌّ مختون. لا أحد هنا يعرفُ ذلكَ عني أبداً. حتى أنت ما كان عليَّ أن أخبركَ بذلك، لكني اليوم ضعيفٌ بعض الشيء، ولا أقوى على كبتِ ذلك في داخلي أكثر. كنتُ أخافُ من شيءٍ واحدٍ فقط، أن أمرضَ لدرجة تستدعي إدخالي المشفى. فقط هذا ما كنتُ أخافُ منه».

«تشارلي»، قلتُ، «تشارلي...».

- «لم أستطع الوصولَ إلى إنكلترا. وعندما قرَّرتُ ذلكَ كان الوقتُ قد تأخَّر. ولم يعد لليهودي في أوروبا مكانٌ يختبئ به. إلا مكان واحد فقط: ألمانيا».

* «لكنَّ هذا انتحارٌ يا تشارلي. لا يمكنكُ الذهابُ إلى براغ، لا يمكنُك، قد يَتعرَّفُ عليكَ أحدٌ ما ويُخبِر عنك. قد يمسكون بكَ في مداهمة».

- «لم أعد قادراً على تحمُّلِ هذا المكان، ولا ليومٍ واحد. ولقد قمتُ بحسابِ كلِّ شيء جيِّداً. لن تستمِرَّ الحربُ فترةً طويلة، بضعة أشهر فقط. هنالك حارسةُ بناء طيِّبةٌ في منزلنا ستساعدني، لن تسلِّمني. لا يمكن أن يحصُلَ لي أيُّ شيء. لقد تحمَّلتُ المكان هنا لسنوات، لكن الآن لم يعد في وسعي تحمُّل دقيقةٍ واحدة. إن تمكَّنوا مني فليمسكوني. لم يعد في مقدوري فعل أيِّ أمرٍ آخر. يومٌ آخرُ بعد ويُقضى عليَّ».

عِندَها صَفَّرَ مُوظَّفُ المحطَّة وصَعدَ تشارلي إلى القطار. طبعاً كعادته رَكبَ في مقطورةِ الدرجة الأولى. وأخذ يصرخ نحوي بعباراتٍ يُفترض أن تكون مبهمةً لكنه لم يُوفَّقْ في ذلك:

- «كفى مشاعر. بعد الحرب نلتقي الساعة السادسة في "كاليخ"[1]..».

لقد رحلَ وتركني. رأيته كيف كان يبحثُ عن مكانٍ له في المقصورة. لم يترك النافذة واستمرَّ في التلويح لي. تحرَّكَ القطار. وقفتُ طويلاً وأنا أنظرُ إلى السكَّةِ التي كانت تختفي في المنعطف. عُدتُ سيراً

---

1 - U Kalicha: حانة مشهورة في براغ. (م).

على الأقدام إلى المنزلِ الذي كنا نسكنُ فيه معاً. كانت رائحةُ الغرفةِ كريهةً جدَّاً والفوضى تَعمُّ المكان، لكني لم أكترثْ لذلك. استلقيتُ على السرير مرتدياً ملابسي وأخذتُ أحدِّقُ في السقف الأبيض طويلاً ولساعات، بلا أية أفكارٍ وبلا ألمٍ وبلا شعورٍ وبلا طعام. لم أكن أرغبُ في أيِّ شيء. لا العيشَ ولا الموت. فقط الاستلقاء هكذا من دون أن أُضطرَّ إلى النهوض أبداً.

بقيتُ على هذا المنوال ليومين. كنتُ أنهضُ فقط لتناول الطعام أو الشراب. أكلتُ آخر البقايا المتبقية من الطعام، وفي النهاية لم يبقَ شيءٌ سوى قطعةٍ قديمةٍ من لحم الخنزير المقدَّد. وفي مساء اليوم الثالث نهضت. ثم اغتسلتُ وارتديتُ قميصاً نظيفاً. ذهبتُ إلى "أتلانتيك"، لكن لسبب ما لم أندمج هناك. كان بوريس موجوداً مع ميريلا فتاته الفرنسية الشابة. كان في إمكانها اختيار أحدٍ آخر. لم يكن بوريس مسلياً، ولا أي شيء آخر. طلبتُ زجاجة شراب بولندي، لكني لم أقربْها أبداً.

«اشربوها...». قلتُ لهم عند الطاولة. وخرجتُ إلى الظلام.

بقيتُ أسبوعاً أتسكَّع تائهاً كمن يمشي في نومه، لا أفكِّر في شيء. لا في تشارلي، ولا لويزا، ولا في الحرب، ولا في نفسي. لم أكن أريدُ الموت، ولا الحياة. لم أكن حزيناً، ولا سعيداً، كنتُ لا شيء. تحوَّلتُ إلى مجرَّد وجودٍ بلا إرادةٍ ولا فكرةٍ في حالةٍ من الضبابية الدائمة. كنتُ أحدقُ في السقفِ الأبيض فوق السرير.

هذا كان كلُّ شيء.

ثمَّ هطل الثلج...

وفي المساء ذهبتُ إلى "أتلانتيك"، جلستُ لساعتين مع بوريس وفتاته، لم نتحدَّثْ أبداً، فقط كنا نشربُ تلكَ القذارة، الشيطان وحده يعرفُ من أين أتى كل ذلكِ الشراب فجأة. عندما خرجتُ عند منتصفِ الليل إلى الشارع كان الثلجُ في كلِّ مكان. لم يكن كثيراً، سنتيمترين فقط. لم يعد يتساقط الثلج. لكنه كان أبيض، ناصعَ البياض. وعلى الرغم من الليل والظلمة، كان بياضه يشعُ في الشارع وعلى الأسطح وحافَّات النوافذ.

مَشيتُ بطريقٍ مُطوَّلةٍ عبر الكورنيش. كان الثلج هناك نظيفاً، لم يكن أحد قد مرَّ قبلُ من هناك، غَرفتُ القليلَ منه من على الدرابزين، كان له طعمٌ قابض، يبقى بعده في الفم أثرُ طعمٍ لا يمكن وصفه، مختلفٌ عن أيِّ طعمٍ آخر.

كنت أتوقُ بشدَّةٍ إلى لويزا....

أسرعتُ في المشي. انعطفتُ نحو الشارع المعروفِ، وتسمَّرتُ أمامَ البوابة. ماذا لو طردتْني؟ لم يكن أمراً جميلاً ما عاشتهُ معنا. لو أن أحداً ما فعلَ بي ذلك، لن أرغبَ في رؤيته مجدَّداً على الإطلاق كائناً من كان.

غادرتُ برأسٍ مطأطئ. لم أملك ما يكفي من الشجاعة لأظهرَ أمامها، ولكن بذلك كان اشتياقي لها أكبرُ وأكثرُ ألماً. عدتُ، فربَّما لم تنمْ بعد. الستائر كانت محكمة، لم يكن ينفذ منها ولا أدنى بصيص ضوء. ربَّما لم تنمْ بعد، ربَّما ليست غاضبة بتاتاً، ربَّما تنتظر.

ماذا يحدثُ لي؟ لقد طردتُها، لقد نفد صبري من تلكَ الألمانية، لولاها ربَّما كان تشارلي لا يزال هنا، عيدُ الميلادِ بعد غدٍ، كان يمكن أن

نمضيه معاً. لقد قلتُ في نفسي إنني لن أذهب لرؤيتها مجدَّداً، ما الذي يحدث لي إذاً؟ هل أنا رجلٌ، أم أني مجرَّدُ طرطور كما قال لي تشارلي؟

مضيتُ بخطى واثقة. تباً لهذه الألمانية. وعُدتُ إلى المنزل لأنام.

لكن في الصباح ذهبتُ إلى شارع زيغفريد.

شارعُ المحتالين، كان يَشهدُ حالة ازدهارٍ كبيرةً ويعجُّ بالحياة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كان سوقَ عيدِ الميلادِ الوحيدِ في المدينة. وكانتِ النساء الألمانياتُ يتوافدن إليه بأعدادٍ غفيرة، ويتوقّفن بالقربِ من الأجانب ذوي الأشكال المنفِّرة، فقد كنَّ مستعدَّاتٍ لشراءِ أيِّ شيء؛ أيِّ شيء أقصد بها هنا أيَّ شيءٍ فعلاً. ساعة يدٍ مقابل آخر خاتم؟ أو شبُّوط عشاء عيد الميلاد؟ أو علبة سيغار أولتيه الهولندي المعدنية؟ أو شموعٌ للشجرة؟ أو حذاءٌ جديد؟ في شارع زيغفريد فقط كان في الإمكان الحصولُ على كلِّ هذا وليس في أيِّ مكانٍ آخر، فالمتاجرُ الموجودة في الحيِّ الراقي كانت خاوية، بعد أن استلم الجميع مخصَّصات الجوز والمارغرين والطحين والسكر.

صادفتُ البولنديَّ من "أتلانتيك". كان لا يزالُ بلا قميصٍ ولكن مع خرقة تغطِّي رقبته وسترة مزرَّرةٍ حتى حلقه يظهر من تحتها مثلَّثٌ من الجسد العاري. لم يكن لدى البولنديِّ ما يتاجر به أو ربَّما لم يكن يعرفُ كيف يتاجر. كان يتسكَّعُ باستمرارٍ حول شارع زيغفريد، فأحياناً كان أحدهم في حاجةٍ إلى حمَّالٍ أو مراسلٍ أو لمساعدةٍ ما. أوقفني قائلاً: «أعطني سحبة سيجارة». أعطيته السيجارة، ففرح.

* «هل تعرفِ إن كان إيتيان في المنزل؟».

لم يعرفْ. وكيفَ لهُ أن يعرف؟ إيتيان كانَ في مستوى أعلى منه بكثير. إيتيان كانَ يسكنُ في شارع زيغفريد نفسه. كان المنزلُ له لوحدِه فقط. كان من نخبة شارع زيغفريد. طبعاً لم يكن في مقدوره أن يقارنَ نفسه معي أو مع تشارلي، فنحن كنا في مستوى أعلى.

هممتُ بالذهابِ إليه، لكن عندها خطرتْ لي فكرة فاستدرتُ للخلف.

«فلوديك...». ناديتُ على البولندي فهُرِع عائداً نحوي.

* «أتريدُ تبغاً؟ الكثيرُ من التبغ؟».

لمعَت عيناه. الكثيرُ من التبغ؟ مقابل ماذا؟ ماذا عليه أن يفعل؟ من أجل الكثيرِ من التبغ سيفعل أيَّ شيءٍ في العالم.

* «أحتاجُ إلى شجرةِ تنوبٍ فضي. لا أريدها كبيرة، نحو مترٍ واحد».

خبا البريقُ في عينيه. إنه مستعدٌّ مقابلَ التبغِ، مقابل الكثير من التبغ، أن يفعلَ أي شيء في العالم. ولكن شجرة تنوب فضية، لا.. كلا...

* «يوجدُ مِنها في الحدائق. لستَ مضطرَّاً إلى اقتلاعها منذ جذورها، قلتُ لك يكفي نحو مترٍ فقط».

أخذ يفكِّر، وكنتُ أعرفُ فيما يفكِّر. فغوبلز كان قد أعلنَ بأنَّ الشعبَ الألماني في وسعه هذه المرَّة أن يتدبَّرَ أمره بلا شجر التنوب لعيد الميلاد. طبعاً لم يكن هذا الإعلانُ من أجلِ الأشجار، وإنما لعدمِ وجود زينةٍ لها. استدعى ذلكَ الإعلانُ تغييراً في المهام الموكلةِ إلى الشرطة فلاقى منهم ترحيباً كبيراً. قاموا بإغلاق المدينة أمام الغزو المتوقَّعِ لأشجار التنوب، وفي المساء كانوا يتربَّصون في عُتمةِ

بوّابات المنازل مختبئين خلفَ الأشجار. القلَّة القليلة من أشجار التنوب التي استطاعت الدخول إلى المدينة تمكَّنتْ من الوصولِ إلى المنازل. فرجال الشرطة كانوا الوحيدين الذين سيحصلون على شجرة عيد ميلاد.

لكن أنا كنتُ أريدُ شجرة تنوبٍ فضي. كان ذلك خطيراً جدّاً بالنسبة إلى البولنديِّ وقد يودي بحياته. سينجو فقط في حال لم يعترضْهُ أحد. أن تحملَ تحت إبطكَ شجرة تنوب، شجرة تنوب فضية، قُطعَت من حديقة، كان جنوناً، وانتحاراً. لكنني قلتُ إنه سيكونُ هنالك الكثيرُ من التبغ.

«كَم؟». نطقها مثقلاً، وهو يحاول أن يلفظها مرغماً.

* «كيلوغرام».

- «كيلوغرامان...». أخذ يساوم.

* «حسناً. كيلوغرامان. غلِّفْ شجرةِ التنوب بالورق واربطها بحبل قيطان. أحضرها إلى الجسر الجديد عند الساعة الثامنة، تعرفُ المكان؟».

هزَّ برأسه. فوجئ بأني وافقتُ بسهولة على كيلوغرامين.

- «ثلاثة...».

التفَتُّ مبتعداً عنه. أمسكَ بي بشدَّة من كتفي.

- «حسناً، كيلوغرامان...».

* «تراودني رغبةٌ في التراجع. أنتَ تعرفني، وتعرِفُ أنه لا يمكن التحذلق معي».

- «كنتُ أجرِّبكَ فقط...». راح يعتذر.

كان إيتيان في المنزل. غمزني لدى تعرُّفه إليَّ.

- «ياه! أهلاً بالضيوف، يا أهلاً و يا سهلاً! دائماً كنتُ أقولُ بأن الكلَّ يحتاجون إلى إيتيان...».

إيتيان كانَ فرنسياً صغيرَ القِوام، مليئاً بالعُنفوان، ولكنه ديكٌ جسورٌ من بلادِ الغال. كان يُلوِّحُ بيديه لدى حديثه. وقد كان وجوده هنا قانونياً تقريباً. يبدو أنَّه لديه معارف جيِّدة، فلم يتعرَّضْ لأي عملية تفتيشٍ قط. كان قادراً على تأمين كلِّ شيء.

- «ما الذي تحتاجهُ؟». سأل بشغف.

* «لا أدري. شيءٌ جميل. فعلاً جميل. لكن لا أعرف ماذا يمكن أن يكون».

- «تأخَّرتَ يا أخي، تأخَّرت، كان عليكَ أن تأتي باكراً، من الصعب قبل يومين من عيد الميلاد أن ...».

فهمتُ جيِّداً ما كان يلمحُ إليه. ستحصل على ما تريد، على أيِّ شيءٍ تريد، لكن ذلك سيكون مكلفاً. سيكون مكلفاً جدَّاً. تظاهرتُ عندها بخيبة الأمل وأمسكتُ بمقبضِ الباب.

* «ظننت...»، قُلتها وأنا أُظهِر خيبةَ أملٍ كبيرة، «بأن متجركَ لن يكون خاوياً. كنتُ أقول لنفسي، لم يعد يوجد أيُّ شيءٍ هنا، لكن هنالكِ إيتيان، من المؤكَّد أن لديه شيئاً ما. يا للخسارة! آسف لإزعاجك...».

«انتظر...». قفز نحوي. فجأةً أصبحتُ شديد الاهتمام.

- «فيمَ تفكر؟ شوكولا؟ قهوة؟ بروشوتو؟».

هززت ُبرأسي. لا، لا شيء من هذا. لو كان لديه تلك الشموع والزينة للشجرة...

- «لكن... لا أتعاملُ بالمارك، تعرفُ ذلك...».

أخرجتُ من جيبي علبةَ التبغ، وأخذتُ أَلفَّ سيجارة، واحدةً ثخينة، كنتُ قد أصبحتُ ماهراً وخبيراً في ذلك لألفَّها بيدٍ واحدة، بلَّلتها بشفتي ثم لففتها مرَّةً ثانية بين أصابعي، كانت وكأنها من المعمل.

* «لُفَّ لنفسكَ...». عرضت عليه.

- «حسناً. ستحصلُ على الشموع. وتلكَ التفاهات. ألا تريد مفرقعات».

كلا لا أريد مفرقعات.

* «ماذا تريدُ مقابلَ ذلك؟». سألته. أردتُ البقاء على بيِّنة.

- «لا شيء. مجَّاناً».

تنبَّهت. فعندما يعرضُ لي شيئاً بالمجَّان، فهو يخطِّطُ لشيءٍ مهمٍّ معي.

* «لا أريدُ شيئاً بالمجَّان يا إيتيان. تعرفُ هذا جيِّداً».

- «لكني سأعطيكَ إيَّاها بالمجَّان، كدفعةٍ مقدَّمة. لم تأتِ إليَّ من أجلِ تفاهةٍ كهذه؟».

ثعلب! إنه ثعلب ماكر.

* «إنك ثعلب ماكر».

ابتسم، كان ذلك بمثابة إطراء بالنسبة إليه.

- «طالما أتيتَ إليَّ، ففي الأمر سيِّدةٌ. ليست ساقطة، وإنما سيِّدة.

فأي شيء آخر كنت حصلتَ عليه في مكان آخر. لديَّ مجموعةٌ رائعةٌ من عطور "كوتي". إنها أصلية...».

* «لا أريد، إلا في حال كان لديكَ قلمُ حُمرةٍ جيِّدٌ وطلاءُ أظافِر».

ابتسم الثعلب.

- «لكنها أمريكية، أتعرفُ ذلك؟»

بقاموسه كانت تعني: لكن لا تسأل عن السعر!

اختفى في مكانٍ ما في الخلف وأقفل خلفه. إتيان شخصٌ حذرٌ حيث يمكن لزبونٍ ما أن يباغته بضربةٍ على الرأس. كنتُ أتوقُ كثيراً إلى رؤية مستودعه. عادَ بعد برهة، حاملاً بين يديه عدَّة عُلَبٍ مسطَّحة، ووضعها على الطاولة.

«المعذرة...». قالها وهو متَّجهٌ نحو الباب ليقفِله. «حتى لا يقاطعنا أحد، فعقد الصفقاتِ معك مبهج، لكنه نادرٌ للأسف».

أَراني عيِّنَةَ الألوان.

- «اخترْ...».

لم أكن أجيدُ ذلك، وقد كان هذا خطأً، فعدم معرفةِ أمرٍ أمام إيثيان ما كان ليكونَ في صالحِ المرء.

- «خرنوبي؟ أسود؟ أحمر؟».

* «ربما كستنائي».

- «وبشرتها؟ بيضاء، وردية، بنِّية؟».

* «تميل للبنِّي».

- «طويلة؟ نحيلة؟ ناعمة؟».

* «طويلة. ممتلئة».

- «العيون؟».

* «رمادية. مائلة قليلاً للأزرق، لكنها رمادية».

- «و هنا؟». أشار أمام صدره البائس. «هل هو كبيرٌ ومشدود؟».

* «نوعاً ما».

- «أتريده ناعماً أم مثيراً؟».

* «بل ناعماً».

«هذا»، وأشار بثقةٍ إلى لونٍ قرمزيٍّ داكن، مُركَّز لكنه في الوقت نفسه غيرُ بارزٍ أو صارِخ. فقط تحتاج إلى طلاء أظافر غير صارخ أيضاً. أخذَ ينظرُ لبرهة في عيِّنة الألوان، وضعها على مقربةٍ من عيونه، وكأنهُ يعاني من قِصرِ نظر، تفحَّصها في الظلِّ وعند النافذة. «انتهينا...». كان إيتيان كوميدياً لأبعدِ الحدود. لا بدَّ من أن المحال التجارية الراقية في جادة الاليزيه فقدَتْ فيه مديراً رائعاً. إيتيان كان يعشقُ المتجر، كان عِشقه، كان كلَّ شيءٍ بالنسبة إليه. حتى الحرب لم تستطعْ إيقافه.

تفحَّصتُ بريبةٍ زجاجة طلاءِ الأظافر وغِلافَ قلمِ الحمرة. لا عيوب. كانا أميركيين.

لكن إتيان لم يكن قد انتهى مني بعد. بدأ يفتحُ تلكَ العُلب المسطَّحة الموجودة على الطاولة. شَهقتُ من شدَّة المفاجأة وإيتيان زادَ طوله بِضعَ سنتيمترات.

«حريرٌ أسود، باتيست[1]، حريرٌ أخضر»، أخذَ يفردُ بفخرٍ أطقمَ

---

1 – Batiste قماش ناعم مصنوع من القطن أو الصوف أو البوليستر. (م).

الألبسة النسائية... «لو لم تكن من النخب الأوّل، لما عرضتُها عليك. أكفل لكَ ذلك...».

أردتُ أن أسأله بسخرية، وما هي الكفالة؟ مع ذلك كان الأمر مفاجأةً كبيرة... خاصة التشكيلة المتنوّعة.

- «للحريرِ بشكل عام سمعةٌ عاليةٌ لدى النساء، لكن سأنصحكَ بالباتيست. إني خبيرٌ في الأمر، لن تحصلَ اليومَ على واحدٍ مماثل أبداً».

* «ألديكَ منه باللون الأبيض؟».

لم أُنهِ جملتي بعد، وكان قد أمسكَ بيده علبةً مع طقمٍ أبيض. كانت مغلَّفةً بغلافٍ أصليٍّ لأحدِ المراكز التجارية الباريسية، ومع شريط كفالة.

أومأت برأسي. فتنفَّس إيتيان الصعداء.

- «مهما حاولت، يبقى الأبيضُ هو الأبيض...».

«بِكم؟». سألته.

- «انتظرْ، لم أنتهِ بعد. صحيحٌ أنهُ مِنَ اللائقِ أن تكونَ هديتكَ قطعةً واحدةً ممتازة، لكننا في حرب. والكثير من الأمور لم تعد تسري الآن».

أخرجَ شيئاً ما مُغلَّفاً بورقِ سيلوفان وفتحه. «انظرْ».

فَردَ تحتَ الضوء شيئاً أشبه بنسيج العنكبوت، ناعماً جداً وشفَّافاً، أدخلَ يدهُ به ومرَّرها عبره وأصابعهُ مفرودة. إنها جوارب.

- «نايلون».

لم يكن يعني لي الأمر شيئاً، وقد لاحظ إيتيان ذلك فوراً.

- «ما كانَ عليَّ أن أريكَ إيَّاه أصلاً. إنكَ مجرَّد همجي، لا تعرفُ

ما هو النايلون حتى»، قالها مبدياً انزعاجه. «النايلون، إنه ثورة، أتفهم؟ ثورة... انظرْ، كم هي رقيقةٌ وناعمة، تبدو وكأنها ملتصقةٌ بالساق ومتينةٌ أكثر بعشرين مرَّةً من الجوارب الحريرية. ما عليكَ سوى أن تغسِلها كل مساء في الماء البارد. ففي الماء الحار ستُتلَف... أمريكا اليوم متقدِّمةٌ بأشواط عن أوروبا يا أخي...».

أومأتُ برأسي مجدَّداً. سآخذهم أيضاً.

* «حسناً، كم ثمنُ كلِّ هذا؟».

وصلتْ مفاوضاتنا إلى المرحلةِ الحاسمة. حَكَّ الفرنسيُّ القصيرُ رأسه. كان ذلك يعني الكثير.

- «أرِني ذلكَ التبغ...».

أخرجتُ علبةَ التبغ. فشمَّ رائحته وأخذ القليلَ منه بين إصبعيه، سَحبهُ للأعلى ليرى إن كان طويلاً كفاية، ثمَّ سحقهُ وفتلهُ بين أصابِعه ووضعَ ذرَّةً صغيرةً مِنهُ على لِسانه، ومضغه ثمَّ بصقه ومسح أنفه. سيصابُ بالحساسية الآن.

لم يتحسَّس.

- «هذا هو؟».

* «نعم».

- «إنهُ نخبٌ ثالِث، مخلوطٌ أكثر من اللازم. لكنهُ جيِّد عموماً، فخيوطه طويلة، ومَقطعُهُ ناعِم. لا يمكن الحصولُ هنا على نوعية أفضل. سآخذه».

* «حسناً، كم؟».

- «عشرة. ولكن من دون أية مساومة».

فوجئتُ. لم يبدُ ذلك كثيراً لي، لكن تذكَّرتُ لاحقاً بأن التبغَ في نهايةِ الأمر هو التبغ. وعشرة كيلوغرامات، كانت بين يدي إيتيان بمثابة رأس مال.

وافقتُ فوراً. على مضض ولكن فوراً.

- «إلى أينَ عليَّ الحضورُ لاستلامه؟».

إذاً هذا ما كنتَ تسعى إليه! عشرة كيلوغرامات من التبغِ لها حجمٌ كبير. أتعتقد بأني مجنونٌ لأدعوكَ إلى منزلي؟ انسَ الأمر.

* «ليسَ عليكَ تكبُّدُ مشقَّةِ ذلك. سأحضرُ بعد الظهرِ من أجلِ الأغراض وسأجلبهُ لك».

خابَ أملُه لكنه لم يُظهِر ذلك. قال: حسناً.

تصافحنا.

- «تلكَ الشموعُ والتفاهاتِ الخاصَّة بالشجرة سأغلِّفها لكَ لوحدها».

* «حسناً».

رافقني إلى الشارع. وفي طريق العودة أخذتُ أفكِّرُ في كيفيةِ جلبِ كلِّ هذه الكمية من التبغ. لم يكن لديَّ أدنى فكرة كم يبلغُ حجمها. ربَّما سأحاولُ توسعتَها في حقيبةِ سفر؟ لن أكونُ مريباً مع هكذا حقيبة، لكن يجبُ عليَّ أن أنقلها خلال النهار. ففي المساء ستثارُ الشكوكُ حولي.

اضطررتُ إلى ربط حقيبةِ السفر بواسطةِ حبلٍ. فلقد كانت ممتلئةً لدرجة أني خفتُ من أن تُفتحَ الأقفال. بدا لي أني عقدتُ صفقةً

جيِّدة، والفرنسي أيضاً بدا راضياً. كانَ في حاجةٍ مُلحَّةٍ إلى التبغ من أجل أمرٍ ما.

- «قلمُ الحمرةِ والطلاء وضعتُهما في علبةٍ معاً. احتفظْ بالجواربِ كمفاجأةٍ مميَّزة. لطالما كان هذا الأسلوبُ مجدياً».

إنه موهوب، خسارة أنه مضطرٌّ إلى العيش بتعاسةٍ كهذه.

- «إن وضعكَ جيِّد...». تنهَّد. «التبغ يبقى تبغاً. فمهما حاول أحدٌ منا أن يشقى ويتعب. أنت لديك تبغ، إذاً أنت السيِّدُ هنا. أينَ شريكك؟ لم أرَه منذ فترة».

من أينَ يعرفُ تشارلي؟ يقالُ إنَّ إيتيان يعرفُ كلَّ شيء. هذا أيضاً كان جزءاً من عمله.

* «ذهبَ إلى براغ».

- «ألن يعود؟».

* «كلا، لن يعود».

- «ما كان عليهِ فعلُ ذلك. الوضعُ هنالك سيئٌ للغاية. لقد كان مرتاحاً من الألمان هنا، لن يحصلَ على ذلكَ هناك».

ما كنت لأُفاجأ، إن كان إيتيان هذا يعرفُ كلَّ شيءٍ أيضاً عن تشارلي.

في المساء كنتُ أنتظِرُ مع علبةٍ مليئة بالتبغِ عند الجسر. كنتُ في الواقع ثرياً، فقد كان لا يزال يوجد في القبو بعد رزمةٌ أسطوانيةٌ كاملةٌ من التبغ. كان البولنديُّ دقيقاً في موعده، مع أنه لم يكن يملك ساعةً على الأغلب. ماذا سيفعل مع كُل هذه الكمية من الدخان؟ ألديه مكان لإخفائه؟

* «ماذا ستفعلُ بكُلِّ هذه الكمية؟»

- «هذا من شأني...». قاطعني. أعطاني الشجرة، تأكَّدتُ من أنها تنوبٌ فضي.

ذهبت إلى لويزا وثلجٌ جديدٌ كان قد أخذ يتساقط. لن أدخُلَ فوراً إلى هنالك، سأقرعُ الجرسَ أولاً. سأقولُ لها، أحضرتُ لكِ شجرة. مِنَ المؤكد أنها ستفرحُ لذلك.

كنتُ أهُمُّ بقرعِ الجرس، عندما لاحظتُ آثارَ خطواتٍ بادية على طبقة الثلجِ الجديد. سحبتُ يدي بسرعة من على الجرس. لم تكن الرؤية واضحة، لكنها كانت آثارُ خطوات. كانا نوعانِ من الخطوات. الخطواتُ الأولى كانت كبيرة، لرجل، حذاءٌ عالٍ على الأرجح. والثانية كانت نسائية. لم تكن لوحدها. كانت في مكان ما واصطحبت أحداً معها. ربَّما شرطي؟ ولكن لماذا ستحضِرُ شرطياً إلى منزلها؟

جندي.

أحضرَتْ جندياً. كانت الخطوات جديدة. لم يمضِ عليها أكثر من عَشرِ دقائق.

كنتُ أقِفُ هناك مع شجرةٍ ملفوفةٍ أحمِلها تحتَ إبطي، خائباً، غاضباً من خيانتِها لي. إذاً هكذا هي!

ثمَّ خطرَ لي أمرٌ ما. أخرجتُ المفتاحَ وفَتحتُ البوابة، لم أكن مضطرّاً إلى السير على رؤوس أصابعي، فالثلجُ المتساقطُ بكثافةٍ كان يُخمِدُ صوتَ كلِّ خطوة. دَفعتُ المفتاحَ بحذرٍ إلى داخِل القِفل، لكن كان هنالكَ مفتاحٌ أيضاً من الداخل. ضغطتُ على مِقبضِ الباب بحذر،

لكن البابَ كان مُقفلاً. يبدو أنه زائرٌ مُباغِتٌ لخمسِ دقائق. يا لها من أفعى عاهرة! أشفقتُ على نفسي. لقد وقعتُ ضحية كلماتها. ينتابُ المرء دائماً شعورٌ سيِّئٌ عندما يدركُ بأنه وقعَ ضحيةَ ألاعيبِ أحدِهم. لكن ما الذي كنتُ أتوقَّعهُ منها؟ كنتُ قريباً منها في متناول يدها، لكن لم تمضِ بضعة أيام لم نتقابلْ فيها حتى عثرتْ على بديل.

حسناً وداعاً يا لويزا! استمتعي! قَبلَ أن تتساقطِ القنابلُ، ويأتي أولئك الجنود الأشرار المتوحِّشون!

رَميتُ الشجرةَ إلى الحديقةِ، مع الشموعِ والزينة. فماذا سأفعل بها؟

استقللتُ الترام. أيها المجنون الأحمق! أردتُ أن أصنعَ لها عيدَ ميلادٍ جميل! أنا لم أحصُل أبداً على عيدِ ميلادٍ جميل، لم يكن يعني لي شيئاً، لكن الألمان يهتمُّون كثيراً بعيد الميلاد وهي كانت ألمانية. هذا هو الأمر؛ إنها ألمانية!

كان "أتلانتيك" ممتلئاً عن آخره. شابٌّ ما أفسح لي مكاناً بالقرب من بوريس.

* «هايني! زجاجاتان من البولكا!». ناديتُ عليه. فنظرَ إليَّ معاتباً لماذا أصرخ هكذا؟ صَلَّبَ وهو يقول في نفسه يا إلهي ستكون ليلةً جامحةً مجدَّداً!

أحاطتْ بالطاولةِ جموعُ العطشى والجائعين. كانوا يدركون بأن صيحتي تلك كانت فاتحةَ شربٍ جامح. وأنا كنتُ حينها ضعيفاً سريع التأثُّر.

* «هايني، املئ الكؤوس للجميع! سنتحاسبُ فيما بعد، تَعرِفُ كيف تجري الأمور».

عاد مجدَّداً للنظر إليَّ مُعاتباً، لمَ كلُّ هذا الكلام الذي لا طائلَ منه؟ هُرعَت كل تلكَ الأشباح نحو المشرب، فاضطُرَّ إلى دفعهم بعيداً. كل واحد منهم أرادَ أن يشربَ معي. أما بوريس فقد كان يكرِّرُ باستمرار إنك صديق رائع، إنك صديق...

* «أين ميريلا؟».

رَفعَ كتفيه. لا أعلم.

جاءتْ بعد نصف ساعة تقريباً. كنا حينها منتشين. وبعد ساعةٍ أخرى كان بوريس يترنَّح. كان ثملاً للغاية. لم يكن رفيقاً من النوع المسلِّي. شدَّتْه الفرنسية الصغيرة من شَعره فتفوَّهَ متململاً بشيءٍ ما. نظرتْ إليه نظرةَ استحقارٍ واضحة وجلستْ إلى جانبي.

«إنكَ لطيفٌ»، قالت لي ذلكَ وهي تضعُ يدي على فَخذِها. كان الأمر جلياً، وعندها خطرت لي لويزا.

* «أينَ تَسكُنين؟».

- «في مخيم».

* «لن أذهبَ إلى هناك».

- «سأذهبُ أينما تُريد. إلى فناء بار».

* «اخرجي، وسألحقُ بكِ بعدَ قليل».

أشفقتُ على بوريس. لا بدَّ من أنها تفعل به ذلك مراراً، لكن لا داعي لأن يعلَم بأنها فعلتْها معي أيضاً. أخذتُ من هايني زجاجةً أخرى أيضاً.

* «غداً، هايني...».

لوَّحَ بيدِه موافقاً.

تمسَّكتْ بي، وتمكنَّا من ركوب آخر ترام. أخذتُها إلى منزلي. لم أفعل ذلك من قبلُ أبداً.

خلال لحظات كانتِ النارُ تشتعلُ في الموقد.

- «أنا جائعة...». توسَّلتْ.

عثرتُ على بعضِ البقايا. أخذتْ تأكلُ خبزاً قديماً مع لحم الخنزير المقدَّد.

- «أيمكنني أكلُ المزيد؟».

* «كليها كلها...».

- «إنكَ لطيف. وسأكون لطيفة معكَ أيضاً. سيكون الأمر كما تريد...».

كان وجهها مغطى بطبقةٍ سميكة من مسحوق تجميلٍ مُتَّسِخ. يبدو أنها لا تغتسِل حتى لا يذهب عنها. أشفقتُ لحالها. على الأرجح لم تعرِف مع بوريس الكثيرَ من السعادة والهناء.

* «ماذا تفعلينَ هنا؟».

- «الحُب».

* «ماذا كنتِ تفعلينَ في ديارك؟».

- «كنتُ بائعةً في متجرٍ للأطعمة».

* «متى كانت آخرَ مرَّةٍ اغتسلتِ بها؟».

- «متى! طبعاً اليوم صباحاً! لماذا تسألُ سؤالاً كهذا؟».

* «اذهبي إلى الحمَّام. انتظري، سأشعِلُ المِرجل».

لاحظتُ كيفَ كانت تُصارِع في داخلها، بين الشعورِ بالإهانة ومن عَدمِه. يبدو أنها خلُصتْ إلى نتيجة، بأنه لا يمكنُ أن تسمحَ لنفسها بالقيامَ بذلك.

* «هنالكَ مِنشفةٌ نظيفةٌ معلَّقةٌ هناك...».

سمعتُ عبرَ الباب كيفَ كانت تتأوَّه سعيدةً بالماء الساخن. هذا جيِّد، هذا رائع... كانت تصيحُ مراراً.

* «لستِ مضطرَّةً إلى ارتداء ملابِسك...». صِحتُ عبر الباب.

- «أعليَّ الخروج عارية؟».

* «كلا، غَطِّي نفسكِ بالمنشفة...».

توقَّف الماء عن الانسكاب. بعدَ قليل خرجتْ من الحمَّام، نَضِرةً مع قليلٍ من العَرَقِ على جبينها، ومُبتسمة. كانت المنشفةُ ملفوفةً حولها كرداء الساري مع إحدى الذراعين مكشوفة.

* «تعالي إلى هنا...». ناديتُها إلى الطاولة. وفتحتُ علبةً مسطَّحة. فشهقتْ... ياه! كم هذا جميل! إنه رائع...

* «جَربيه».

- «هل أستطيع ذلك؟».

* «نعم، إنه لكِ».

لم تكن تصدِّقُ ذلك، اعتقدتْ بأني كنتُ أسخرُ منها. مدَّتْ يدها بخوفٍ نحو التنُّورة الداخلية لتتأكَّد إن كانت حقيقية. فلمستْها بحذر

ثمَّ أمسكتْ بها بشدَّةٍ ونزعتْ عنها المنشفة، وأخذتْ تتراقص عاريةً في الغرفة، ثم رفعتْ القميصَ أمامها.

- «إنها طويلةٌ بعض الشيء».

* «لا مشكلة، يمكن تعديله...».

ثم اختفَت سعادتها. انتابها خوفٌ مفاجئٌ من أمرٍ ما.

- «إنكَ... إنكَ غريب، أليس كذلك؟».

لم أفهم فوراً ما الذي تقصده.

* «أنتِ محقة»، وأخذتُ أضحك. «من المؤكد أني غريبُ الأطوار».

- «لم أقصِد ذلك...».

* «آه...». لقد كانت مرحةً جدَّاً وباعثةً على الابتهاج. «كلا، كلا»، أخذتُ أضحك، «أنا طبيعي».

- «إذا لماذا تعطيني إياها؟».

* «أردتُ أن أعرِف، إن كان هنالك اليوم من لا يزال يجيدُ الشعور بالسعادة».

- «أوه، يا لكَ من...»، قفزتِ نحوي، «لا أستطيع أن أصدِّقَ ذلك، لا أستطيع».

* «ارتديه».

ارتدَتِ القميص.

- «وهذا أيضاً؟». وأشارتْ إلى العلبة.

* «يمكنُكِ أن تجرِّبيها...».

- «ياه! إنها رائعة! إنها رائعة... كم هي ناعمة!». كانت تصيح. «هل أعجبُك؟».

* «إنكِ جميلة، لم يُستهلَكْ جَسدُكِ بعد».

- «إنكَ لطيف. لطيفٌ جدَّاً... أتعرف؟».

في الفراش جرَّدتها منه. لكن في الصباح، عندما استيقظتُ، كانت ترتدي القميص ومستلقيةً متقوقعةً ومتَّجهةً نحو الخارج مع مؤخَّرةٍ عارية.

استيقظتُ واضطررتُ إلى دفعها بعيداً حتى لا تبدأ بالجنون..

- «لم أنمْ طوال الليل من فرحتي».

يا للمسكينة!

* «انهضي الآن. توجد في المطبخِ عُلبةٌ فيها قهوة. أعدِّي قهوةً قوية. يمكنكِ أن تجدي في مكانٍ ما خبزاً جافّاً. قومي بتحميصه، لم يبقَ لديَّ شيءٌ آخر. وقد أعثرُ على قليل من الدهن...».

قفزتْ وأرادت الذهابَ إلى المطبخ هكذا، حافيةً مرتديةً التنُّورة الداخلية فقط.

* «ارتدي ملابسكِ. لا تتبختري هنا هكذا».

لم تفهمْ ذلك. لم تكن تفهمُ الكثيرَ من الأمور، أعتقد بأنها لم تكن تفهمُ أيَّ شيء.

كانت لطيفةً ومؤثِّرة. لم تتأثَّر كُلِّياً بمهنتها بعد.

تناولنا الطعام معاً ثمَّ طلبتُ مِنها المغادرة. أعطيتُها ثلاث عُلبٍ من التبغ.

* «أعطِ اثنتين لبوريس، اليوم هو عيد الميلاد، أتعرفين ذلك؟».

- «أفضِّلُ أن أبقى معك».

* «أراكِ في "أتلانتيك"».

طبعاً كانَت لتفضِّلَ البقاء معي. لكني كنتُ مستاءً من نفسي قليلاً، من أجلِ بوريس. إنها تفعلُ له الأمر نفسه مع آخرين، لكن مع ذلك كنت مستاءً.

* «لماذا تعيشين معه؟».

- «أشفِقُ عليه. إنه ضائع، ولا يجيد فعل شيء، وأنا هذه طباعي؛ يجبُ أن أعتني بأحدٍ ما دائماً. هذه شخصيتي، أتعرِفُ ذلك؟».

* «ألا يلومكِ على ما تفعلينه به؟».

- «لا يستطيعُ أن يسمحَ لنفسِه بلومِ أحدٍ ما على أيِّ شيء. يجبُ علينا أن نعيشَ من شيءٍ ما، أليسَ كذلك؟ لطالما كان هنالكَ من يُعيله. أصدقاؤه من قبل، والآن أنا».

* «أتحبِّينه؟».

فكَّرتُ قليلاً. أتحبُّه؟ أم لا؟

- «إنها مجرَّدُ كلمات. إني مرتاحةٌ معه أكثر ممَّا لو كنتُ لوحدي. بوريس شخصٌ طيِّبٌ وذكي، لكنه لا يناسِبُ بطريقةٍ ما هذا العالم. لا يمكنني أن أتخيَّل حتى أنه كان يوماً ما جندياً. لقد فَعلتِ الحربُ بالناسِ أموراً غريبة».

* «لا داعي لأن تخبريهِ بأنكِ كنتِ معي».

- «لن يزعجهُ ذلك. أعتقد بأنهُ سيكونُ سعيداً لو علمَ أني كنتُ معك. إنكَ الوحيدُ هنا الذي يحبُّه. ولديه ما يدخِّنه لشهر. فالسيجارة بالنسبة إليه هي كلُّ شيء».

* «عندما ينفد منكم التبغ، أخبريني. ما زال لديَّ بعضُ المخزونِ منه».

نظرتُ حولي باحثاً عمَّا يمكنني أن أعطيهُ لها. لكن في خزانة المؤونة لم يكن يوجد شيء. يجب أن أؤمِّن شيئاً ما. كان هنالكَ مِعطفٌ مُعلَّق على مِشجَب، ممَّا تركهُ تشارلي هنا. مِعطفٌ خَفيفٌ لكنهُ أفضلُ من لا شيء. لم يكن لدى بوريس أيُّ مِعطف. لقد نسيهُ تشارلي، أو لم يكن يريدُ أن يأخذهُ معهُ. أعطيتها إيَّاه. فرحَتْ لذلك كفرحِها بالملابس الداخلية تقريباً.

- «إنكَ لطيف، أتعلمُ ذلك؟ في هذه الأيَّام كلُّ شخصٍ يَهتمُّ بنفسه فقط. عندما يكون لكَ رغبة، سألبِّيها دائماً. أجيدُ القيامَ بذلك بأساليب متنوعة».

ربَّتُّ عليها.

* «اذهبي الآن يا ميريلا. كي لا يقلقَ بوريس...».

- «أوه، لقد اعتاد على ذلك».

غادرتْ.

عُدتُ إلى السرير. لم أنمْ، كنتُ أحدِقُ في السقف الأبيضِ فقط. في نهاية الأمر طردني الجوعُ من السرير. ذهبتُ إلى الحانة التي أخذني

إليها تشارلي ذاتَ مرَّة. كنا نرتادُها باستمرار، فلم نكن نحتاجُ إلى قسائمَ هناك. التبغُ كان أكثر من قسيمة، مقابل التبغ يمكنك الحصول على كلِّ شيء.

بلغ ارتفاعُ الثلجِ في الشوارع نحو نصف المتر. توقَّفتْ عربات الترام. لم يقمْ أحدٌ بإزالته. لقد مهَّدَ الناسُ فيه بخطواتهم ممرَّاتٍ ضيِّقةً متعرِّجة. المتاجرُ الخاوية كانت لا تزال مفتوحة. والكثير من الناسِ كانوا قد أُصيبوا بذهانِ عيد الميلاد فخرجوا للحصول على شيءٍ ما، أيِّ شيء. هذه هي نهاية الغطرسة الكبيرة. آخرُ عيد ميلادٍ ألمانيٍّ خلال الحرب. ففي المساء بالقربِ من الموقد الدافئ، كان عليهم أن يوفِّروا فحماً لهذا اليوم، فالمخصَّصات الطارئة لم تصِلْ، سيغنون أغنية "ليلة هادئة، ليلة مقدسة". في ألمانيا فقط يكونُ عيد الميلادِ بهذه الوجدانية، لكن عيدُ الميلادِ هذا العام سيكون سيِّئاً. فهنالك ملايين الأرامل وملايين اليتامى وملايين الرجالِ على الجبهة. الجبهة التي فقدتْ أيَّ معنى لها، وتطيل من معاناة أوروبا فقط. ومع كلِّ زيادةٍ في المصاعب كنتُ دائماً أُعلِّقُ بشماتة: تستحقُّون ذلك، هذا ما أردتم. في ذلكَ اليوم لم أكن سعيداً. كنتُ غاضباً فقط. إنهم أغبياء، لا يزالون كما هم، خاضعين، يقدِّسون السيادة، مطيعين ومنظَّمين. لن يتمكَّنوا لوحدهم من التغلُّبِ على ذلك، ليسوا قادرين على القيام بأيِّ عمل. لن يفعلوا شيئاً لإنقاذ أنفسِهم. إنهم يدركون بأنهم خسروا. ولكن يعلمون أيضاً ما الذي اقترفوه في كلِّ مكان. كانوا يدركون ذلك ويعرفونه. يخافون من الحساب. أيُّ حساب؟ لا يمكن أن يكون هناك حساب. لا يملكون ما يسدِّدون به. حتى حياتهم لم تعدْ بقيمة الحيوات التي قضوا عليها.

لا يوجدُ لديهم أيُّ كرامةٍ إنسانية. عِرقُ الأسياد. أوف...

خرجتُ من الحانة. كان هنالك على طول الشارع رتلٌ طويلٌ لا نهائيٌّ من العربات التي تجرُّها الخيول. حيواناتٌ مسكينة، هزيلةٌ من الجوع، أضلاعها بارزةٌ للعيان. بعضُ العرباتِ كانت مغطَّاةً وبعضها كان مكشوفاً. لاجئون.... يبدوا أنهم أمضوا فترةً طويلةً على الطرقات. رجالٌ مسنُّون بين الحين والآخر، ولكن الغالبية كنَّ من النساء، نساء مسكيناتٌ وأطفال بعيونٍ كبيرة. أتوا من بولندا حتى. كِبارُ ملاك الأراضي من هاليتش ومازوريا. ربما سيتقبَّلونهم هنا، في حال كانت لديهم في مكانٍ ما مدرسةٌ خاليةٌ أو ورشةٌ توقَّفتْ عن العمل، أو ربَّما سيجبرونهم على المتابعة كما فعلوا في كثير من المدن. الصحفُ تكتبُ عنهم مقالاتٍ تستجدي العواطف، لكن في الحقيقة إنهم مجرَّد عبءٍ إضافي، عبءٍ على قومهم.

أعرفُ مأوى لهم. فيه مكانٌ كافٍ للجميع. إنه منزل ذو اثني عشر غرفة، يسكنه شخصٌ واحد. إنه ليس المنزل الوحيد هكذا في هذه المدينة، هنالك الآلاف مثله. يمكنهُم الذهابُ إلى البلدية، ومطالبتها بمنحهم تلكَ الأحياء. لكنهم لن يفعلوا ذلك، ولن يحاولوا أن يحتلُّوها بمفردهم. في إمكانهم الانعطاف بذلك الاتِّجاه والتوقُّف في شوارع المدينة الحدائقية، والقول: لن نتابعْ مسيرنا، سنبقى هنا نتجمَّد أمام أعينكم إن لم تدعونا ندخل. لن يفعلوا ذلك، إنهم مطيعون، ومُحِبُّون للنظام. كيف يمكن تصوُّر ذلك، بلا إذنٍ ولا أمر؟

سيتابعون سيرهم. سيتوقَّفون في قريةٍ ما ويقضون الليلة فيها، في المزارع المحيطة، سيأكلون حِصاناً ضعيفاً، ويتابعون مسيرهم

نحو الغرب، لأنهم كانوا يهربون من الشرق. في الغرب هنالكَ مُدنٌ مُدمَّرة جرَّاء القصف. هنالك آلافُ الناس بلا مأوى. لم يعد توجد في ألمانيا مدرسةٌ واحدةٌ خالية. هذه المدينة يمكنها أن تأوي تحتَ سقفها نحو مليون لاجئ، ولكنهم يتابعون المسير. أحدٌ ما نَصحهُم بأنه يوجد خارج المدينة مخيَّمٌ كبيرٌ للاجئين. لقد مرُّوا في طريقهم بعدَّة مخيَّماتٍ مشابهة، استقبلوهم في بعضها وفي بعضها الآخر لم يكن هنالكَ متَّسع. هنا أيضاً سيجبرونهم على المتابعة. لكنهم في نهاية الأمر سيقضون الليلة في مكانٍ ما وسيغنُّون مساءَ اليوم أيضاً "ليلة هادئة، ليلة مقدسة".

تذكَّرتُ كلماتِ العاهرة الفرنسية: أشفِقُ عليه، إنه ضائع، ولا يجيد فعل شيء. أما أنا فهذه طباعي. يجب أن أعتني بأحدٍ ما دائماً. هذه شخصيتي...

سيِّدةٌ ألمانية كبيرةٌ في السنِّ كانَت تتحدَّث مع أحدهم خلفي: «ما كان عليهم أن يسمحوا لهم بالمرور عبر المدينة اليوم...».

التفتُّ لأجِدَ مجموعةً من الناس كانَت تقِفُ هناك وتنظرُ مذهولةً إلى هذا المشهدِ البائس. لم يكونوا مضطرِّين إلى نطق كلمةٍ واحدة، لا يمكِنُ أن أخطئ؛ كنت أعلمُ فيما يفكِّرون: متى سنخرجُ نحن في مثلِ هذه الرحلة؟ وأين سيكون في إمكاننا اللجوء عندما يحينُ دورنا؟ هؤلاء في وضعٍ جيِّدٍ، لديهم عرباتٌ وخيول، ولكن كيفَ سنَهرُبُ نحن مع لُحُفِنا؟

نعم سيهربون، سيهربون إن كان لا يزالُ هنالكَ مكانٌ للهرب. الماهرون بينهم بدأوا بتحويل الدرَّاجات إلى عرباتٍ بعجلتين. لكنهم

لم يفعلوا شيء كي لا يضطرُّوا إلى الهرب. لن يحدث شيء. إنهم ألمان.

مساءً ذهبتُ إلى "أتلانتيك". كانتِ الشوارعُ خالية، والنوافذ مغطَّاة. لقد اكتَستِ المدينةُ ثوباً من الثلج الأبيض. وما زال الثلجُ يتساقط. حتى الكلابُ المشرَّدة التي كانت في تزايدٍ مستمر، كانت قد أوتْ إلى مكانٍ ما.

خالفتُ قاعدةً قديمةً أرغمني تشارلي على اتِّباعها. ملأتُ صندوقَ أحذيةٍ بالتبغ. نصفهُ لهيني والباقي للآخرين. ما كان عليَّ فعلُ ذلك، لكني لم أستطع عدم فعل ذلك. لم يكن الأمر بأنهم لم يكونوا يعرفون، لكن هنالك فرقٌ بين أن يظنُّوا بشيءٍ غير محدَّدٍ وبين أن تكون لديهم أدلَّةٌ مادية. على الرغمِ من أن "أتلانتيك" كان يتمتَّعُ بتساهُلٍ غيرِ مفهوم من الشرطة، لكن هنالكِ احتمالٌ كبير بوجودِ شرطيٍّ سرِّيٍّ هناك، ومُخبرٍ من صفوفِ الأجانب. لكني لم أعُدْ أرغبُ في توخِّي كلِّ هذا الحذر.

استقبلوني مهلِّلين.

* «نصفُه لكَ يا هيني، والباقي فليتقاسموه. لم أقمْ بوزنه».

هزَّ هيني رأسه.

- «هذا أكثرُ مِن ما يترتَّب عليك، سأعتبرها دُفعة مقدمة»، قال.

جلستُ إلى جانبِ بوريس. لم يقلْ شيئاً، فقط قام بالشَّدِّ على يدي ممتنَّاً. ميريلا كانت جميلة، اغتسلتْ حديثاً وتبرَّجتْ. بوريس أحمق، يمكن القيام بأشياء كثيرةٍ مع هذه الفتاة. لم تبلغ القاعَ بعد، في حال عثرتْ على شابٍّ مناسب، ستخرجُ من الأمر. في "أتلانتيك" كان هنالكَ جوٌّ احتفالي. اليوم سيكون صاخباً أكثر من أيِّ وقتٍ آخر.

طلبتُ زجاجتين من تلك القذارة. كانت هذه إشارة ليبدأ لويزيك بالعزف على منشاره اللحن الحزين لأغنية "فطائر البطاطس". وأخذ البولنديون والصرب والسلوفاك والتشيك والفرنسيون والدنماركيون والهولنديون بالصراخ.

عندها سادَ الصمتُ فجأة. كنتُ أجلِسُ، على عكس عادتي، وظهري نحو وسطِ المكان. جَفلتُ وخِفتُ أن أنظر. أهي مداهمة؟ اليوم تحديداً. ولكني رأيتُ في أعين ميريلا بأنها لم تكن مداهمة.

في هذا الصمت كان صوتُ منشار لويزيك مريعاً.

نظرتُ من حولي. كانت لويزا تقف عند الباب. مرتبكة، غيرَ مُرتاحةٍ ومصدومة، عيونها كانت تصولُ وتجول في المكان، لكنها لم تلحظني بعد. الكلُّ كان يحدقُ فيها، من هذه؟ ماذا تريد امرأة كهذه هنا؟

لماذا لا تَدعُني وشأني؟

«لويزيك، اعزف "ليلة هادئة، ليلة مقدسة" على شرفِ سيِّدةِ عيد الميلاد...». صرختُ منادياً. فانفجرَ الجميعُ ضاحكين وكأنها كانت الأوامر. لم تفهَم ماذا قلتُ، لكنها عرفَت بأنه كان عنها وبأنهُ لم يكن بالشيء الجميل. تقدَّمتْ نحوي، وتوقَّفتْ عند الطاولة، لم تقوَ على التفوُّه بكلمةٍ واحدة. فاستدارتْ واندفعتْ إلى الخارج.

خرجتُ خلفها إلى الشارع، بذلتُ جهداً مضنياً للحاقِ بها.

* «ماذا تريدين؟ لماذا لا تدعينني وشأني؟».

أرادتْ أن تفلِتَ يدها وتتابع سيرها، لكني أوقفتُها.

* «اذهبي، اغربي عن وجهي ولا أريدُ رؤيتكِ أبداً. اذهبي إلى ذلك،

ذلك الذي أحضرتِه البارحة إلى المنزل. إنك مجرَّدُ ساقطةٍ ألمانية. ولا تظنِّي بأنكِ خدعتِني، كنت أعلمُ ذلكَ عنكِ دائماً».

- «ماذا... عمَّ تتكلَّم؟». سألَت بوجهٍ ملائكي ملؤه الحيرة. استشطتُ غضباً، فصفعتُها. كانت صفعةً قويةً جعلتْها تترنَّح، فتحسَّستْ خدَّها وصرختْ.

ومن ثمَّ بدأتْ بالضحك. بصوتٍ عال، وبحرارةٍ وسعادة، ضِحكةً مُحرِّرة. عانقتْني وضمَّتْني إليها «أنتَ تغار!». صاحَت، «تغار، أنت غيور، ياه أنت تغار...». تحوَّلتْ صيحاتها إلى ترانيم مهلِّلة وأنا كنتُ مشوشاً بالكامل.

أفلتُّ من يديها.

* «توقَّفي عن لعبِ هذه المسرحية. البارحة كان عِندَكِ أحدٌ ما...».

- «طبعاً كان»، ضحِكتْ، واستمرَّتْ في الصراخ. «كان ولا يزال. طبعاً كان، لكنك شرِّير! أبحثُ عنكَ طوال المساء، وفي النهاية خطر لي، بأنكَ ستكون في هذه الحانة. بالطبع كان لديَّ رجلٌ تلكَ الليلة ولا يزال، أخبرتُه بكلِّ شيء عنك، أريدُ أن نكونَ هذه الليلة معاً، ولقد وافقَ هو أيضاً، هيا تعال، تعال، العشاءُ جاهز، لقد عاد البارحة صباحاً من الجبهةِ الشرقية، أعتقدُ بأنهُ سيسعَدُ بالتعرُّف إليك».

عَرفتُ الآن عمَّن كانت تتحدَّث. فجأةً أحسستُ بندمٍ كبير، ضممتُها إليَّ ومسحتُ دموعها التي كانت تسيلُ على وجهها، وداعبتُ وجنتيها. آسف يا لويزا، لقد كنت سيِّئاً، كنت تعيساً وسيِّئاً، رحل تشارلي وكنتُ حزيناً ووحيداً، لم أكن أرغبُ في رؤية أحد، ولا حتى أنتِ لم أكن

أرغبُ في رؤيتكِ، والبارحة ذهبتُ مساءً لرؤيتك لألحظَ على الغطاءِ الثلجي آثارَ أقدامِ رجل.

- «لا عليك، لا عليك». ضحكتْ ضحكةً تخلَّلتْها دموعها، «كلُّ شيءٍ على ما يرام الآن، بل كل شيءٍ ممتازٌ الآن... أنا سعيدة، حتى إني سعيدةٌ بهذه الصفعة، الآن أنتَ لي وكلُّ شيءٍ على ما يرام...».

في المقعدِ الجَلدي كان يجلسُ ضابطٌ شابٌّ ممشوق القوام مرتدياً بزَّةً سوداءَ لسلاحِ المدرَّعات، وحسبَ الشارات كانَ نقيباً. نهضَ بشكلٍ رسميٍّ ووقفَ وقفةً عسكريةً ضامًّاً كعبيه، ثمَّ انحنى ومدَّ يده.

- «يسعدني لقاؤك. بالفعل إنه لمن دواعي سروري، ليستْ مجرَّدَ عبارة...». قال لي.

أخذتْ لويزا الكؤوس من الطاولة التي كانت معدَّةً لثلاثة أشخاص، وملأتْها بشيءٍ بُنِّي اللون. إنه كونياك. ثم وقفتْ بيننا، وقد أشرقَتْ من الفرح.

- «فلنشرَبْ نخبَ... نهاية الحرب، نخبَ السلام. اليوم هو يومٌ يمكننا القيامُ بذلك فيه».

شرِبنا النَّخبَ وخطرَتْ لي فكرة. فذهبتُ إلى الباب.

«سأعودُ حالاً...». أكَّدتُ لها وخرجتُ إلى الحديقة. من تحت الغطاءِ الثلجي الكثيف، كان يبرزُ تحدُّبٌ ما. أخرجتُ الشجرة والعلبة المحتوية على الزينة والشموع.

بالقربِ من الباب نفضتُ الثلجَ عن نفسي وعن الرزمة. وفي البهو أخرجتها من غلافها. كانت شجرةَ تنوبٍ رائعة، فضية، لدرجة أني حزِنتُ عليها.

صَرخَتْ لويزا من فَرحتِها.

* «ألديكِ قاعدة؟».

- «نعم، يجبُ أن تكون في مكان ما».

بعدَ قليل حضرتْ ومعها قاعدةٌ معدنيةٌ من ثلاثة أرجل.

* «وهل لديكِ مشابكٌ للشموع؟».

هذه أيضاً كانت في مكان ما. قمتُ أنا وأخوها بإعداد الشجرة.

- «من أين حصلتَ عليها؟ كيف أتيتَ بها إلى هنا؟».

* «رميتُها البارحة في الحديقة. وبحلولِ الصباح كانَ الثلجُ قد غطَّاها بأكملها».

- «اعتقَدَ... كانَ يَظنُّ بأني...». أخذَتْ تشرَحُ لأخيها، «بأني أحضرتُ أحداً ما إليَّ. لذلكَ لم يأتِ، لذلكَ انتظرناهُ بلا جدوى».

ضحكَ الألماني. لا أعرف ما الذي كان يفكِّرُ فيه حينها.

أشعَلنا الشموعَ على الشجرة وجلسنا إلى الطاولة. الحديثُ كان عالقاً، كل منا كان يركِّزُ بأفكارِه الخاصة، حتى النبيذ الجيِّد والكونياك لاحقاً لم يتمكَّنوا من إضفاءِ مزاجٍ أكثرَ حرارة. وبعد العشاء تذَّكرتُ بأني احتفظتُ بالجواربِ في جيبِ معطفي الجانبي. أعطيتهم للويزا ففرحت لذلك، وأخذت تقرأ مراراً وتكراراً التعليماتِ المطبوعة باللغة الإنكليزية على الغلافِ السولوفاني. لكن عموماً كان مساءً مليئاً بالتوتُّر، الذي لم نعرِفْ كيفيةَ التغلُّبِ عليه.

كانت لويزا طوال الوقت تتفحَّصنا وتقارِنُ بيننا، ربَّما ندِمَت لأنها جمعتْنا. لم تحدِّثْني عنه أبداً تقريباً، لم يكن لديَّ تصوُّرٌ واضٌح عنه،

لكن بالنسبةِ إليَّ لم يكن يعني لي شيئاً، ففي نهاية المطاف ليس هو من يعيشُ مع أختي. من يدري، ما رأيه بي، وهل نظرتهُ لي هي كما وصفتني؟

لم يبدُ حتى أنه كان يهتمُّ للأمر كثيراً. كان جادّاً وقليلَ الكلام، ربَّما كان بأفكارِه في مكانٍ ما على الجبهة، مع رفاقه. وماذا كانَ في إمكاني أنا أن أشعُرَ نحوه؟ كان جندياً ألمانياً، ضابطاً من سلاح المدرَّعات. ربَّما في ظروفٍ أخرى كنا لنقِفَ وجهاً لوجه، نَقتُلَ بعضنا البعض.

كانت لويزا حزينة، أرادَت أن تُقيمَ عشاء جميلاً، لكن لم ينجح الأمر.

بعدَ العشاء نهضتُ كي أغادِرَ. كانت لويزا عاجزة، لم تعرف كيفَ تتصرَّف. هل تطلبُ مني البقاء؟ لم تعرف إن كنتُ حتى سأقبل، أما أنا فقد كنتُ أرغبُ في البقاء، كانت تعجبني كثيراً في ذلك المساء، لكن أخوها هنا في نهاية الأمر.

ساعدنا بنفسه.

- «هل جُننتما؟». قال لنا، «ليس الوقت ملائماً لأيِّ نوعٍ من المراعاة وأنا لا أستحقُّها أصلاً. خسارة كلِّ يوم وليلة، لا أحد يعلَم كَم لا يزال منها أمامنا، لكن ليسَ الكثير».

تنفَّستْ لويزا الصعداء.

عندما كانت تُرتِّبُ الطاولة، قَطعَ صمته الذي كان سائداً طيلةَ العشاء.

- «سيصِلُ الروسُ إلى هنا خلالَ ثلاثةِ أشهر. لن يوقفهم أيُّ شيء.

بعدها لن يكونَ هنالكَ في العالم مكانٌ لأيِّ ألماني. الليبنسراوم[1] الخاص بنا سيتقلّص ليصبحَ مجرَّد حفرةٍ بطولِ مترين وعرضِ مترٍ واحد. إن أختي غاليةٌ عليَّ كثيراً، وهي تحبُّك. فإن كان ذلك ممكناً، وإن استطعتَ التغلُّبَ على الإداناتِ التي استحققناها، خذْها إلى مكانٍ ما بعيد، إلى مكانٍ حيثُ سيكون في وسعها أن تعيشَ وتنسى بأنها ألمانية. إن كانَ هنالكَ وجودٌ لمكانٍ كهذا أصلاً».

يبدو أنه قرأ من تعابيرِ وجهي بأن مكاناً كهذا لا وجود له.

* «أعتقدُ بأنك لا تعرِفُ الروسَ جيِّداً».

- «أعرفهم. أقفُ في مواجهتِهم منذُ سنوات. لا يتعلَّقُ الأمرُ بما سوف يقومون بفعلِه هنا. فهم لن يتمكَّنوا أبداً بأيِّ وسيلةٍ أن يردُّوا لنا ما فعلناه بهم. ولا يتعلَّق الأمر بالروس وحدهم. لكني أتحدَّثُ عنهم لأنه سيكون من العدالة بمكانٍ لو أنهم هم تحديداً من احتلُّوا ألمانيا بأكملها. سيكون من الجيِّد لو كانوا هم».

بهذا كان قد أخبرني بكلِّ شيء عن نفسِه تقريباً. ولكن لماذا لا يزال يحارب؟ إن كان فعلاً يعتقد ما قاله، لماذا ليسَ منذُ زمنٍ في مكانٍ ما بعيد؟

لم يكن عليَّ أن أسأله، أخذ يتحدَّثُ عن ذلك من تلقاء نَفسِه.

---

1 - Lebensraum: كلمة ألمانية تعني الموطن وتشير إلى واحدة من كبرى سياسات الإبادة الجماعية التي انتهجها هتلر ومكوّن رئيس للأيديولوجية النازية كما ساعدت على إيجاد الدوافع المطلوبة لاستمرار السياسات التوسعية لألمانيا النازية والتي تهدف لإيجاد مساحة أكبر من الأراضي بغرض استيعاب النمو السكاني الألماني لألمانيا الكبرى. (م).

- «هذه الآلة الفظيعة سوفَ تستمِرُّ حتى النهاية. هذا أمرٌ جيِّد. على ألمانيا أن تختبِرَ مرارةَ الاحتلال والإهانة والبؤس. فقط هذا سيمثِّلُ بالنسبةِ إلينا مستقبلاً ما. مِنَ الجيِّدِ لألمانيا أن ذلكَ المسعور لا يريدُ أن يَعقُدَ أيَّ اتِّفاقِ سلام، وأنه مصمِّمٌ على جَرِّ البلد بأسرِها إلى الدمار. ما كان ليحدُثَ لنا شيءٌ أسوأ من لو أن انقلابَ الضبَّاطِ ذاك كان قد نَجَح. سَبقَ وأن تباهوا بأنهم ليسوا هم من خَسِرَ الحرب. كلا، لا يجبُ أن تَجدَ ألمانيا نفسَها في موضِعِ الشريك، الذي سيعقِدُ اتِّفاقَ سلام. يجبٌ أن نَقضي عليها، يجبُ أن نرغمها على الاستسلام غيرِ المشروط. إن لم نتعلَّم من هذا، لن ينفعنا أيُّ شيءٍ أبداً».

* «لكن أمنياتُك ستكلِّف بَعدُ مئات الآلاف من الأرواح».

- «أعرِف. لكنَّ علينا الاستفادة من أن الحربَ قائمةٌ الآن. فربَّما الذي يحدثُ الآن على الجبهات هي حربٌ ثالثة. ربَّما لهذا لن تبدأ حربٌ جديدة بعدَ عشر أو عشرين سنة».

* «متى توصَّلتَ إلى كلِّ هذا؟».

- «أنا؟ منذ زمنٍ بعيد. لم أكنْ نازياً قط. لكن طبعاً كنتُ ألمانياً. كان فيَّ مِنَ الانتماء الألماني ما يكفي ليمنعني من التصرُّفِ بما هو مخالفٌ لما قُدِّرَ لنا. ولقد بدأتُ بالتفكير في كلِّ هذا تحديداً في روسيا. رأيتُ ما كنا نقترِفُه هناك. لا تسمحوا بعد الحربِ لأيٍّ من هؤلاء الذينَ كانوا يحاربون هناك بأن يقدِّموا التبريرات، وبأنه لم يسمعْ ولم يرَ شيئاً. سيسعون إلى تقديم التبريرات والأعذار».

* «كيف يمكنُكَ القتال ولديكَ هذه القناعة والأفكار؟».

- «يبدو أنك لم تفهمْني جيِّداً. لا يجبُ أن تُوَقِّعَ ألمانيا اتِّفاقَ سلام، عليها أن تختبِرَ حتى النهاية مرارةَ الهزيمةِ الشاملة. لن يكونَ عادلاً ولا من صالحنا ربَّما لو أننا بعد الحربِ الشاملة التي نخوضها، تمكَّنَّا من الوصولِ إلى تسويةٍ ما. أنا أقاتلُ في الشرقِ بشراسةٍ وبشكلٍ ممنهج. وسأبقى أقاتلُ إلى أن يقتلوني أو طالما ما يزال هنالكَ بقعة من أرضٍ ألمانيةٍ يُمكن الدفاع عنها. في الحرب العالمية الماضية تمكَّن الألمان الماهرون من إبرام اتِّفاقية سلامٍ عندما وصلت الجيوش الفرنسية إلى الحدود الألمانية. ينبغي أن لا يتكرَّر ذلكَ مرَّةً أخرى. ربَّما لن يتفاوض أحدٌ معنا حول ذلك أصلاً، من المؤكَّد أن الروسَ لن يفعلوا، لكن على الألمان أن يفقدوا كلَّ شيء، وعليهم أن يفقدوه بالقتال، وليس بناءً على اتِّفاقياتٍ ما حولَ الوضع تحتَ الاحتلال. ويمكن لهذا أن يتحقَّق فقط في حال وجودِ قوى هنا قادرةٍ على المقاومةِ حتى النهاية».

* «هذا، واعذرني، منطقٌ رهيب».

- «سَمِّ الأمورَ بمسمَّياتها، لا تخفْ من هذه الكلمة. إنه منطقٌ ألماني. لدينا سمعةٌ بأننا دقيقون. فإن هي هزيمة، يجب أن تكون دقيقةً ومثالية».

* «قلْ لي، هل هنالكَ الكثير ممَّن يفكِّرون بطريقةٍ مشابهة؟».

- «قلَّةٌ قليلةٌ بالكاد. فلا يمكن الحديث عن ذلكَ مع الألمان. وبطريقةٍ مشابهةٍ ربَّما لا أحد. البعضُ يقاتِلُ من الخوف، وآخرون لا يزالون يؤمنون بكلِّ هذا، والباقون إنهم مجرَّد ألمان مطيعين لم يأمرهم أحدٌ بالتوقُّف عن القتال. فالعديد ينتظرون هذا الأمر منذُ زمن، لكن

الأمر لم يصدرْ، إذاً يقاتلون. وأنا سأقاتلُ حتى النهاية، لن أنصاعَ لأمرٍ كهذا. يجب أن نُثيرَ غضبَ الروس علينا أكثر ما يمكن».

* «هذا يعني الموت المحتَّم».

- «أعلم، لكني رأيتُ منه الكثير حتى بِتُّ لا أخافه. أصلاً ماذا ينتظرني؟ أعليَّ أن أعيشَ بائساً في مكانٍ ما في الأسر؟ أم علي أن أختبئ والادِّعاء بأني مدني؟».

كان لا يزال يافعاً. أكبرُ من لويزا بسنةٍ أو سنتين.

- «أختي أخبرتني عنكَ الكثير البارحة واليوم. أنا سعيدٌ بأنها ليسَتْ وحيدةً في هذه الأوقات. قد لن ينفعها العيشُ مع أجنبيٍّ مثلك، لكنها سعيدةٌ الآن. هذا أكثر ممَّا تستحقُّه أيُّ امرأةٍ ألمانيةٍ اليوم. أتمنَّى لها ذلك بشكلٍ استثنائي، ففي نهاية الأمر هي أختي».

- «إنهُ أمرٌ معقد...». قاطعتْني حبيبتي الصغيرة.

* «نعم، يَصعُب على المرء أن يكونَ ضليعاً في ذلك. هذه كانت ألمانيا».

- «ما كان هذا الجنديُّ من سلاحِ المدرَّعات؟ وطنيٌّ أم عدميٌّ؟ خائنٌ أم بطلٌ؟ مجرمٌ أم إنساني؟».

* «حاولي أن تجيبي على ذلكَ بمفردك».

- «كان النازيون يعتبرون أولئك الذين لا يريدون أو يرفضون القتالَ خونةً وانهزاميِّين ويُعدِمونهم. لكن هو أرادَ القتال، وأراده حتى النهاية. وفقاً لهذا كان النازيون ليعتبروه واحداً منهم، وكانوا ليقلِّدوه الأوسمة. ولكنه كان يدَّعي بأنه هو بالذات لم يُصَبْ بطاعونِ النازية. لماذا أرادَ الاستمرارَ في الحرب التي لا أملَ من كَسبِها؟ أهذا منطقي؟».

* «أتعتقدين بأنهُ كان مخطئاً جدًّاً؟».

- «كَم مِن الناس ما كانوا ليموتوا!».

* «لقد عارَضتهُ في ذلكَ أيضاً. ولكن ربَّما لهذا السبَب لم يبقَ لديكُم في الجمهوريةِ الاتِّحادية اليوم سوى قِلَّةٍ من أولئكَ الذين لديهم الرغبةُ في إعادة الكرَّة مجدَّداً. لا يزال يُوجَد من تلكَ النوعيات، تعرفينَ ذلكَ جيِّداً».

- «موجودون، لكن لا أحد يأخذهم على محملِ الجد».

* «أنتِ لا تأخذينهم على محملِ الجد، والعديدُ مِنِ الشبابِ الألماني الذي يشبهكِ لا يأخذهم على محملِ الجد. ولكن هتلر أيضاً في وقتٍ ما لم يأخذوه على محمل الجد».

- «لكنَّ القِتالَ حتى النهاية، القِتالَ بشجاعةٍ وشراسةٍ، كي تكونَ الهزيمةُ صعبةً وشاملة...».

* «البعضُ كان يقاتلُ حتى النهاية لأنهم مؤمنونَ بالانتصارِ الأخير. فحتى مع حِصارِ برلين ظلُّوا يؤمنونَ بحدوثِ معجزة. هؤلاء كانوا اليوم ليصيحوا: لم نُهزَم. الخيانة تركتْنا تحتَ رحمةِ العدو، الخيانة وليسَ الهزيمة. لقَد فكِّرَ في الأمرِ جيِّداً».

- «هَل كانَ يوجدُ وقتها أحدٌ ما هنا لا يزال يملكُ عقلاً سليماً؟».

* «يبدو بأنهُ كان يملكُ واحداً. ولو أنهُ كانَ عقلاً سليماً مريعاً».

- «ألماني، أليسَ كذلك؟».

* «أنتِ قُلتِها لوحدك. لم أعُد أرغبُ في تكرارها دائماً».

- «أما أنتَ فلديكَ دائماً عقلٌ سليم، أليسَ كذلك؟ كانَ سليماً

أيضاً عندما كُنتَ تَصرِخُ على تلكَ الظلالِ المريعة التي كانت تحومُ فوقَ المدينة: اضربوا، دمِّروا، أحرِقوا كلَّ شيء، حطِّموا، لا تتركوا هنا حجراً في مكانه! أليسَ كذلك؟».

* «إنكِ وحشٌ صغيرٌ يا حبيبتي الصغيرة».

- «إنه مَنطِقُ ذلكَ الجنديِّ من سلاحِ المُدرَّعاتِ نفسه! أليس كذلك؟».

* «لم أفهم ما تقصدين».

- «اضربوا، دمِّروا، أحرِقوا كلَّ شيء، لا تراعوا وجودي، أنا سأموتُ هنا، وسأحبُّ أن أموت، مع أني أرغبُ في العيش، لكن ليس عليكم أن تراعوا وجودي، ضعوا نهايةً لألمانيا هذه، سأحبُّ أن أموت لذلك...».

* «أنا لستُ ألمانياً يا حبيبتي الصغيرة. دوافعي كانت مختلفةً تماماً».

- «وماذا حدثَ لاحقاً؟ اقتادك الغيستابو وحدثَ شيءٌ على الأرجح خلال الغارة الجوية مَكَّنكَ من الإفلات منهم. ربَّما لو لم يأتِ عنصرُ الغيستابو ذاك لأخذِكَ، لما كنتَ اليوم على قيد الحياة، أليسَ كذلك؟».

* «نعم، إنه احتمالٌ كبيرٌ يا حبيبتي الصغيرة».

- «في تلكَ الليلة لقيَ أكثرُ من أربعينَ ألفَ شخصٍ مصرعهم في هذه المدينة. لكن تلكَ الغارة أنقذتْ حياتكَ أنتَ بالتحديد. لقد كنتَ تصرخُ بسهولةٍ: اضربوا، دمِّروا، بعد أن نجوتَ من وضعٍ كاد أن ينتهي نهايةً سيئةً جدّاً بالنسبة إليك. شاهدتَ كيف يُقتلُ الناسُ في كلِّ مكانٍ

من حولكَ، لكنكَ كنتَ سعيداً، ليسَ لأنهم ألمانٌ فحسب، لم يكن الألمانُ وحدهم يقتلون، ولكنكَ كنتَ سعيداً لأنكَ نجوت».

* «عندها كانت لديَّ أمورٌ أخرى أقلقُ بشأنها غيرَ التفكيرِ في مثل تلكَ الأمور. وكانَ من المُمكِن أيضاً أن تصيبنا القنابل مثلَ أيٍّ شخصٍ آخر».

- «طبعاً كانَ من الممكنِ، لكنكَ لم تُصبْ. ولولا الغارة ما كُنتَ لتُفلِتَ من قبضةِ عنصر الغيستابو ذاك. لم يعُد لديكَ وقتها أيُّ أمل، أليس كذلك؟».

* «كنتُ بلا أيةِ فرصةٍ تقريباً».

- «كانوا ليقطعوا رأسكَ مِثلها على الأرجح».

* «هذا محتملٌ جدّاً».

- «وكانوا ليعذِّبوكَ قبلها، ويحطِّمون عظامكَ ويسحقون أحشاءك، أليسَ كذلك؟».

* «لم يحدُثْ هذا يا حبيبتي الصغيرة. لذا لا يمكنني أن أقولَ لكِ ماذا كان ليحدث أو لن يحدث».

- «لكنهم قطعوا رأسها. أتظنُّ بأن ذلكَ كان بسببكَ؟ فهي لم يكن لديها أيُّ علاقةٍ بتبغك. وأنتَ أيضاً ما كان الغيستابو ليعتقلكَ من أجلِ التبغ».

* «لا، من المؤكَّد أن ذلكَ لم يكن بسببِ التبغ».

- «لكنكَ فرحتَ؟ كنتَ سعيداً؟ على الرغمِ من أنكَ كنتَ تَعتقِدُ بأنها قضَت تحتَ القنابلِ».

* «لم تمتْ جرَّاء القصف».

- «الآن علمتَ بذلك، في هذا اليوم. وقتها لم تكُن تعرِفُ ذلك، وقتها كنتَ تعتقِدُ بأنها قضتْ تحتَ القنابل. لم ينجُ أحدٌ من "أتلانتيك" أصلاً، فالجميعُ بقوا هناك، أليسَ كذلك؟ إذاً كيفَ كان الأمرُ في نهاية المطاف؟ لقد أنقذتْكَ الغارة، ففرِحتَ لذلك، ليس لأنها أنقذتْكَ فحسب، بل لأنك كنتَ تعتقدُ بأنها قَضتْ في تلك الحانةِ الوضيعة. كنتَ مرتاحاً؟ شَعرتَ بارتياحٍ كبير؟».

* «هذه كانت مدينةً ألمانيةً يا حبيبتي الصغيرة. لم تسقطْ عليها طوال الحربِ قنبلةٌ واحدةٌ. ما هي الأسباب التي ستجعلُ الطيَّارين يستثنون مدينةً ألمانيةً واحدة؟».

- «لماذا لِوقتِها؟ لو فعلوها مِن قبل، كنتُ فهمتُ ذلك. أتعرِف ماذا يُكتَبُ اليومُ هنا وفي مكانٍ ما في الغرب عن تلكَ الليلة؟ هنالكَ كتَّابٌ، يدَّعون بأن الأمريكان دمَّروا المدينةَ كي لا تسقط سليمةً بيد الروس. لم يكن للقصفِ حينها أيُّ فائدةٍ عسكرية. كانت جريمةً. ألم يكن في استطاعتهم استخدام ذلك العدد من الطائرات على أهدافٍ أكثر أهمِّيةً؟ ربَّما كانوا بذلك سرعوا من نهايةِ الحربِ لعدَّة ساعاتٍ أو أيَّام».

* «هذه كُلُّها مجرَّدُ تكهُّنات يا حبيبتي الصغيرة. ربَّما بهذه الطريقة قد سرَّعوها لبضعِ ساعات. ففي الحربِ هنالك تأثيرٌ للعديدِ من العواملِ المختلفة».

- «برلينُ قريبةٌ جدَّاً من هنا. هنالكَ كان ليكونَ للقصفِ معنى ربَّما. هنالكَ كان يُقيمُ هتلر في ملجأ. هنا لم يكنْ للقصفِ أيُّ معنى. هنا لا. هنا لم تكنْ توجد حتى صناعةٌ عسكرية، والصناعة الموجودة

هنا لم يدمِّروها أصلاً. هدموا، وحرقوا، ودمَّروا الأحياء السكنية، والكاتدرائيات والمعالم الأثرية...».

* «توقَّفي عن ذلكَ يا حبيبتي الصغيرة. اذهبي ولو لمرَّةٍ واحدةٍ إلى لينينغراد، وعلى مقربةٍ منها توجدُ بيترهوف. اذهبي لرؤية ما الذي فَعلهُ الجنودُ الألمان بالحوريات الذهبية، وبالآلهة اليونانية، وبالنوافير الرائعة، وباللوحاتِ النادرة والنجود، ومن دون حرب يا حبيبتي الصغيرة، بلا أيِّ سببٍ، فقط لدواعي تخريبٍ وتدميرٍ دموية. أعمالٌ تخريبيةٌ كهذه ليس لها سابقةٌ في العصرِ الحديث».

- «حسناً، الألمان قاموا بفعلِ ذلك، لكن تريدُ أن تقنعني، بأن الآخرين كانوا يختلفون عنِ الألمان. كانوا مختلفين؟ انظرْ إلى هذه المدينة، كيف تبدو بعد كل هذه السنين».

* «عندما تُلقى القنابلُ يا حبيبتي الصغيرة بقصفٍ بساطي، لا يمكن للطيَّار أن يقول: لن ألقي قنبلةً هنا، لوجود مدرسة، أو كنيسةٍ للسيِّدة مريم العذراء، أو معالم أثرية، أو قصر...».

- «أو لوجود سجن. قرأتُ عن ذلكَ السجن. لقد احترق فيه مئاتُ السجناء وهم أحياء، كانوا ينظرون عبر القضبان، كيف كانت تقتربُ ألسنة اللهبِ منهم. هؤلاء لم يكونوا أعداءً أصلاً، لقد كانوا من الحلفاء، سجناء سياسيين... أتظنُّ بأنهم كانوا سعداء لدى رؤيتهم كيف تحيطُ النيرانُ بالمبنى وتقتربُ منه بلا هوادة؟ أتظن بأنهم كانوا يصرخون أيضاً: اقصفوا وألقوا القنابل علينا، لا تراعوا وجودنا!».

* «لم يكن في وسع الحلفاء مراعاة ذلك».

- «أخبرني بسببٍ منطقيٍّ واحد، واحدٍ فقط، لقيامهم بذلك».

* «لا أعرف يا حبيبتي الصغيرة. سأحتاجُ إلى مواد ووثائق. هنالك بالتأكيد من أصدرَ أمراً كهذا. هؤلاء الطيَّارون ليسَ لهم أن يغيِّروا فيه شيئاً».

- "لكن الألمان كان عليهم رفضُ الانصياعِ للأوامر، أليسَ كذلك؟ فقط الألمان كان عليهم أن يرفضوا».

* «الألمان جَرُّوا العالمَ إلى الحرب، يا حبيبتي الصغيرة. الألمان تمنُّوها، وافقوا عليها، كانوا يردِّدون بأعلى صوتِهم في الميادين "زيغ هايل"، هلَّلوا للنصر وقتلوا - ولا أقصدُ بذلكَ العمليات العسكرية - ملايين البشر. دمَّروا مناطقَ بأكملها ودولاً بحالها وتباهوا بذلك وكيفَ سيستعبدونَ أوروبا بأكملها وكيف ستخدمهم. لم يربحوا الحرب بعد وكانوا يتنازعون فيما بينهم على الليبنسراوم. تقاسموا فيما بينهم الأراضي الأوكرانية والبولندية، وكانوا يُحَضِّرون لضمٍّ مناجم وأفران دونيتس لمجموعات غورينغ التجارية. كيفَ تتحدَّثين صارخةً عن مدينةٍ مدمَّرةٍ واحدة؟ إنها مجرَّد حلقة. ربَّما كان هذا القصفُ بلا معنى، ربَّما لم تكن له أية أهمِّيةٍ عسكرية، لكن ما الذي تريدينَ مقارنتهُ فعلياً؟ هل بعدَ القصفِ العشوائي للندن بالصواريخ تنكرين على الإنكليز حَقَّهُم بالقيام بأعمالٍ مماثلة؟ لقد حذَّرَ البريطانيون الألمانَ مراراً، بأن يتوقَّفوا عن الإرهاب. الإرهابُ الجوِّيُّ لم يخترعوه هم. لقد بدأ به هتلر في بلجيكا وفرنسا ولم يُخفِ خططه لتدمير إنكلترا بواسطةِ الجو».

- «الإنكليز والأمريكان دمَّروا مدناً ألمانية. برلين، هامبورغ والرور. لكن ما كان عليهم فعل هذا. على الأقل كي لا يكون للشباب

الذين لم يعيشوا الحرب بأنفسهم فرصةُ المقارنة مع أيِّ شيء آخر. ألستُ محقَّة؟».

لا أعلم؟ إنها محقَّة، على الأقل فيما يتعلَّقُ بحديثها عن ناغازاكي. في هذا هي محقَّةٌ تماماً. لم يكن الأمريكان مضطرِّين إلى إلقاء قنبلةٍ ذرِّيةٍ ثانيةٍ على مدينةٍ بكثافةٍ سكانيةٍ عالية، ليقنعوا اليابانيين بأنهم يمتلكونَ في مستودعاتهم وسائلَ تدميريةً أخرى كتلك التي استخدموها في هيروشيما. هل هذه المدينة هي ناغازاكي الأوروبية؟

- «كانَ من الممكنِ أن أكونَ قد اجتزتُ هذه المراحل. وكان في إمكاني اليومَ أن أعيشَ مع معرفتي بأني ابنة مجرمِ حرب. إنها معرفةٌ قاسية، ولكن كان ليتوجَّبَ عليَّ أن أتعايشَ معها. ربَّما شخصٌ كهذا لديه الحقُّ بالحياة. لكن هذه المدينة تخلِقُ في نفسي الشكوكَ دائماً. لا أعرفُ ما هو موقفي. لا أستطيعُ الوصولَ إلى أيِّ نتيجة. هل يمكنُ العيشُ هكذا؟ بالطبع، فمن أنا أصلاً، ومن سيهتمُّ في نهاية الأمر، بأنهُ في مكانٍ ما تعيشُ فتاةٌ ألمانيةٌ شابة، يقضُّ مضجعها سؤالٌ غير قابلٍ للإجابة، إن كانَ والدها أو لم يكن مجرمَ حرب، إن كان حصلَ في النهاية على ما يستحقُّه، أم أنه فعلاً كانَ المنتصرون يحَاكِمونَ الخاسرين. وأنتَ هنا تخبرني عن ألمانيٍّ قاتلَ بلا هوادةٍ حتى آخرِ بقعةِ أرض، لأنه كان يتمنَّى الهزيمة، كذلك أخبرتَني كيفَ كنتَ تصرخُ: اضربوها، ألقوها، ارموا بها أخيراً على رأسي... وفي الوقت نفسه تحاولُ إقناعي بسلامة عقلك. هل بقي أصلاً وقتها أحدٌ طبيعي؟ جميعكم أسرى كراهيتكم، وذكرياتكم، وسيِّئاتكم، وتريدون منا أن نصدِّقكم، وأن نَفهمكم، وأن نأخذكم على محملِ الجد. لكن أين أخذتُم أيُّها العقلاءُ هذا العالم؟

كيف يبدو انتصاركم، وسلامكم بعد عدَّة أعوام؟ أنتَ تقولُ لي إن الألمان الغربيين يرفعون رؤوسهم مجدَّداً. لكن عن أيِّ ألمانٍ غربيين تتحدَّث؟ نحن الشبابُ لن نرفعَ رؤوسنا أبداً. من يقوم بذلك هم أولئك الألمان الذينَ علينا أن نخجلَ بهم. لقد شنقوا أبي، لكنهم بدأوا باستمالة وشراء آخرين، ربَّما أسوأ منه، واختيارِ استشاريين وخبراء منهم. وحتى من بين عناصرِ الوحدة الوقائية. لقد ألغوا لدينا عقوبةَ الإعدام. إنها خطوةٌ قمَّةٌ في الإنسانية، أليسَ كذلك؟ لكن ربَّما ألغوها فقط، كي لا يضطرُّوا إلى قطع رؤوس أولئكَ الذين سيتوجَّبُ عليهم بَعدُ محاكمتهم على جرائمهم. وأنا مِن حقِّي أن أسألَ، لماذا والدي؟ وليس أولئك الذين حُوكِموا وأُدينوا بجرائمَ أكبرَ بكثير؟ ماذا يريد مني هذا العالم في نهايةِ الأمر؟ أن أخجلَ من كونه أبي وفي الوقت نفسه أن أبتسمَ لمن هو أسوأ منه، وأمُدَّ لهم يدي؟ إنهم موجودون في كلِّ مكان، في البرلمان، وفي الحكومة، وفي الجيش، وفي القضاء. هل بذلكَ أخذت العدالةُ مجراها، أم أن والدي لم يحالفهُ الحظُّ بكلِّ بساطة؟ ربَّما بعد سنتين أو ثلاث ما كانوا ليُحاكموه أصلاً. وأنا ما كنتُ اليوم لأكونَ ابنة مجرمِ حربٍ، وإنما ابنة رجلِ أعمالٍ ناجح».

أهي محقَّة؟ ربَّما، نعم. إنها أشبهُ بمفترسٍ صغير، يعضُّ مرَّةً ولا يُفلِتُ أبداً. إنها محقَّة، لكنها مرَّةً أخرى حقيقتهُم الألمانية. وللأسف، لم تعد الكيفية التي سيخرجون بها من هذا الوحل شأنهُم وحدهم فحسب.

* «وماذا عن أوروبا يا حبيبتي الصغيرة؟ هل كان علينا بعد حربٍ أشعلها الألمان وكلَّفتنا كلَّ هذا، أن نبتسمَ لهم ونَقبلَ اعتذارهم؟

نحن آسفون، لقد أخطأنا، لم نكن مهيَّئين بشكلٍ كافٍ للسيطرةِ على العالم، تحلُّوا بالصبر من فضلكم، امنحونا فرصةً لنحاولَ مرَّةً ثانية، بطريقةٍ أخرى أفضل، سنقوم أمامكم بأداءِ حربٍ عالميةٍ رائعةٍ مع قنابلَ ذرِّية، فهتلر كانَ مجرَّد بائسٍ أخرق بإدارته الحربَ بأسلوبِ مدير مصنع، نحن سنطوِّرها ونجعلها مبنيةً على أسسٍ علمية... ألا ينادون بذلك؟ طبعاً اليوم ينادون لديكم بذلك، وإن لم يستخدموا هذه الكلمات، فهم يفسِّرون المطالبَ بالحصولِ على قنبلةٍ ذرِّيةٍ بادِّعائهم أنَّ الألمان هم شعبٌ من العظمة والقوَّة بحيث يصعبُ أن يكتفي بدورِ شعبٍ من الدرجةِ الثانية. وما هي وجهتهم يا حبيبتي الصغيرة؟ ستعرفين ذلك من المعبرِ الحدودي في هلمشتيت هنالك لوحةٌ تظهر المسافة بالكيلومترات. ستجدينَ من بينِ ما كُتبَ عليها - غدانسك كذا وكذا، كونيغسبرغ كذا وكذا... الطرقُ واللوحات الموجودة فيها هي من الممتلكاتِ العامة الخاضعة لسلطة الدولة والحكومة يا حبيبتي الصغيرة. لا يمكن لأحدٍ ما أن يبرِّرَ ذلك بأنه عملُ منظَّماتٍ تافهة، موجودة ضمن البيئة الديمقراطية السائدة لكنها لا تحدِّد سياسةَ الحكومة. اليوم مكتوبٌ هناك غدانسك، كونيغسبرغ، فروتسواف. عناصرُ الوحدة الوقائية كانوا يغنُّونها خلالَ الحرب بشكلٍ أوضح: "اليوم نملكُ ألمانيا وغداً العالمَ بأسره"».

- «لكِن كانَ هنالكَ ألمانيٌ لا يريدُ ذلك، وألمانية لم تكن تريدُ ذلك أيضاً...».

* «لا أعرِفُ ماذا حلَّ بذلكَ الألماني يا حبيبتي الصغيرة، على الأغلب لم يَعُد على قيد الحياة. شيءٌ سيِّئٌ قد حدثَ له، لكن لا أعرف

ما هو. أما تلكَ الألمانية التي لم تكن تريدُ ذلك، فقد قطعوا رأسها. لقد سمعتِ ذلك بنفسك، قطعوا رأسها».

كانت ليلةً رائعةً تلكَ التي قضيناها معاً حينها، يا حبيبتي الصغيرة، كانت لويزا جميلةً ولطيفةً ولم أعُدْ غيرَ مكترثٍ بما سيحلُّ بها.

«سنرحلُ يا لويزا». كنتُ أخفِّفُ عنها، «سنرحلُ إلى مكانٍ حيثُ يمكننا العيشُ بهدوء، لا بدَّ من أنَّ مكاناً كهذا موجودٌ في العالم».

- «أيوجدُ مثلُ هذا المكان؟». سألتْ.

* «حتى لو لم يكن موجوداً، سأبتكر واحداً وآخذكِ معي».

أمضينا الليلة نبتكِرُ مكاناً كهذا ولم نتمكَّن من العثورِ عليه.

بعد مرور عدَّة أيَّامٍ على رأس السنة، صادفتُ فتاة بوريس الفرنسية، ماريلا تلك.

* «ما هي أخبارُ بوريس يا ماريلا؟».

- «لم يعدْ هنالك بوريس».

* «هل تركتِه؟».

- «لم أتركْه. لم يعُدْ هنالكَ بوريس، لقد مات».

لم أكن أتوقَّعُ ذلك. صحيحٌ أن بوريس كان أحمق، لكني كنتُ أحبُّه.

* «ممَّ كان يشكو؟».

- «لا شيء».

* «لا أحد يموت من اللاشيء يا ماريلا».

- «بوريس ماتَ من اللاشيء. استلقى في أحدِ الأيام على سريره في المنزل ورفض النهوض. قالَ لي إنه لم يعد راغباً في العيش. وماتَ بعدها. لم يعد يرغبُ في العيش. بدا له الانتظارُ طويلاً جدّاً. حتى أني لا أعرفُ إن كان ينتظرُ شيئاً ما أصلاً...».

* «وماذا تفعلين الآن يا ماريلا؟».

- «ماذا أفعل؟ أقوم بما أستطيع وما أجيد».

هممتُ بالمغادرة لكنها أوقفتْني.

- «قُلْ لي، تلكَ الأغراض التي أعطيتَني إيَّاها وقتها، هل أردتَ إعطاءها لامرأةٍ أخرى؟».

* «أيزعجكِ ذلك؟».

- «لتلكَ التي جاءت تبحثُ عنكَ يوم عيد الميلاد؟».

* «نعم، تلك».

- «خرجتَ خلفها كجروٍ صغير. أهي ألمانية؟».

* «نعم، ألمانية».

- «أتحبُّها؟».

* «لا أعرف يا ميريلا. ربَّما أحبُّها، لكنها ألمانية».

- «لا أريدُ تلكَ الأغراض».

* «إنكِ مجنونة».

- «لا أريدها. لا أرتديها. اشتريتَها للألمانية. ما كان عليكَ أن تعطيني إياها أبداً».

لاحَظت لويزا بأني لستُ على ما يرام.

* «لقد تُوفِّيَ صديقٌ لي. الروسي، الذي كان طوالَ حياته جندياً».

- «ماذا حدثَ له؟».

- «لا شيء. لم يعدْ يرغبُ في العيش».

كلا، يبدو أنه لا يوجدُ في العالمِ مكانٌ كذلكَ لنا نحنُ الاثنين.

- «لقد حضرت الشرطةُ السرِّيةُ إلى هنا اليوم...». قالت بجدِّية.

* «ماذا أرادوا؟».

- «لا أعرف تماماً. لم أفهم مِن أسئلتهم ما الذي جاؤوا من أجله».

* «ألم يسألوا عني؟».

- «كلا. لم يذكروا أيَّ شيءٍ عنك. لم يبدُ عليهم أنهم من الجنائية، أو الغيستابو».

اقتربتْ مني وضمَّتْني.

- «أنا قلقةٌ. أعتقد بأنَ الأمرَ متعلِّقٌ بكورت بشكلٍ أو بآخر. بدا لي كورت غريباً جدَّاً لدى مغادرته. وكأنه كان يودِّعني لآخر مرَّة، وكأنَّ قراراً يائساً قد نضجَ في رأسه».

* «ألم يخبروكِ بشيءٍ محدَّد؟».

- «كلا. فقط سألوا عنه عدَّة مرَّات، أسئلةً غير مباشرة، من هم أقربائي، وأين هم، وأين كورت، إن كان جندياً جيِّداً، لقد حاموا بأسئلتهم حوله عدَّة مرَّات، إن حضرَ إلى المنزل، ومتى كان ذلك، وإن لم ألحَظْ عليه أيَّ علاماتِ توتُّر، وتعب... وهل كان سعيداً، وهل لديه فتاة هنا... إني خائفة من أن لا يكون على ما يرام».

* «بالعكس، على ما أعتقد فقد بدا لي بأن كل شيءٍ لديه على ما يرام».

- «لم أقصد ذلك، أنتَ تعرفُ تماماً ما عنيت».

لكن بعد يومين كانت في قمَّة السعادة.

- «سيحضرُ أبي. أخيراً سيأتي! أرسَلوا لي برقية من الوزارة، بأنهُ سيأتي للتشاور ويعلمني بأنه سيمُر عليَّ بزيارةٍ خاطفة. أبي شخصٌ جيِّد وذكي. سيحبُّك...».

لكني لم أستطع التوقف عن التفكير في أمرِ الزيارة التي تمَّتْ منذ بضعةِ أيام. لم أُرِدْ أن أجعلها تقلق بلا سبب، لكن لم يكن لديَّ شعورٌ جيِّد تجاه الأمر.

* «لم يعد هذان الاثنان مرَّةً أخرى إلى هنا؟». سألتها وكأني لا آبه بشيء.

- «كلا. من يدري ما الذي أراداه. ربما كانوا مجرَّد متطفِّلين».

مُجرَّدُ متطفِّلين، متطفِّلين كبار. كلا، لم أكن قادراً على التخلُّصِ من الإحساس السيِّئ.

- «لا تُزعج نفسكَ بالتفكير في الأمر. سيأتي أبي، هذا هو المهمُّ الآن».

نهضتُ.

* «سأذهبُ بعد إلى "أتلانتيك". وأعودُ باكراً».

- «خذني معك. أريدُ رؤية المكانِ ولو لمرَّة. خذْني...».

لم أتمكَّنْ مِن ثنيها عن القيامِ بذلك. حاولتُ جاهداً إخبارها عن

الصمتِ المطبق الذي حلَّ حين ظهرتْ في مدخَلهِ المرَّة الماضية. لم أفهَمْ لماذا تتوقُ إلى فعل ذلك. بالتأكيد هنالكَ نوعٌ من الغرابةِ المبهرة في الأمر. ولكن بالنسبةِ إليَّ كان واقعاً مؤلماً.

- «أريدُ أن أكونَ معكَ في كلِّ مكان. أريدُ أن أكونَ معكَ حيثُ تكون...».

عَزمَتْ على الذهاب.

* «لكني لا أضمنُ أيَّ شيء...». تراجعتُ.

كان "أتلانتيك" مملتئاً كالعادة. وحول الموقدِ الغازيِّ الكبير كان يتجمَّعُ أولئكَ الذين لا يعرفون الدفء عادة. لم يُنادِ عليَّ أحدٌ مرحِّباً كالعادة. جلسنا بصحبةِ فلوديك».

* «ألا تزالُ بلا قميص يا فلوديك؟».

- «وما حاجتي إلى القميص؟ يتعلَّقُ القملُ بالقميص، ولكن هكذا يتجمَّد».

نظرتُ من حولي. فقُوبلتُ بنظراتٍ عدائية. حتى لويزا لم تكن مرتاحة.

انحنَت باتِّجاهي.

- «ماذا عليَّ أن أفعل؟ إنه يتحسَّسُ فخذي».

* «أردتِ القدومَ إلى هنا، فجرِّبي ذلك».

رمقتُ البولنديَّ بنظرةٍ حازمة، فتوقَّف.

لم يكن في وسعنا أنا ولويزا النهوضَ والمغادرةَ فوراً، كان علينا المحافظة على حدٍّ أدنى من اللباقة. لحُسنِ الحظ أن ميريلا لم تكن

هناك، فقد كانت لِتتسبَّبَ بفضيحةٍ بلا أدنى شك. جلسنا نحو نصف ساعة، كان المزاجُ مريعاً وعرفتُ لماذا.

هممنا بالخروج عندما دخلا، حاولا أن لا يلفتا الأنظار، وكأنهما أتيا لشربِ الجعة فقط. لكن الجميع علمَ فوراً من هما.

نظرتُ إلى لويزا متسائلاً. فأشارت لي بعينيها نافية. ليسا من زارها.

اتَّجها نحو خزانة الشرب وتحدَّثا مع الساقي بأمرٍ ما. كلُّ من كانَ عندَ المشرب ابتعد عنهما. راحَ لويزيك يعزف، لكن مع التوتُّر الذي سبَّبه قدوم هذين الاثنين، بدا ذلك مريعاً. وأنا أيضاً كان لدي شعورٌ سيِّئ بأنهما هنا من أجلنا. وقد كانا كذلك. ابتعدَ أحدهما عن خزانة الشرب، واتَّجه نحو الباب، ومن هناك غمزني بشكلٍ غيرِ ملفتٍ ولكن حازم. نظرتُ إلى هيني، كان يُقَلِّبُ عينيه، لم يكن يعرفُ شيئاً. نهضتُ، فأمسكتني لويزا مذعورةً من يدي.

- «إلى أين تذهب...».

* «إلى الخارج فقط».

- «سآتي معك».

* «اجلسي وابقي هادئة. سأعودُ بعدَ قليل».

خرجتُ إلى الفناء المظلم. لم يكن هنالك سواه مرتدياً المعطفَ الجلدي. وقبل أن أتمكَّن من إدراك الأمر، كان قد وضعَ فوَّهةَ المسدسِ على رأسي.

- «استدِرْ نحو الحائط وارفع يديك...».

فتَّشني بحثاً عن سلاحٍ محتمل.

- «تحرَّكْ. ولا تُفكر في ارتكاب أية حماقة».

ونحن في الشارع أخذ يستعجلني باستمرار. هيا تحرَّكْ، تقدَّمْ، بلا حماقات، أجيدُ إصابة المثانة من خلف ظهري، إنه موتٌ مؤلمٌ جداًّ، لذا لا تكنْ غبياً وتصرَّفْ كما يجب.

أخذ يأمرني إلى أين أسير. لم أكُن مضطرّاً إلى التفكير في ذلكَ كثيراً. كنتُ أعرفُ أينَ يقعُ مقرُّهم. كان في إمكاني توقُّعُ ذلك، لم أكن حذراً في الفترةِ الأخيرة. مَن يدري ما الذي يعرفونه؟ لا بدَّ من أن أحداً ما قد ثرثر. لوهلةٍ خطرَتْ لي فكرةٌ سيِّئة، بأنها قد تكون فتاة بوريس الفرنسية. كان لا بدَّ من أن يحدُثَ ذلك. عندما كان تشارلي لا يزال هنا، كنا حذرين للغاية، لكني لم أعُد أرغبُ في توخِّي الحذر، وهذه هي النتيجة. سيضربونني ليعرفوا من أين لي بالتبغ. سيفتِّشون منزلي. لن أخبرهُم بأيِّ شيء. لن يحصلوا مني على كلمةٍ واحدة. لكن، أحقاً لن يحصلوا؟ استطاعوا من آخرين الحصول على كلِّ شيء...

كنتُ أفكِّرُ في ذلكَ عندما بدأ ذلك الضجيجُ في الأعالي. لبرهةٍ تملَّكني أملٌ رهيب، ولكنه اختفى فوراً. إنهم متَّجهون نحو برلين. لقد سبق ومرُّوا عدَّة مرَّاتٍ من هنا وهم في طريقهم إلى برلين.

أخذَ الضجيجُ يعلو. لا بدَّ من أنهم كانوا بالمئات. وبدأت صفَّاراتُ الإنذار تدوي متأخِّرة. وراح عنصرُ الغيستابو يلعَن ويشتِم، لكنَّه استمرَّ في تحذيري، لا تفكِّر في ارتكاب أية حماقة، وإلا سأصيبكَ في مثانتك.

كنتُ أقفِ ملاصقاً للجدار تماماً، ووجهي باتِّجاه السور. صرخَ عليَّ عنصر الغيستابو: «ضع يديكَ خلفَ رأسك...».

أدرتُ رأسي قليلاً كي أتمكَّنَ من رؤية ما الذي يحدثُ من حولي. فوقَ المدينةِ كانت تطفو ببطءٍ ثُريَّا سماويةٌ هائلة. لقد غطَّى الشوارعَ بريقٌ أقوى من ضوءِ الشمس. التعتيم لم يعُدْ له أيُّ معنى، أولئكَ الذين سيأتونَ، وقد أدركَ الجميعُ بأنهم سيأتون، سيشاهدون كلَّ بقعةٍ ومنزلٍ وشجرةٍ وحجرٍ من حجارة الأرضية.

باتَ مسموعاً صوتُ اقترابهم وضجيجهم المتعالي. لم يكونوا ذاهبين باتِّجاه برلين، إنهم يعودون. لقد خدعوا دفاعاتِ المدينة. والآن فات الأوان لفعلِ أيِّ شيء. ظلَّتْ صفَّاراتُ الإنذار تدوي بيأسٍ وبلا توقُّفٍ معلنةً بدء الغاراتِ الجوِّية التي كانوا قد أعلنوا نهايتها قبلَ قليل. لكنَّ الناسَ هنا لم يكونوا يأخذونَ الإنذارَ بغارةٍ جوية على محملِ الجد. لم تتساقط القنابلُ على هذه المدينة من قبل. فلماذا ستسقطُ الآن بالتحديد؟

غمرني شعورٌ عارمٌ بالتفاؤل. كنتُ أقِفُ ووجهي نحو سورِ الكنيسة، ويدايَ خلفَ رأسي؛ كان عنصرُ الغيستابو مِن خلفي يراقِبُ كلَّ حركاتي، في حال استطاع أن يوصلني حيثُ يُريد، ستكونُ هذه حتماً نهايتي، ولكنه لم يحسِبْ حساباً لهذا، فخلال الغارة يمكنُ أن يحدثَ أيُّ شيء. الفتيان الصالحون وصلوا في الوقت المناسب، في أفضل توقيت بالنسبة إلينا. ولكن ماذا ينتظرون؟ لماذا لم يبدؤوا بعد؟ مَن يمكنه تحمُّلُ مثلِ هذا التوتُّر؟ هيَّا، ألقوا، أحرِقوا، دمِّروا! ماذا تنتظرون بعد؟

الضجيجُ كانَ قد أصبحَ قريباً جدَّاً.

بدأت رقص الموت.

بدأتْ بصفيرٍ مفاجئ لمئاتِ القنابلِ المندفعة في الجو، ربَّما كنوع من المؤثِّرات ثبَّتوا عليها مراوح تَصفِّرُ بصوتٍ عالٍ كتلكَ التي كان الألمانُ ينشرون الذعرَ بواسطتها في المدن الفرنسية خلال غاراتِ شتوكا.

بدأت بوميضٍ في كلِّ مكان، المئاتُ منها وكأنَّ المدينة تعرَّضتْ فجأةً لضرباتِ آلافِ البروق والرعود.

بدأت بصوتِ تَهدُّمِ المباني، هنا وهناك، في كلِّ مكانٍ بالأنحاء.

بدأت بانزياحِ الكرةِ الأرضية عن محورها. كانتِ الأرضُ تُفتَحُ وتَهتزُّ وتُزمجِرُ وتَنشقُّ وتتزلزل.

الآلافُ من الحناجرِ صرختْ معاً في لحظةٍ واحدة، في آخِر رَعشاتِ ذلك الرُّعبِ الذي لا يمكن تخيُّله. أناسٌ نِصفُ عراة، كانوا يقفزون من كلِّ الطوابق إلى الأرض. طيورٌ سماويةٌ عملاقةٌ كانت تُحلِّقُ فوقَ المدينة بهدوءٍ في تشكيلاتٍ مغلقة. كانت تنسابُ منها حِممٌ نارية، تتطايرُ من على أسطحِ المنازل إلى ملايين الشرارات. لم تكنْ تُعرف حينها بالنابالم.

أوَّلاً ضجيج.

ثانياً صفيرُ القنابل.

ثالثاً طبلٌ سماوي.

رابعاً فرقعة.

خامساً نار.

النارُ كانت في كلِّ مكان. كلُّ شيءٍ كان يحترق.

ثمَّ غطَّى المدينةَ التي لم تَعُدْ مدينةً دخانٌ لاذع.

وفي مكانٍ ما قريب، كان يُسمَعُ صوت هديرِ المياه المتسرِّبة مِن أنابيبِها المفجورة مغرقة الشوارع.

وقارعُ طبولٍ مريعٌ كان لا يزالُ يقرعُ بلا هوادة، بووم، بووم بوووم، بوووم بوووم بووم... إنه بساطٌ من القنابل المتسلسلة التي كانت تسقطُ على المدينة. وبين الحين والآخر كان يُسمَعُ صوتُ انفجارٍ ضخمٍ يغطِّي على كلِّ شيءٍ آخر. كانت هذه طوربيدات جوية. عشرة أطنان من متفجرات ت.ن.ت.

ومِن ثمَّ كلُّ هذا الغضبِ والحنقِ وأصواتِ الصفيرِ والقرعِ والزمجرةِ والهديرِ والقصفِ والضربِ تلك قاطعها صوتُ صراخ. صراخٌ بشري. أميـيـيـي!!! يااال أميـيـي!!! يا أميـيـيـي!!!

لم أعُدْ واقفاً ووجهي نحو سورِ الكنيسة. وعنصرُ الغيستابو ذاك لم يعد من الغيستابو. كان راكعاً على الأرض يُتمتم بشيءٍ ما. كان يصلِّي. أبانا الذي في السموات... وبجانبه كان هنالك مسدَّسٌ ملقى على الأرض. كان الضوء ساطعاً لدرجة أني استطعتُ تمييزه بأنه من نوع ماوزر.

قِطعةٌ من الجصِّ المفكوك سَقطَت على رأسي. كانتِ الكنيسةُ ترتعدُ خوفاً كالبشر. وهديرُ موجةٍ جديدةٍ من الغاراتِ أخذَ يقترِبُ بسرعة.

«لا يمكننا البقاءُ هنا...». صرختُ على عُنصرِ الغيستابو. لم يعِ ذلك. لم يكن يسمعني أبداً، فهززتُه بعنف.

«لا يمكننا البقاءُ هنا». صرختُ في أذنه. فتوقَّفَ عن الصلاة، ونظر إليَّ معاتباً. لم يفهم ماذا أريد، لماذا أقاطعه. أدركَ الأمرَ لاحقاً، لكنه لم يعد عُنصرَ غيستابو، أصبح لا شيء، أراد أن يصلِّي فقط.

«اغرب عن وجهي». قال لي، «اذهبْ، اغربْ عن وجهي...».

خرجتُ من تحت قنطرة الكنيسة إلى الميدانِ المضاء. بساطُ القنابل كان قد شوَّهَ أرضيَّته الحجرية. أردتُ الهروبَ بعيداً، لكن عندها خطر لي أمرٌ ما، فعدت. كان عنصرُ الغيستابو يصلِّي من جديد. وبالقربِ منهُ كان المسدَّسُ ملقى على الأرض من نوع ماوزر. فالتقطتُه. حرَّرتُ مسمار الأمان. ووضعتُه عند رأسه. وضغطتُ على الزناد. في ذلك الجحيم، الذي عادَ ليستعِر بكلِّ قوَّته من جديد، بالكاد سُمعَ رنينٌ بسيط. انفجر الدماغ. سقط بيدين مبعثرتين وارتطم جبينه بالأرض. أطلقَ حشرجة. وهلك...

- «قتلته؟».

* «نعم، قتلته».

- «لماذا فعلتَ ذلك؟».

* «كان من الغيستابو».

- «لقد أطلقَ سراحك. قال لك: اذهب».

* «كان من الغيستابو».

- «كان يصلِّي. كان يصلِّي في اللحظة التي قتلتهُ فيها».

* «كان يهدِّدني بأنه سيطلق النار على مثانتي. أنا قتلته بحيث أنه لم يعرف ذلك».

- «بِجُبن. من الخلف. طلقة في رقبته من الخلف. إنها جريمةُ قتل!».

* «لم تكنْ جريمةَ قتل. كان من الغيستابو. من الغيستابو ألا تعرفين ما يعني هذا؟ صيَّادُ بشر. كان يريدُ اقتيادي إلى شارعٍ جانبي ما وإطلاق النار على مثانتي. كنتُ أشعرُ به طوال الوقت من خلفي كيفَ كانَ متحمِّساً لتلك اللحظة».

- «لماذا قمتَ بذلك؟ هل خِفتَ من أن يستعيدَ وعيهُ ويتذكَّرك ويعاودَ البحثَ عنك؟».

* «كلا، ما كان ليلاحِقَ أحداً حينها».

- «إذاً لماذا قمتَ بذلك؟».

* «لا أعرف. بطريقةٍ ما كان هذا ملائماً لتلكَ الليلة. كان عليَّ فِعلُ ذلك. لم يكن ذلكَ متعمَّداً، ولا نابعاً عن إرادةٍ أو منطق، لم أفكِّر في شيءٍ في أثناء ذلك. تمَّ الأمرُ كما هو فقط».

- «ألم تندَمْ يوماً على ذلك؟».

* «كلا. لماذا؟ كان من الغيستابو. ويهدِّدني بأنه سيطلقُ النارَ على مثانتي».

- «أبي قتلَ عدداً من الطيَّارين الإنكليز الأسرى، فحاكموه أمامَ محكمةٍ عسكريةٍ إنكليزية وحكموا عليهِ بالإعدام شنقاً. أمَّا أنت فقد قُمتَ بفِعلِ الشيء نفسه. قتلتَ عدوّاً برصاصةٍ في مؤخَّرة الرأس، كان يصلِّي، وكان أعزل، بلا حولٍ ولا قوَّة. لكن يبدو أنها لم تكن جريمة، وإنما كان وفقاً لك ولكلِّ الباقين، عملاً بطولياً، أليسَ كذلك؟ من تلكَ الأعمالِ التي تُكرَّم، أليسَ كذلك؟».

* «كان من الغيستابو. ألا تفهمين ذلك؟ كان من الغيستابو، هذا هو الفرق».

- «كانت الحرب قائمة وهو كان يحرِسُ القانونَ والنظام مِن كُلِّ مَن كان يحاول تفتيتَ القواعد، وإضعاف قوَّة الجبهة، وقدرةِ الشعبِ على القتال، وأنتَ كنتَ أيضاً واحداً من هؤلاء».

* «أنا لم أرغب يوماً في العيش في مثلِ هذه الظروف التي كنتُ أعيشها هنا. لا أحد من ملايين الأسرى والمسجونين والذين انتُزعوا من بيوتهم وبلدانهم ومن عاداتهم وأعمالهم وهواياتهم وحياتهم الوديعة وجُلبوا إلى ألمانيا أراد العيشَ في ألمانيا قط، ولم يُرِدْ أن يسمعَ عنها أبداً. لقد جلبتْنا الحربُ الألمانية وهو كان إحدى أدواتِها، كان حارسها ومنفِّذها وحاميها وملهمها، كان سببها».

- «لقد كان يحرِسُ القانون. وأنتَ كنتَ وفقَ ذلك القانونِ مجرماً. كان يقومُ بواجبه فقط».

* «أنتِ على حقٍّ يا حبيبتي الصغيرة. كان يحرسُ القانون. القانون الألماني. لكنَّ القانونَ الألمانيَّ كان قانوناً إجرامياً. مَن كانَ يدعمُه، من كانَ يطبِّقهُ، من كانَ كما تسمِّينَ ذلكَ يحرسهُ؟ كان مجرماً. أنا لم أرغب في حياتي بقتلِ شخصٍ ما، لا ألمانياً ولا غيره. أما هو فعلى الأرجح قد تسبَّب بهلاكِ وموتٍ، موتٍ مريعٍ، لنَقُلْ بإطلاق النارِ على المثانة، للعديدِ من الناس. ومن ثَمَّ راح يصلّي...».

- «ربَّما، ربَّما في تلك اللحظة، التي وضعتَ فيها المسدسَ إلى رأسه، كان يطلبُ المغفرة، ربَّما كان يهمِسُ بأنه لن يقومَ بإيذاء أحدٍ قط، ربَّما كان يعيشُ حالةَ تَبدُّلٍ كبير، ربَّما نَضج...».

* «نضوج الألمان حال حدوثه، كان يأتي متأخِّراً جدّاً. غالبيَّتهم العظمى نضجَتْ بعد الهزيمة الشاملة. وأنتِ تعرفينَ جيِّداً بأنه يوجدُ من لم ينضجوا حتى يومنا هذا. من يدري، ربَّما كان ليكونَ اليومَ مالِكَ مصنعٍ لعرباتِ الأطفال أو حمَّالاتِ الصدر النسائية. أتعرفينَ أنتِ مِمَّنْ تشترينَ حمَّالاتِ صدرك؟ أيمكنكِ معرفةُ ذلك؟ هل ستكونين مرتاحةَ البال لو علمتِ بأن ذلكَ الجزء الرائع والرقيق من جسدك يحيطُ به منتجٌ ناعِمٌ، مَرَّ بأيدي شخصٍ كان يُطلِقُ النارَ على مَئاناتِ البشر؟».

ابتعدتْ عني. يبدو أنها صُدِمت من هولِ فِكرةٍ كهذه.

- «كفى... توقَّفْ! لماذا أتيتَ إلى هنا؟ لتعذيبي؟».

نهضتُ. بالفعل، لماذا أتيتُ إلى هنا أصلاً؟ كيفَ وصلتُ إلى هنا؟ دعتْني لشربِ القهوة. قالت لي، لا أرغبُ في النوم بعد، تعال لنشرب القهوة في منزلي... انتهت الليلة، ولم يبدأ النهارُ بعد، ولكن انتهت الليلة ولم يَعُد لديها قهوة.

- «إنكَ قاتل! إنكَ مجردُ قاتلٍ غبي! لا تختلفُ بشيءٍ عن أولئكَ الذين منحتَ لنفسكَ حقَّ محاكمتِهم! لا تختلفُ إطلاقاً».

بالفعل، حانَ وقتُ الرحيل. ما كانتِ الفائدةُ من هذه الليلةِ بأكملها؟ فهي مع ذلك لم تفهَم شيئاً، لا تستطيع، إنها ألمانية. كيفَ انقلبَ كلُّ شيء منذ اللحظة التي دعوتها فيها بدون تفكير لتناولِ العشاء. كان في إمكاني أن أتوقَّعَ نهايةً كهذه أو مشابهةً إلى حَدٍّ كبير. والفندق يبعد عن هنا مسافةً كبيرة.

لكِن لم أستطع المغادرة. لم يكن ذلك ممكناً. كانت حبيبتي

الصغيرة تبكي. كانت مستلقيةً على الأريكةِ تبكي. عُدتُ إليها، وجلستُ على الحافَّة، داعبتُ ذراعها. لا تبكي، يا حبيبتي الصغيرة. لماذا تبكين؟ لا تبكي...

- «أعرفُ بأنكَ على حق...». شهقتْ، «أعرِفُ بأنكَ على حق. ليس فقط فيما يتعلَّق بحمَّالةِ الصدر».

وهي أيضاً كانت على حق، لا يمكِنُ فعلاً العيشُ هكذا. كم مرَّةً خلالَ هذه الليلة وكم مرَّةً خلال حياتها كانت تقنِعُ نفسها بأنّ كلَّ شيءٍ لا بدَّ من أنه كان مختلفاً؟ بالنسبةِ إليها كان منَ الأهمِّيةِ بمكان أن يكونَ كلُّ شيءٍ مختلفاً، لكنها لن تتغلَّب على ذلك ما لم تعرِف كيفيةَ الاعترافِ بالحقيقةِ المرَّة والسيِّئة، ولكنها الحقيقة الصافية. فقط هذا هو سبيلُ خروجِها، فقط هذا هو مخرجُ الجميعِ ومخرجُ كلِّ شيء.

* «كان من الغيستابو، يا صبية...».

- «أعرِفُ ذلك...». شهقتْ مهتزَّة، «أعِرفُ ... لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ ماذا أفعل؟».

* «بعدَ مرور دقائقَ على ذلك انهارتِ الكاتدرائية، يا حبيبتي الصغيرة. لا أقول لكِ ذلكَ بحثاً عن أعذار، لا يوجد ما أسائلُ عليه. لقد تصرَّفتُ بانفعالٍ، وفي فورة غضبٍ أذهبتْ عقلي، لكن كنتُ لأفعلَ ذلك بكامل عقلي وإدراكي. وبعدَ دقائق انهارتْ تلكَ الكنيسة، يا حبيبتي الصغيرة، لقد تلقَّت إصابةً مباشرةً، لكني كنتُ وقتها ممدَّداً في حفرةٍ خلَّفتها قنبلةٌ في أرضيةِ الميدان...

كنتُ ممدَّداً في حفرةٍ عميقة، واحدةٍ مِن خمسٍ حفرها بساطُ

القنابلِ في الميدان. آخر شيءٍ رأيته قبل أن أرمي بنفسي إلى داخلها، كان برجَ الكنيسة الذي انقسم إلى نصفين. ستارٌ من الغبارِ والدخان غطّى كاملَ الميدان، كان يحرقُ العيون، ويُصَعِّبُ التنفُّسَ، كنت ممدَّداً في أسفلِ الحفرة وتمنَّيتُ أن تكونَ أعمق... أن تكون عميقةً جدّاً، لكن حتى مع ذلك الهلعِ والذعرِ من هذا الموت المخيف الذي تزرعهُ الطيورُ المعدنية، لم أكن قادراً على التخلُّص من ذكرياتي مع تشارلي؛ كان تشارلي يكرهُ هذه الكنيسة، لم يكن هنالك ما يكرههُ في المدينة بمقدار كرهه لها، لم يكن يقدِرُ على إيجاد تسميةٍ لها، دائماً عندما كنا نمرُّ بجوارها، كان ينبِّهني إلى الأخطاء والتشوُّهات في عمارتها، لكن ذلك كان ربَّما يا حبيبتي الصغيرة، بسببِ أن تشارلي كان يغار، فهذه الكنيسة كانت تنافِسُ روائعَ مدينته براغ، براغ الخيالية التي يحلم بها، كانت هذه الكنيسة قديمة، وأشبه بقطعةٍ للعرض، واحدة من الروائع القوطية القليلة في أوروبا، وعندها خطرَ لي وأنا في تلكَ الحفرة، بأنه كان على تشارلي أن يكون مستلقياً إلى جانبي، كان عليه أن يموتَ هنا، فهنا كان ليكونَ لموتهِ معنى ما، هنا كان عليه أن يموتَ في تلكَ الليلة، وليس هكذا بلا معنى بتلكَ الطريقةِ الغبية التي مات بها بلا جدوى. فبعد الحربِ ذهبتُ للبحثِ عنهُ يا حبيبتي الصغيرة... حارسةُ البناءِ القديمة الطيِّبة، تلك الإنسانة الشريفة، الأمُّ الثانية اعترفتْ عندما ضغطنا عليها، كيف سارت الأمور: قامت بتسليمه! سلَّمتهُ، لأنه قبل أن يتمَّ ترحيلُ والديه إلى معتقل "تيريزين" كانا قد أمَّناها على بضعِ حاجيات، أغراض تافهة يا حبيبتي الصغيرة، لم تكن أية مجوهرات أو مقتنيات ثمينة، بل بضع ثياب وملابس داخلية، خردة، كومة من

الأحذية المستعملة، بضعة أطباق، وستائر، وقد اعتادت عليها وكانوا بالنسبة إليها كنزاً ثميناً، وعندما ظهر تشارلي، خافتْ أن يطالبها بتلكَ الأشياء بعد الحرب. فسلَّمتهُ وماتَ أيضاً في "تيريزين"، ماتَ بلا معنى بطريقةٍ غبية، نتيجةَ إصابتهِ بالتيفوس بعد أربعة عشر يوماً على انتهاء الحربِ الألمانية...».

- «ما الذي صنعناهُ بهذا العالم... ما الذي فعلناه...»

* «هذا ما فعلتموه بالعالم يا حبيبتي الصغيرة. بأوروبا كلِّها. لكن العديدَ اليومَ يقولونَ إنه كان يجبُ الإبقاء على هذه المدينة حيةً وإن تدميرها كان بلا معنى. لماذا كان على مدينةٍ ألمانيةٍ واحدةٍ أن تبقى بعيدةً عن القنابل والحرب؟ هل كان يعيشُ هنا ألمانٌ مختلفون عن أيِّ مكانٍ آخر؟ ربَّما دمَّروها بالفعل كي لا تقعَ بيدِ الروس سليمةً، مبنية، ربَّما كلُّ تلكَ النظرياتِ التي كُتبَت عن تلكَ الليلة محقَّة، ربَّما أنتِ على حقٍّ فيما يتعلَّق بناغازاكي، لكنه ليس شأن الألمانيين وحدهم الاستياءُ ممَّا حلَّ بهذه المدينة، لا يحقُّ للألمانيين أن يلوموا الآخرين على أيِّ شيء...».

- «بل يحِق! يحِقُّ للألمان! يحِقُّ لهم أن يلوموا العالمَ بأسره لماذا لم يتدخَّل في وقتٍ مبكِّر، لم يخنقْ ذلكَ الوحشَ مبكِّراً، ذلك الوحش الذي أوصلنا إلى ما نحنُ عليه. تركوا هتلر يسيطرُ على الراينلاند، أعطوه سارلاند، تركوه يتسلَّح، تراجعوا أمام مطالبه في كلِّ مكان، لم يحرِّكوا ساكنين لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا، وحتى هم أنفسهم لم يتحرَّكوا ساكنين لإنقاذ أنفسِهم، تركوه يُعربِد كالمسعور في كامل أوروبا. بالطبع حينها كان الوقت قد تأخَّر لكن كان يكفي قبل أن يتسلَّح أن يضربوا بحزمٍ

ليضعوا حدّاً لتلك المسرحية البُنية. لماذا لم يضربوا؟ لماذا سمحوا بذلك؟ لماذا ظلُّوا يدعمونه؟ لماذا تراجعوا أمامه خطوةً خطوة؟».

* «لقد دفعَ الجميعُ ثمنَ ذلك، يا حبيبتي الصغيرة، كلُّ من لم يتصرَّفْ. أوروبا بأكملها دفعتْ ثمنَ تردُّدها وقِصَرِ نظرها، أوهامها، وسياستها الوسخة. لكن هذا لا يعفي الألمان من تحمُّلِ مسؤوليتهم عن كلِّ ما اقترفوه. لا يمكنكِ لومُ ضحيةِ القاتلِ بأنها تركتهُ يقتلها. ولا يمكنكِ لومها أبداً على دفاعها عن نفسها وقضائها على القاتل في حال استطاعتْ ذلك. اختيارُ الوسائلِ المستخدمة لن يكون ذا أهمِّية حينها. بعد صيحات هتلر بأنَّ مصير مدينة كوفنتري سيتكرَّر مع باقي المدن الإنكليزية، لم يكن في إمكان الحلفاء محاربتهُ بالملصقاتِ الدعائية».

- «لقد دمَّروا هذه المدينة عندما كانت نتيجة الحربِ محسومةً عملياً».

* «لم تكن على ما يبدو محسومةً بالنسبة إلى الألمان. استمرُّوا في القتال، قاتلوا حتى النهاية. ليس مهمَّاً حينها، عندما دُمِّرتْ هذه المدينة، ما كانوا يعتقدونه عن هذه الحرب برمَّتها. الشيء الوحيد المهم كان أنهم استمرُّوا في القتال. إن كانوا يعتقدونَ حينها ما قُلتِه الآن، فإن ذلك سيجعلُ من استمرارهم في القتال أمراً أسوأ بكثير».

- «هل كان لديهِم خيارٌ آخر؟».

* «نعم، كان في إمكانهم توجيهُ السلاحِ نحو من يدفعهُم ويحرِّضهُم. فخلال الحربِ بأسرها لم يحاول القيام بذلك سوى بضعة ضبَّاطٍ ساذجين، وقد كان الوقتُ متأخِّراً حينها. ولم يفعلوا ذلك

لمعارضتهم الحرب، فقد كانوا يخوضونها بأنفسهم، كانوا منغمسين فيها. لكن طالما كانوا ينتصرون كان هتلر بالنسبة إليهم عبقرياً. فقد كانوا يدعونه يكرِّمهم ويرقِّيهم إلى مارشالات، ويبعثون إليه بالتقارير، لقائِدِهم العام، عن انتصاراتِهم الرائعة، ويحيكون المكائِدَ لينالوا رضاه. وعندما انقلبتِ الأمور أرادوا التخلُّصَ من تواطؤهم. أرادوا أن يحصلوا على حِصَّة الأسد من الانتصارات، ولكن عند الهزائم أصبحوا يلومون هتلر».

- «هل كان الجميعُ هكذا؟».

* «كلا، ليس الجميع. لكن مَن يدري؟ مِن المؤكَّدِ أن الجميعَ كانوا ساذجين. كان في إمكانهم أن يمنعوا الحرب، لكن الضبَّاطَ ليسوا أفضلَ من يقومُ بذلك. فالضابط بلا حربٍ مجرَّدُ دميةٍ لا معنى لها. لكن في عامٍ أربعة وأربعين لم يعدْ هنالكَ إمكانيةٌ لمنعِ الحرب، فقد كانت تقتربُ من نهايتها. هم أرادوا فقط أن يمنعوا نتائجها الحتمية؛ الهزيمة الشاملة. حسناً، حينها كان هنالك وقتٌ لذلك، كان في الإمكان القيامُ بذلك، والملايينُ من الناسِ كان في إمكانهم البقاء على قيد الحياة. لكن بالنسبةِ إلى الألمان كانت مجرَّد فرصة، الفرصة الأخيرة، ولم يتمرَّدْ فوجٌ واحد. لقد فوَّتوا كلَّ الفُرص. ووقتها لم يكن يقِفُ بعد جنديٌّ واحدٌ من الحلفاء على الأرضِ الألمانية».

- «لماذا نحن هكذا؟».

* «لا أريد الادِّعاءَ بأنكُم هكذا. لا يمكنُ من هذا استنتاجُ طابعٍ ثابتٍ ما لشعبٍ أو مجتمعٍ بعينه. لا أعتقِدُ بأن العسكرة الألمانية ذائعة

الصيت هي لعنةٌ ألمانيةٌ أبدية. هذا طبعاً أصبحَ يتعلَّقُ بكِ وبجيلكِ يا حبيبتي الصغيرة. لديكُم إمكانية أن تستمرُّوا على هذه الحالة أو أن تتغيَّروا. وربَّما أولئك الذين كانوا وقتها لم يكونوا هكذا. ربَّما شعروا حينها بأنهم مذنبون جدَّاً لما حصل. وربَّما صدَّقوا فعلاً تلك البروباغندا بأنهم سيغتصبونهم ويذبحونهم جميعاً. هم كانوا يغتصبون ويذبحون. فهل كان عليهِم أن يصدِّقوا أنهم في حال خسروا سيتمُّ التعاملُ معهم بطريقةٍ مختلفة؟».

- «لكن هل تعاملوا معهُم بطريقةٍ مختلفة؟».

* «بالطبع، تعاملوا معهُم بطريقةٍ مختلفة، يا حبيبتي الصغيرة. لو أنهم تمسَّكوا بالمبادئ الألمانية فقط، لو أنهم تصرَّفوا بحسب ما كان ينادي به هتلر نفسه، لو كانوا ردُّوا بمبدأ العين بالعين فقط، لما كانت ألمانيا موجودةً اليوم يا حبيبتي الصغيرة، لا شرقيةً ولا غربية. لم يعلنُ الحلفاء تطبيق قاعدة "ألماني واحدٍ مقابل كلِّ مقتول" لا أقصد بذلك ضحايا العمليات العسكرية المباشرة على الجبهات، يا حبيبتي الصغيرة، بل أقصد بالمقتولين أولئكَ البشر الذين قضوا عليهم بطرقٍ ممنهجة ومخطَّطٍ لها، الستة ملايين يهودي الذين لم يكونوا في حالةِ حربٍ مع ألمانيا، وملايين البولنديين والصرب والأوكرانيين والبيلاروسيين والتشيك واليونانيين، وأخيراً وليس آخراً الفرنسيين والهولنديين والبلجيكيين والنرويجيين الذين كانوا يبيدونهم كالحشرات لأسبابٍ عرقيةٍ وقوميةٍ وسياسية. لو أن الحلفاء قالوا: الرأس بالرأس، كان عدد الألمانِ ليكونَ اليومَ أقلَّ بمقدارِ النصفِ على الأرجح».

- «وبذلك تنتهي المشكلة، أليسَ كذلك؟».

* «لم تنتهِ المشكلة. لم ينقُصْ عددُ الألمان بمقدار النِصف. وهذه حقيقة يا حبيبتي الصغيرة يجب أن تفكِّري فيها جيِّداً. لكنكِ تصابين بنوبة هيستيريا عندما تعلمين بمقتلِ عنصرٍ من الغيستابو. أنت تسمِّين ذلك جريمةَ قتلٍ، لأن ذلكَ ملائمٌ لكِ، لأنكِ لا تُطيقين التفكيرَ في أنَّ الألمان وحدهُم مَن كانَ يقتُل، وبأن كلَّ ما اقترفه الآخرون كان مجرَّد دفاعٍ عن النفس. لو لم تحدُث تلكَ الغارة، كان من الممكنِ بعد لحظاتٍ على ذلك أن أموتَ ميتةً بشعةً ومؤلمةً نتيجةَ إطلاق النارِ على مثانتي، وعنصرُ الغيستابو ذاك كانَ ليصنعَ لك اليومُ حمَّالاتِ الصدر، بغضِّ النظرِ عن كيفَ انتهت الحرب. وما ذنبي أنا يا حبيبتي الصغيرة، كي أقبعَ في أرضِ ألمانية، حيثُ جلبتني الحربُ الألمانية؟ ما ذنبُ مئات الآلاف والملايين من الذين ضُرِبوا وقُتِلوا؟ ما القيم التي تقارنين بينها؟».

اللعنة، لماذا لا أنجحُ في ذلك. أردتُ شرحَ كلَّ ذلكَ لها بطريقةٍ أخرى، لكنني لا أستطيعُ العثورَ على الكلماتِ المناسبة. يبقى التفكيرُ في هذه الأسئلة من ناحيةٍ تاريخيةٍ مجرَّدةٍ مختلفاً عن النقاشِ حولها مع شابَّةٍ ألمانية، وُلِدَتْ بعدَ الحرب وقالتْ فجأة: والدي مجرِمُ حربٍ، شنقهُ الإنكليز. والدها؟ ليس هو محورَ القضية. لكنها موجودة هنا وتريدُ أن تعيشَ ومن الصعبِ أن تعيشَ الآن ومستقبلاً مع حِملٍ ثقيلٍ كهذا.

* «ربَّما يا حبيبتي الصغيرة، كان كلُّ شيءٍ ليكونَ مختلفاً، لو أنهم عندكم لم يقوموا بخَلطِ كلِّ المفاهيم، لو أنهم لم يقوموا لأسبابٍ ذرائعيةٍ باختلاق كلِّ ذلكَ الكمِّ الهائلِ من الأساطيرِ وأنصافِ الحقائق.

فهنالكَ لديكُم يُنكِرون مِن جديدٍ مسؤولية ألمانيا عن إشعالِ الحرب، ويفكِّرون في ممرَّاتٍ جديدة؟ إنهم مستاؤون مجدَّداً من الحدودِ الموضوعة، وينظرون مجدَّداً نحو الشرق. لكن نحنُ هو الشرقُ يا حبيبتي الصغيرة. فهل علينا مستقبلاً أن ننتظر مجدَّداً إلى أن يأتوا بكلِّ حنانٍ ليذبحونا؟».

- «لا أحد يريدُ ذلك».

* «ياه! هنالكَ من يريدُ ذلكَ بشدَّة، لو كان في مقدورهم. ويقومون بفعل كلِّ شيءٍ حتى يصبِحَ في مقدورهم مجدَّداً. وعُنصرُ الغيستابو ذاك كان ليكونَ بينهم. تبَّاً! مَن كانَ عليهِ تخليصُ العالمِ من وباءٍ كهذا، عندما لم يستطع الألمان أنفسهم القيام بذلك؟».

- «إنكَ تعتبِرُ أبي مِن ضِمنِ هذا الوباء، أليسَ كذلك؟».

* «نعم، أعتبرُ أباكِ مِن ضِمنِ هذا الوباءِ يا حبيبتي الصغيرة. لا يوجدُ أيُّ سببٍ لنبحثَ لهُ عن أعذار أو لنجعَلَ منه استثناء».

- «شكراً لكَ، هذا صريحٌ على الأقل».

* «ماذا كنتِ تريدينَ مني يا حبيبتي الصغيرة؟ هل كان عليَّ أن أشفِقَ عليكِ، هل كان عليَّ أن أجارِيَكِ وأخبِرَك بأنه أمرٌ مريعٌ ما فعلهُ بكِ هذا العالمُ الشرِّير، ولكن لا تهتمِّي لذلك، فهنالكَ لحظاتٌ حيثُ يمكنُ نِسيانُ كلِّ شيء، وأنا أعرِضُ عليكِ واحدةً منها، أهذا ما كنتِ تريدينه؟».

- «أنتَ لم تفعَل ذلكَ فقط لأنكَ تشعرُ بالقَرفِ مني. إنكَ لن تنامَ مع ألمانية، وخاصَّةً مع واحدةٍ لها خلفيةٌ كهذه سترافِقُها طوالَ حياتها».

* «أنتِ من أخبرني بذلك. اعتقدتِ أنكِ بهذا تقولين لي شيئاً عظيماً».

- «ليسَ في وسعي إلا أن أخبِرَ كلَّ شخصٍ عن ذلك. لا أستطيع أن أعيشَ مع هذا الشيء مكبوتاً في داخلي. كيفَ سأتمكَّنُ أصلاً؟».

* «العديدُ مِمَّن يشبهونكِ لم يجدوا مشكلةً في ذلك».

- «لكنهُ مزعجٌ بالنسبة إليَّ. وعلى الآخرين أن ينزعجوا من ذلكَ أيضاً. ربَّما... ربَّما يمثِّلُ ذلكَ بالنسبةِ إليَّ أيضاً سبيلاً للخروجِ من هذه الفوضى».

* «لستُ في حاجةٍ إلى الاعتقاد يا حبيبتي الصغيرة، بل إنه مؤكَّد. على الأقل لن يكون رأسُكِ مليئاً بنظرياتٍ شنيعةٍ زرعَها فيها الأنبياء الجدد. أنتُم الألمان لديكُم فرصةٌ واحدةٌ فقط لكي تنجحوا أمامَ العالم. الاعتراف بذنبكم واستخلاص العِبَر من ذلك. وعدم التركيز على موتِ كلِّ فردٍ، وعدم البحثِ عن مقارنات بين دمار هذه المدينة وما كنتم تفعلون».

- «لقد كان كل شيء واضحاً بالنسبةِ لكَ حينها، أليسَ كذلك؟ مُنذُ تلكَ الليلة؟».

* «في تلكَ الليلةِ لم يكن أيُّ شيءٍ واضحاً لي يا حبيبتي الصغيرة. في تلكَ الليلة كان كلُّ شيءٍ واضحاً إلا ما كان في الرؤوس. كانت ليلةَ الجنون. أولئكَ في الأعلى وأولئكَ في الأسفل قد جُنُّوا أيضاً. الكوارِثُ دائماً ما تكون فاتنةً يا حبيبتي الصغيرة. يعيشها المرء ويختبرها بطريقة ما خارجَ بقيةِ حياته».

لم يعلقْ في ذاكرتي عن تلكَ الليلةِ سوى بضعة مقتطفاتٍ، لا أجزاء

كاملة أو مشاهِد مستمرَّة. مرَّتْ موجةٌ من الدمار فوق المدينة وتجرَّأتُ على إخراجِ رأسي من الحفرة التي خلَّفتها القنبلة. كان هنالكَ رجلٌ إيطاليٌّ عارٍ يرقصُ في الميدان، كان يقفزُ ويصيحُ ويغنِّي شيئاً ما، ثمَّ أتت موجةٌ جديدةٌ، أخذت القنابل تتساقطُ هنا وهناك، في كلِّ مكانٍ، وظلَّ يرقصُ في الميدان، وقد جذبَ الأمرُ اهتمامي لدرجة أنني لم أعُد أهتمُّ بأيِّ شيءٍ آخر. تحوَّلَ الإيطالي إلى كبكوبة نارية، وراح يتفجَّر، لاحقاً أدركتُ بأنه لم يكن هو من يتفجَّر ولكن القنبلة التي سقطتْ عليه. لا يمكن معرفةُ ذلكَ جيِّداً، يا حبيبتي الصغيرة. لكن ربَّما سقطتْ القنبلةُ مباشرةً على رأسه وانفجرت في داخله. هذا ممكنٌ يا حبيبتي الصغيرة، كلُّ شيءٍ كان ممكناً في تلك الليلة.

عندما أدركتُ، كيفَ كان يرقصُ ويغنِّي وفجأةً لم يَعُدْ موجوداً، أصابني خوفٌ رهيب، وذعرٌ، أقوى من العقل، من أيِّ شيءٍ آخر، قفزتُ من الحفرة، مبتعداً بعيداً عن هذا المكانِ الذي لا تنفجِرُ فيه القنابِلُ فقط وإنما راقصون إيطاليون عراةٌ أيضاً. لكن لم يكن هنالكَ سبيلٌ للخروج، كان الميدانُ لا يزالُ ميداناً على الرغمِ من تشوُّهِهِ بالُحفَر، لكنه كان ميدانَ إله النار؛ فالشوارع، والأحياء، والأطلال، كلُّ شيءٍ كان يحترِقُ بلهَبٍ واضحٍ، الخشبُ كان يحترقُ والحديدُ كان يحترقُ والأسفلتُ كان يحترقُ والصخورُ والآجرُّ وحتى المياه، كلُّ شيءٍ كان يحترق، وأنا لم أكن أستطيعُ العثورَ على فتحةٍ للهروبِ من هذه الحلقةِ النارية، من الحصار، وكنتُ أجري في الميدان لكن الميدان أصبحَ جزيرةً في ماغما ملتهبة، فجأةً وخلال بضعة دقائقَ توقَّفت المدينةُ عن كونِها مدينةً، توقَّفتْ عن الوجود والتنفُّس والحياة. بالقربِ من إحدى

الحُفَر كِدتُ أتعثَّرُ بشخصٍ ما، كان يحمل بيده عصا بيضاء وبجانبه كلبٌ نِصفُ مسعور، كان الكلب يعوي والأعمى يعوي معه أيضاً... ولا أعلمُ لماذا في تلك اللحظة تذكَّرتُ لويزا.

لويزا! لويز! لويزا عزيزتي!

يجبُ أن أذهبَ إليها، يجبُ أن أنقِذَها من النيران، لا يجبُ أن تنصهِرَ في تلكَ الماغما الملتهبة! عاودت الدوران في الميدان ومن جديدٍ طردتْني النارُ الحارقة إلى مركزِ الميدان، لم يكنْ في الإمكان الاقتراب من النار، لم يكنْ في الإمكان فعلُ أيِّ شيءٍ سوى التمدُّدِ في حفرةٍ أو الدوران حولَ الطوقِ الناري، كالعقربِ حينما يشعلونَ من حولِهِ النارَ في دائرةٍ من العشبِ الجاف.

وأنا أيضاً أخذتُ أصرخُ في النار، لويزا، لويزا، لويزا، ربَّما تسمعني، ربَّما ستخرجُ من ألسنةِ اللهبِ تلكَ غيرَ مصابةٍ وسليمة، لتقول: أنا هنا، أنا هنا، يا حبيبي، لا تخفْ، أنا ملكةُ النار ولن يحدثَ لكَ شيء، لأني أحبُّك، لكن لا تتركْني أبداً أبداً لوحدي، لأنه بعد وقتٍ قصيرٍ سيأتي الجنود الأشرار...

مِن حولي وفي داخلي كان كلُّ شيءٍ يغلي كحساء، عصيدة الحرب.

توقَّف الزمن.

ساد الصمت.

كان كلُّ شيءٍ في الأنحاء ينسابُ، يصرخ، يسقط، يقرع، لكن الصمتَ كان هو السائد. كان صمتاً مطلقاً، لأنهُ لم تعدْ تهدِرُ فوق رؤوسنا ملائكة الدمارِ المعدنية. لقد رحلوا.

لاحظتُ بأني كنتُ ممسكاً بمسدَّسٍ في يدي. لم أعرِف من أينَ حصلتُ عليه.

وضعتهُ في جيبي. وأخذتُ أمشي.

لم أعد وحيداً في الميدان. بدأ الناسُ بالخروجِ من مكان ما، أشباحٌ بشرية، ظلال، بقايا بشر.

لقد نجوا. عرفوا بأنهم قد نجوا. أخذوا ينظرون مِن حولهم. بطَّانيات. مجوهرات. جوع. عطش. أموال. مجموعة طوابع...

في ليلةٍ كهذه يخرجُ اللصوص ويتسلَّلون إلى الأطلال. بلا أيةِ مخاطر.

في ليلةٍ كهذه لا يوجدُ ألم. لا يوجدُ أمل. لا توجدُ مساعدة. لا يوجدُ شيء.

صادفتُ امرأةً. كانت تعطيني ساقَ طفلٍ ميت. لم تقلْ شيئاً. فقط كانت تمدُّها لي. إليكَ، خذْها...

أخذتُ الساقَ من يدها. نظرتُ إليها. إلى ساقِ الطفلِ الصغيرة. لم أدرِكْ، ما هذا، من أينَ أتت، لماذا ساقٌ فقط، ولماذا ساقٌ بالتحديد...

لاحقاً انتابني اهتياجٌ شديد، لا بُدَّ من أن دماغي قد انصهر جرَّاء تلكَ الحرارة. بعدها لم أعد أعرِفُ شيئاً.

أعرِفُ فقط بأني كنتُ مستلقياً في كومة من الثلج وكان جسمي يحترق، ورأسي يكادُ ينفجر، وعيناي تكادانِ تخرجانِ من مكانِهما. كانَ الوقتُ نهاراً، ربَّما عند الظهيرة.

نهضتُ بصعوبةٍ. بعيداً بعيداً جدَّاً كان هنالكَ شيءٌ يَسوَدُ. دخانٌ

قاتم. حيث يوجدُ دخانٌ هنالكَ نار، وحيثُ توجدُ النار هنالكَ دفء. اتَّجهتُ إلى هناك، إلى النارِ... إلى الدفء.

كنت ألتقي بأناسٍ يسيرون وحيدين أو في مجموعات. كنتُ مستغرباً إلى أينَ يذهبون. إلى الصقيعِ إلى البردِ، بدلاً من الذهابِ إلى تلك الكبكوبةِ السوداء في الأفق حيثُ الدفء. شاهدتُ في طريقي العديدَ من الناس، ولكن جميعهُم كانوا يذهبون بالاتِّجاه المعاكس. مشيتُ طويلاً. حلَّ الظلام. لكن لم أكن لأتوه، فحيثُ كانت في النهارِ كبكوبةً سوداء، كانت تبدو في الليل حمراء. كانت المدينةُ لا تزالُ تحترِق. ومن ثمَّ وصلتُ إلى أطرافِ المدينة. الحي الحدائقي. كلُّ البيوتِ كانت لا تزالُ قائمة. كلُّ البيوتِ، كلُّ الأشجار، كلُّ الأسوار. انتابني شعورٌ كبيرٌ وسخيفٌ بالأمل، كلُّ هذا ليسَ حقيقياً، كان ذلكَ مجرَّدَ حُلمٍ، لويزا في المنزل، لويزا تنتظرني...

أسرعتُ الخطى. ووصلتُ إلى النهر. كانت السماء تشتعلُ، وفي المقابلِ كانت بقايا الجسر. وعلى الطرفِ المقابلِ خلفَ النهر لا بدَّ من أن القنابل قد تسبَّبتْ بدمارٍ هائل. هنا لا شيء. لويزا في المنزل، لويزا حية، لويزا تنتظرني...

فتحتُ البوَّابةَ كالعادة ومن ثمَّ فتحتُ بابَ المنزلِ كالعادة. أدرتُ المفتاحَ. لا شيء. تحسَّستُ في جيبي أعوادَ ثقابٍ، أشعلته، وعثرت على شمعة. في كلِّ البيوتِ الألمانية كانت هنالكِ شموعٌ مهيَّأة. كنتُ أطوفُ في أرجاءِ المنزلِ، أنادي، أصرخ، لويزا! لويزا!

لم تكن في المنزل. لم تكن تنتظر. لم يكن مجرَّدَ حُلمٍ سيِّئ.

كنتُ أطوفُ في أرجاء المنزلِ مع شمعةٍ في يدي.

لويزا لم تكن موجودة. لويزا لا وجودَ لها. انتابني حُزنٌ عارم. لم أصدِّقْ قطُّ بأنَ القلبَ يمكن أن يتألَّم هكذا. كان قلبي يؤلمني، ألمٌ مستمِرٌّ وعميق. لويزا ليستْ هنا، لويزا لا تنتظر. لويزا لم تَعُدْ موجودة، عزيزتي لويزا، حبيبتي، ليستْ موجودة، لن تأتي. ليستْ موجودة، لن تأتي، الآن عندما أيقنتُ بأنها دائماً كانت كُلَّ ما أملكُ في هذا العالم.

كانتْ ألمانية.

ماذا في ذلك؟ وإن كانتْ ألمانية؟ لم تَعُدْ موجودة... لم تَعُدْ موجودةً الألمانية، التي تُدعى لويزا والتي أحبَبْتُها.

سامحيني يا لويزا! سامحيني يا لويزا! كيفَ سأعيشُ الآن؟ كيفَ سأكونُ من دونك؟

- «هل أحببتَها؟».

* «نعم، أحببتُها».

- «لكنكَ لم تخبِرْها بذلك أبداً».

* «كلا، لم أخبرْها بذلك».

- «لماذا لم تخبرها بذلك أبداً؟».

* «لا أعرف. اعتقدتُ بأنه غيرُ مناسبٍ. بدا لي أنهُ بيننا الكثيرُ من العقباتِ».

- «لأنها كانَت ألمانية».

* «لأنها كانَت ألمانية».

- «المرأة تريدُ أن تَعرفُ أن الرجلَ الذي تحبُّه يحبُّها أيضاً».

* «لويزا كانتْ تَعرِفُ أنني أحِبُّها».

- «المرأة تريدُ أن تَسمعَ ذلك. مراراً وتكراراً. دائماً. يجبُ أن تسمعَ المرأة ذلكَ من حبيبها، لكي تكتمِلَ سعادَتُها».

* «كانتِ الحربُ قائمةً حينها. لم يكن للكلماتِ قيمةٌ كبيرة».

- «وفي تلكَ الليلة، الليلة الثانية، عندما كنتَ تطوفُ في أرجاء المنزل حاملاً شمعةً منادياً لويزا، عزيزتي لويزا، حبيبتي، ألم تكن الحربُ قائمة حينها؟».

* «بلى يا حبيبتي الصغيرة، لكنها كانتْ ميتةً، كلُّ شيءٍ حدَثَ بسرعةٍ كبيرة، بشكلٍ غيرِ متوقَّع...».

- «اليوم تعرفُ بأنها لم تكن ميتةً حينها».

* «وقتها كنتُ متأكِّداً من أنها ماتتْ في "أتلانتيك"».

- «كل من كانَ في "أتلانتيك" قُتِل؟».

* «الكلُّ يا حبيبتي الصغيرة. لم يكن هنالكَ سبيلٌ للخروجِ من هنالك».

- «عُنصرُ الغيستابو الذي أطلقتَ النارَ عليه، أنقذَ حياتكَ فعلياً».

* «هذا محتملٌ جدَّاً».

- «هذا أكيدٌ جدَّاً».

* «معكِ حق، هذا مؤكَّد».

- «في وقتٍ لاحق، لا أقصِدُ بذلكَ تلكَ الليلة، ولكن فيما بعد وبعد فترةٍ طويلةٍ عندما أردتَ العيشَ مجدَّداً، هل فكرتَ فيه يوماً ما بامتنان؟ لأنه أنقذَ حياتك؟».

* «كان يريدُ أن يطلقَ النارَ على مثانتي. لا لم يُنقِذْ لي حياتي. الظروف هي من أنقذتْ لي حياتي».

- «الظروف الحربية، أليسَ كذلك؟».

* «الظروف الحربية. الغارة».

- «الغارة، التي مات جرَّاءها أربعونَ ألف شخص، أنقذتْ حياتَك».

* «هذه مجردُ مصادفةٍ يا صبيَّة».

- «لكنكَ كنتَ تعتقِدُ حينها بأنها قُتلت خلال الغارة».

* «لم يكن في وسعي اعتقاد أيِّ شيءٍ آخر. كلُّ شيءٍ كان يشيرُ إلى ذلك».

- «الغارة إذاً لم تنقذْ لكَ حياتكَ فحسب، بل حرَّرتْكَ أيضاً من تعقيداتٍ مختلفة. على سبيلِ المثال: ماذا تفعلُ بالألمانية؟ أليسَ كذلك؟».

* «إنكِ حمقاء يا حبيبتي الصغيرة. لم أفكِّر في الأمر بهذه الطريقة أبداً».

- «ربَّما. ربَّما لم تفكِّر. ولكن لو كانتْ بقيتْ على قيدِ الحياة، كانَ ليأتي مثل هذا الوقتِ الذي ستُضطرُّ إلى التفكير فيه في الأمر».

* «لويزا لم تسألني أبداً عن شيءٍ كهذا».

- «ربَّما سألتكَ. لكنكَ لم تكن تريدُ أن تفهَم. ربَّما كانَت تسألكَ دائماً في كلِّ مرَّةٍ عندما كانت تخبركَ فيها بأن الجنودَ الشرسين الأشرار سيأتون ذات مرَّة. ربَّما كانت تريدُ أن تسمعَ منك: لا تخافي، أنا هنا، لن أتخلَّى عنكِ. هل قلتَ لها ذلك؟».

* «كلا. كان ذلكَ لا يزال بعيداً جدَّاً».

- «لكن لم يكن محتَّماً عليها أن تموت، كان يمكِنُ أن تنجوَ مثلكَ تماماً. وهي أيضاً كانَ من الممكنِ أن تُنقذها الغارة، الآن تعرفُ أنها خلالَ القصفِ لم تكن في "أتلانتيك". لقد اقتادها عنصرُ الغيستابو الآخر. كان يمكنُ أن تقتلهُ الغارة وأن تنجو هي، وكان في إمكانك العثورُ عليها عندَ عودتكَ إلى الفيلا، فقد ذهبتَ للبحثِ عنها، أليسَ كذلك؟ ماذا كنتَ لتفعلَ لو عثرتَ عليها هناك؟».

* «مِنَ الصعبِ ومن غيرِ المجدي التفكيرُ في أمرٍ لم يحدُثْ. لا أدري ماذا كنتُ سأفعل».

- «كنتَ... كنتَ أخذتَها معكَ إلى ديارك، وقدَّمتَها لأهلك، كنتَ لتخبرهم: هذه لويزا، ألمانية، أحبُّها، إنها زوجتي؟ هل كنتَ لتفعلَ ذلك؟».

* «ما كان ليكون هذا أمراً صائباً، يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل كنتَ لتبقى هنا؟ في ألمانيا؟ معها؟».

* «لا أعرفُ، ولكن على الأرجح لا».

- «ولكن طالما كانتْ على قيدِ الحياة كنتَ سعيداً معها، أليسَ كذلك؟».

* «كنتُ سعيداً معها يا حبيبتي الصغيرة».

- «هل كنتَ فيما بعد سعيداً بشكلٍ مماثلٍ مع أيِّ امرأةٍ أخرى؟ بكلِّ هذا الزخمِ ومن دونِ تحفُّظ؟».

* «كلا يا حبيبتي الصغيرة».

- «لماذا؟».

* «ربَّما فقط لأني لم ألتقِ بامرأةٍ كهذه».

- «هل كان ليشكِّلَ لكَ عائقاً اليوم أن تكونَ ألمانية؟».

* «كلا، لا أعتقدُ. لا أعرفُ، ولكن أعتقدُ لا».

- «لا تعرف؟ بل تعرف جيِّداً. كانَ يومَ أحدٍ وكنتَ تشعرُ بالضجرِ وفي قسم الاستقبالِ كانت هنالكَ فتاةٌ شابَّةٌ جميلة، ألمانية، المرأة الوحيدة في الأرجاء وأنتَ دعوتَها إلى العشاء. هل دعوتَها إلى العشاء لكي تتحدَّثَ معها طوالَ الليلِ عن الحرب؟».

* «كانت لها شفتان لذيذتان باردتان رطبتان، وكان مذاقهما كتوت العُلَّيق. قالت لي: قَبلني. ومن ثمَّ أخبرتني مباشرةً بأني لمستُ فتاةً غير طاهرة، بأنها ابنة مجرمِ حربٍ قد أُعدم».

- «لقد كانَ حظُّكَ سيِّئاً فقط. كان يمكنُ أن تصادِفَ واحدةً حكموا على والدها كمجرِمِ حربٍ لمدةِ عشرينَ عاماً. اليوم كانَ ليكونَ مواطناً محترماً من جديد. كان اختياركَ خاطئاً».

* «أنتِ أيضاً لم يكن اختياركِ جيِّداً يا حبيبتي الصغيرة».

- «آه، أنا اختياري كان موَفَّقاً».

حبيبتي الصغيرة هذه لديها خِصلةٌ مميِّزة، تَعرِفُ كيفَ تُثيرُ وتُغضِبُ وتَجرَحُ المرء، تريدُ دائماً الوصولَ إلى جذرِ كلِّ شيء، يمكِنُ للمرء معها أن يخرجُ من جلدهِ أحياناً. مجدَّداً انتابتني مشاعرُ غضبٍ منها بسببِ هذه الليلةِ التي لا معنى لها.

* «أتعتقدين؟». سَخرتُ منها.

- «أعتقد بأني ما كنتُ لأختار أفضلَ من ذلك».

* «كان في وسعكِ أن تختاري من هو أفضلُ بقليل. كان في إمكانك أن تختاري لهذه الليلة، لليلة كهذه، لنقل طياراً إنكليزياً. واحداً من أولئكَ الذين أتوا بعد عشرين عاماً لرؤيةِ كيفَ تبدو المدينة التي دمَّرها».

إذاً يا حبيبتي الصغيرة، أنتِ تعتقدين بأني لا أجيدُ طرحَ أسئلة مزعجة؟ لقد هزَّكِ ذلك وتوسَّعتْ حدقتا عينيكِ.

* «أو...». تابعتُ، «طياراً إنكليزياً من أولئكَ الذية كانوا في معسكرٍ ألمانيٍّ للأسرى بالقربِ من هامبورغ».

الأن سأدمِّرُك. سأردُّ لكِ كلَّ شيء. الآن سترينَ إن لم يكن في مقدوركِ أن تختاري أفضلَ من ذلك.

* «كان ليدعوكِ إلى العشاء. كنتِ لتعرضي عليه شفتيكِ. كان ليقبِّلَكِ. كنتِ لتخبريه: أنا ابنة مجرمِ حربٍ، أعدمهُ الإنكليزُ لتعذيبه الطيَّارين الأسرى. كانَ ليقولَ لكِ: لا بأس يا حبيبتي الصغيرة يمكننا مقابلِ ذلكَ أن ننام سويَّة».

- «توقَّفْ!».

* «لن أتوقَّفَ الآن يا حبيبتي الصغيرة. أو، ما كنتِ لتخبريه شيئاً أبداً. كنتما لتذهبا معاً إلى هنا أو لنقل إلى غرفتهِ في الفندق. كنتما لتمارسا الحبَّ وخلال ذلكَ كما هي العادة كنتِ لتسأليه: أهذه أوَّلُ مرَّةٍ لكَ في ألمانيا؟ وهو كان ليقول لكِ: كلا، سبقَ وكنتُ في ألمانيا، خلالَ الحربِ، أسقطوا طائرتي فوق هامبورغ، في تلك الليلة التي كنا نَشِنُّ

على تلكَ المدينة غارةً رئيسةً. كنتُ في معسكرٍ للأسرى، كان هنالكَ رئيسٌ رهيب، كان يعذِّبنا، ويضربنا، ويطلق الكلاب علينا، وكان يعلِّقنا من أصابعنا، ويقتلنا بطلقةٍ بمؤخَّرة رؤوسنا».

- «توقَّفْ! أوه! كفى...». تنهَّدتْ.

* «بعدَ الحربِ حكموا عليه بالإعدام، محكمتنا العسكرية، أنا كنتُ الشاهِدَ الملك، كان عليكِ رؤيتهُ وهو يقفُ أمام المحكمة، كم كان صغيراً، كيف كان يرتجفُ خائفاً على حياته، كيفَ كان يبرِّرُ بأنه لا يذكرُ شيئاً، كيفَ كان يُلقي بالذنبِ على رؤسائه، هو لا علاقةَ له بشيء، فقط كان ينفِّذُ الأوامر. لقد كنت أحبُّها يا حبيبتي الصغيرة. كانتِ الحربُ قائمة، وهي كانتْ ألمانية، النومُ مع ألمانيةٍ كان أمراً شائعاً، لم يكن في ذلك شيء، ولكن الطريقَ إلى معرفة أنني أحبُّها هي الألمانية ولا يمكنني العيشُ من دونها، كانتْ طويلةً ومعقدة. ربَّما أدركتُ بأني لا أستطيع العيشَ من دونها عندما فقدتُها، عندما كنتُ خائفاً جدّاً من أنني لن أراها مجدَّداً. كان هذا منذ زمنٍ بعيدٍ يا حبيبتي الصغيرة. بأي حقٍّ تُقحمينَ نفسكِ في الأمر؟ لماذا لا تدعينني وشأني؟ أنا غير قادرٍ على فهم ما يعتريكِ، لكنكِ لا تدعين الآخرين وشأنهم».

كنتُ غاضباً وساخطاً، لم أكن قادراً على التوقُّفِ الآن، كان لا بُدَّ من أن أخرِجَ ذلكَ من داخلي، كلّ شيء الآن، كنتُ أوجِّلُ ذلكَ منذ فترة، أكبُته في داخلي، كنتُ لفترةٍ طويلةٍ أخافُ أن أعيدَ فتحَ هذه الأمور. لم يعد في وسعي أن أراعي شعورها بعد الآن، هي أرادتْ ذلك.

* «في تلكَ الليلة وفي الأيَّامِ التي تلتْ، يا حبيبتي الصغيرة، لم يمتْ فقط أربعون ألف شخصٍ، ولم يمت الجميع خلال الغارة وبعدها...

قتلتُ عُنصرَ الغيستابو ذاك، يا حبيبتي الصغيرة. أخذتُ سِلاحه، كان في جيبي. كان في جيبي أيضاً، عندما غادرتُ بعد منتصفِ الليل ذلكَ المنزلَ الذي لم تكن موجودةً لويزا فيه...».

غادرتُ ذلك المنزلَ في وقتٍ ما بعد منتصف الليل. لم أكن قادراً على البقاء هناك. لم أقفل البابَ من خلفي. فما الداعي إلى ذلك؟ عندما خرجت إلى الشارع، شيءٌ ما، الحدسُ ربَّما، نبَّهني، بأني لم أكن لوحدي. لم أرَ أحداً، لكن شعرتُ بأن شيئاً ما لم يكن على ما يرام.

ولم يكن.

سمعت من خلفي من يصرخ بالألمانية: «توقف، ارفع يديك».

توقَّفتُ واستدرتُ. فرأيتُ ملامحَ غيرَ واضحةٍ لشرطيٍّ كانَ يقفُ مقابلَ الشجرة.

رفعت يديَّ. ووجَّهَ الشرطيُّ ضوء المصباح الأزرق نحوي.

- «ما الذي كنتَ تفعلهُ في هذا المنزل».

* «ألم يعلِّموكَ احترامَ الآخرين؟».

جعله هذا يرتبكُ قليلاً.

- «عن ماذا كنتَ تبحثُ هناك يا سيِّد؟».

* «لا شيء، إني أسكنُ في ذلك المنزل فقط».

- «هل تستطيعُ إثباتَ هذا؟».

* «أستطيع أملكُ المفاتيح».

- «يمكن لأيٍّ كان الحصول على المفاتيحِ اليوم. أعطني أوراق هويتك...».

* «الأوراقُ ليستْ معي. لقد فقدتها خلال الغارة».

- «إذاً؟ فقدتَها؟».

عاد ليقلِّل احترامه معي.

- «لا تتحرَّكْ، ولا حركة...».

كان عليَّ القيام بذلك. كان عليَّ المخاطرة، كان ليكونَ الأمرُ في غاية الغباء لو أنهم قبضوا عليَّ هكذا. قفزتُ جانباً، وأخرجتُ المسدَّسَ من جيبي وقبل أن يدركَ ما الذي يحدُث أقحمتُ المسدَّسَ بكلِّ قوَّتي في بطنه. فتأوَّه.

* «ارمِ سلاحكَ. ألقِ به على الأرض!». قلتُ له ذلك، وسمعتُ صوتَ ارتطامِ ضعيفٍ لشيءٍ ما.

* «استدرْ».

استدار بشكل مُطيع.

* «ضعْ يديكَ خلفَ رأسك».

تحسَّستُ جيوبه، وجسمه، لم يكن لديه سلاحٌ آخر.

* «إذاً، تقدم إلى الأمام. هيَّا، وبلا حماقات يا كريبو[1]. بلا أية حماقات، وإلا أطلقتُ النار على مثانتك».

قدتُه باتجاهِ النهر. كنتُ أستعجله ضاغطاً المسدَّس في ظهره.

* «هيَّا يا كريبو. وبلا أية حماقات. بسرعة بسرعة».

وصلتُ بهِ إلى النهر. كنتُ أسمعُ كيفَ كانَ يلهثُ بصعوبة. كان

---

1 - Kripo اختصار لـKriminalpolizei وهو مكتب الأمن الجنائي في ألمانيا النازية.

خائفاً. كان عليَّ أن أتخلَّصَ منهُ بطريقةٍ أو بأخرى. عندَ النهر خطرَ لي كيف.

* «أخرِجْ من جيبكَ الصفَّارة يا كريبو، ولكن بلا حماقات».

أخرجَ الصفَّارة.

* «أعطِني إياها. والآن انزع حذائك. بسرعة».

يبدو أنهُ كان خائفاً للغاية، كان ليفعلَ أيَّ شيءٍ أطلبهُ منه.

* «الآن انزعْ معطفَكَ».

نزع عنه معطفَهُ ورماهُ على الأرض.

* «والقميص».

خلعَ عنهُ القميص.

* «اسمع يا كريبو، في إمكاني أن أطلقَ النار عليكَ هنا كالكلب. لن يكون في ذلك أية خسارة. لديكَ خيار، إما أن تدخُلَ إلى النهر أو طلقة في عنقك».

- «حقير...». تنهَّد.

* «لا تُثِر أعصابي يا كريبو، لا أملكُ مزاجاً لذلك، ولا وقتاً. لذا قرِّرْ. الأغراضُ ستبقى هنا، سآخذ الصفَّارةَ فقط».

على الأغلب اعتقدَ بأني سأطلقُ النارَ عليه عندما يكونُ في النهر. لكنهُ دخلَ إليه، إلى المياه الباردة التي كانت تطفو فيها قطعٌ جليدية.

* «اسبحْ. اسبحْ إلى ما بعد الجسر. ثمَّ يمكنُكَ الخروجُ وأخذُ أغراضكَ. سأكون بعيداً وقتها». كنتُ أصرخُ من خلفِه. ثمَّ رفعتُ

الصفَّارة ورميتها في النهر. ذهبتُ بعيداً. سيكونُ لديهِ الآن ما يشغلهُ عن ملاحقتي.

اتَّجهتُ جنوباً، يا حبيبتي الصغيرة. وفي الصباح الباكر كنتُ قد وصلتُ إلى طريقٍ سريعةٍ ما. فانضممتُ إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من الناسِ المتنقِّلين. كنتُ كثير الاهتمام بنفسي، كي أتفقَّدهُم، لكن كنتُ مرتاحاً أكثر لوجودي ضمن مجموعة.

عندَ الفجر كنا قد وصلنا إلى حاجز. حاجزٍ للوحداتِ الوقائية. أوَّلُ فكرةٍ خطرت لي كان المسدَّسُ الذي في جيبي، لكن لم أعُدْ أستطيع التخلُّصَ منهُ بشكلٍ غيرِ ملفِتٍ للنظر. خرجوا فجأةً مِن كلِّ الجهات. ثمَّ قاموا بفرزنا، كبارُ السنِّ والأطفالُ في مجموعة، أما الرجالُ والنساءُ القادرونَ على العمل في مجموعةٍ ثانية. وفي المجموعة الثالثة وضعوا المجانين أو أولئك الذين بدوا مجانين...

- «توقَّفْ... أوه! توقَّفْ... أوه، كفى ... توقَّفْ...».

* «وضعونا في شاحنات، يا حبيبتي الصغيرة. في البداية كبارُ السنِّ والأطفال ومن ثمَّ القادرون على العمل. أما المجموعةُ الثالثة أخذوها إلى غابة قريبة...».

- «توقَّفْ، يا إلهي! توقَّفْ...».

* «لم يتفوَّهْ أحدٌ خلالَ ذلكَ بأيِّ كلمة. أخذونا مجدَّداً إلى المدينة. إلى معسكرات العمل. أعطونا طعاماً وشيئاً ما لنرتديه ومعولاً ومجرفة. جعلونا نصطفُّ في تشكيلِ المسير، وأخذونا إلى الأعمال الاستراتيجية. كنا نَشُقُّ في تلكَ الحممِ التي بردتْ طريقاً استراتيجية في

منتصف ما كان يوماً ما مدينة. سَخَّروا لذلك كلَّ من كان في استطاعته العمل. وعندما وصلَ الروسُ إلى المدينة، نظروا مذهولين، ما الذي كان يجري هنا. مع أنهم شاهدوا وخبروا العديد من الأمور...».

كانت حبيبتي الصغيرة تجلسُ وهي تضع رأسَها بين كفَّيها، وتغرس أصابعها في شعرها. نهضتُ وذهبتُ إلى النافذة. ثمَّ رفعتُ الستارة. الجوُّ في الخارج رمادي ضبابي. ما زالت حبيبتي الصغيرة جالسةً على حالها. كانت ليلةً غريبة، واحدةً من أكثرها غرابة.

نَكشتُ رأسها أكثر مما كان عليه من قبل.

* «إنه الصباح يا حبيبتي الصغيرة».

- «نعم، إنه الصباح...». تنهَّدتْ.

* «يجبُ أن تنامي قليلاً».

- «لا أريد أن أنام. سأذهبُ معك».

لم يكن هنالك جدوى من محاولةِ حملها على تغيير رأيها.

- 8 -

لم تكن البوَّابة مقفلة. تردَّدت حبيبتي الصغيرة عندها بعض الشيء.

- «أعليَّ الذهابُ معكَ إلى هناك؟».

* «تعالي. لمَ لا تأتين؟».

باب المنزل مفتوحٌ على مصراعيه. وفي البهو هنالكَ امرأةٌ ترتدي معطفها. فوجِئتْ لدى رؤيتها لنا في المدخل. لم أتمكَّن حينها في المساء مِن تمييز ملامحها جيِّداً. أما الآن في ضوء النهار بدتْ لطيفة الشكل، إنها في الستينيات من عمرها ومحافظةٌ على قوامها، مكوَّرة، شعرها أبيض تماماً، وجهها ناعمٌ بشكلٍ ملفتٍ مقارنةً مع عمرها.

- «عمَّن تبحثان». سألتْ متردِّدة.

* «عنكِ يا سيِّدتي. البارحة تحدَّثنا. سألتك عن الآنسة ديكير».

- «آه نعم، هذا أنت...». فاتها الأمر. بدا لي وكأن زيارتي المتكرِّرة لم تعجبها كثيراً. لكن ماذا كان في وسعها أن تفعل؟ لقد كنا تقريباً في داخل المنزل.

- «تفضَّلوا إلى الداخل. أنا لا أعرِفُ الكثيرَ عن الآنسة ديكير. لم أقابلها أبداً».

* «لن أُؤخِّركِ كثيراً يا سيِّدتي».

- «هل ... هل أنتم من اللجنة؟».

* «أوه، لا»، قمتُ بتطمينها. «لستُ من أية لجنة، اهتمامي خاصٌّ فقط».

بدا جلياً بأنها أصبحتْ أكثرَ راحة. عَرَّفتُ عن نفسي.

* «هذه ابنة أخي من هامبورغ...». عرَّفتُ حبيبتي الصغيرة.

قادتنا إلى القاعة في الطابق الأرضي.

- «عفواً، سأعود على الفور...». اعتذرتْ. ذهبتْ من الباب الخلفي. سمعتُ خطواتِها على الدرج. راحت حبيبتي الصغيرة تتفحَّصُ المنزلَ بفضول. لم يتغيَّر الكثير هنا. إننا نجلِسُ في مقاعدَ جلديةٍ طرية، بالقربِ من طاولةٍ كبيرةٍ دائرية. المكتبة كما هي لم تتغيَّر، بالكاد أُضيفَ إليها أو نقصَ منها كتابٌ واحد. الخزانة التي كان فيها يوماً ما مجموعة البلورات المتألِّقة، باتتْ ممتلئةً بدمى بورسلانية من مايسن. أما على الجدار الذي كانت توجد أريكةٌ بالقرب منه، فقد عُلِّقَتْ بدلاً من لوحةِ البحر لوحةٌ كبيرةٌ لرجلٍ صارم، والعديدُ منَ الصورِ الفوتوغرافية العائلية في إطارات فضِّية. وعبر السجَّادة الكبيرة هنالك بساط مشيٍ رخيص. وبالقرب من النافذة يوجدُ المكتبُ نفسه، ومن السقف تتدلَّى الثريَّا نفسها. حتى الطلاء بدا لي نفسه لكن ذلك كان مستحيلاً!

أخذتْ حبيبتي الصغيرة تتفقَّد المكان مذهولة، وتقفُ عندَ كل غرضٍ لتتفحَّصهُ بنظراتها. أمسكتْني من يدي، وشدَّتْ عليها، وكأنها أرادت أن تهدِّئني. إني متوتِّر.

عادتْ سيِّدة المنزل. اعتقدتُ بأنها ستجلبُ معها أحداً ما لكنها كانت لوحدِها. جلستْ مقابلي. وانتظرتْ.

لبرهةٍ ساد الصمتُ بشكلٍ مُربِك.

* «أتسكنينَ هنا لوحدك؟».

- «أوه لا، كلا»، أجابتْ بسرعة. «إننا عائلةٌ كبيرة. الابن... والابنة... وبالكاد يتَّسعُ الجميعُ في المنزل».

* «إذا أنتِ لم تعرفي الآنسة ديكير».

- «لم أعرفها. لقد كان أمراً فظيعاً ما حدثَ لها. لقد قُصِفنا، كما تعرفون، وقاموا بمنحنا هذا المنزل، بشكلٍ مؤقَّتٍ في بداية الأمر، لكن فيما بعد كلُّ شيءٍ بقي على حاله».

* «ولكن أتعرفونَ ماذا حدثَ مع الآنسة ديكير؟».

يبدو أنه كان سؤالاً تخشاه لسببٍ ما.

- «هل أستطيع أن اسألكم ماذا يهمُّكم في الأمر؟».

* «لا شيء يا سيِّدتي، مجردُ فضول. لقد عرَفتُها في فترةٍ ما، لكن ذلك كان منذ زمنٍ بعيد».

- «هل كنتما على معرفةٍ جيِّدة؟».

* «لا ليس كثيراً»، كذبتُ، «لقد كانت غريبةً بعض الشيء، أليسَ كذلك؟ لم تكن ألمانية صالحة».

- «أوه، لا أريد، تعرفون إنها ميتة...».

* «نعم أعرِفُ، لكن ذلك كانَ منذ زمنٍ بعيد».

- «وقتها كانت هكذا هي القوانين. لقد أمسكوا بها مع بولندي. وكانَت حينها هكذا قوانين...».

كانَ عليَّ أن استجمعَ كلَّ قِواي كي أتمالكَ نفسي. إذاً هكذا كان الأمر! هكذا كان الأمر! أمسكوا بها مع بولندي! ما كنتُ لأكتشِفَ ذلك أبداً! مع بولندي! أمسكوا بها في "أتلانتيك" مع فلوديك!

- «لقد كانت غريبة. العائلةُ بأسرِها كانت غريبة، الكلُّ كانت نهايتهُم وخيمة. إنها كارثة، لكن حينها كانت هذه هي القوانين. عثروا عليها في حانةٍ حقيرة. ذلكَ البولنديُّ اعترف، وهي اعترفتْ أيضاً، وأمام المحكمةِ حتى كانت تفتخرُ بذلك... نعم، الحربُ كانت فظيعة، كل هذا الانحدار الأخلاقي... وحينها كانت هذه هي القوانين، كانت قاسية... والعائلة بأسرها كانت هكذا...».

* «ماذا تعرفين عن عائِلتها؟».

- «أطلقوا النار على أخيها في الجبهة. ووالدها كان يخون ألمانيا لصالح الأعداء. اليوم لم يعودوا أعداء، ولكن حينها كانوا أعداء، ووالدها كان له موقعٌ دبلوماسيٌّ حسَّاسٌ جدَّاً، يمكِنُ القول إنه مَوقعٌ رئيس. يُقالُ أيضاً إنه كان من ضِمنِ مجموعةِ الضبَّاطِ تلك...».

إذا هكذا كان الأمر! أبي سيحضر! أبي سيحضر... فحضر لحتفِه.

* «هل حاكموه أيضاً؟».

- «لا، لم يكن هنالكَ وقتٌ كافٍ لذلك، لكنه لم ينجُ من الأمر. فقضى في معسكر اعتقال. يا إلهي! لا يمكن للمرء أن يُصدِق بأن شيئاً مماثلاً كان موجوداً! لم نكن نعرفُ عن ذلك أيَّ شيء».

إذاً هكذا كان الأمر! كان هنا شرطيان سريان، لكن لم يكونا يبدوان من الشرطة. هنالك خطبٌ ما يجري مع كورت، وأنا خائفة عليه، لقد سألوا عنه...و في اليوم التالي: أبي سيأتي... وهذه المرأة التي لم ترَ الآنسة ديكر من قبل أبداً والتي ليستْ حتى من أقربائها ولا من معارفها والتي تسكنُ هنا بالمصادفة بشكلٍ مؤقَّت، تعرِفُ عن هذه العائلة أكثر ممَّا يمكنُ للمرء أن يتوقَّعه. وقبلَ أن أتمكَّن من سؤالها عن الأمر، سبقتْني حبيبتي الصغيرة.

- «زوجكِ... كان قاضياً، أليسَ كذلك؟».

نظرنا نحن الثلاثة إلى لوحةِ الرجلِ الحازم الموجودة على الجدار.

- «لم يكُن لزوجي علاقةٌ بكل هذا. لم تكن هذه قضيَّته. زوجي تُوفِّي منذ عشرِ سنوات. كان رجلاً محبَّاً وصالحاً... لذلكَ الذين كانوا وقتها لم يكونوا يحبُّونه. طوال الوقت لم يقوموا بترقيته، تُوفِّي كقاضٍ في المحكمة المحلِّية. لم نكن نهتمُّ بالسياسة. حتى أننا لم نكن نعرِفُ عنِ الأمورِ الفظيعة التي كانت تحدُث. لم أحب هذا البيت أبداً، ولكن بعد الحرب كان كلُّ شيءٍ معقَّداً جدَّاً، حاولنا كثيراً بلا جدوى العثورَ على شيءٍ ما آخر. قاضي محكمة الولاية نيماير هو من حكمَ على الآنسة ديكير. لا أريدُ أن أتحدَّثَ بشيءٍ سيِّئٍ عن أحدٍ ما. ولكنهُ كانَ فعلاً نازياً متوحِّشاً، ومن وقع بين يديه، كان أمره منتهياً. لكن زوجي لم يكن كذلك. لذا لم يرغبوا في ترقيته أبداً، مع أنه كان يَحِقُّ لهُ ذلك».

فكَّرتُ كم مرَّة قالتْ هذا الكلام وشرحَت الأمر بهذه الطريقة. من المؤكد أنهم سألوها عن ذلك. استغربتُ من مدى هدوئي. بينما

كانت حبيبتي الصغيرة تتحرَّكُ في مقعدها، وبدَت لي وكأنها على حافَّةِ الانفجار. اضطُررتُ إلى مسكها من يدها.

- «لا أريدُ التحدثَ عن أحدٍ بسوءٍ، لكن قاضي محكمة الولاية نيماير عرفَ كيفَ يتدبَّر أمره جيِّداً، فهو اليوم قاضٍ في ألمانيا الغربية. أما زوجي فقد أخذه الروس. وعاد بعافيةٍ سليلة. وبعدَ فترة قصيرةٍ تُوفِّي».

مسحَت المرأة بالمنديلِ دموعَها، بعد أن باغتتها ذكرى مفاجئة. لقد كان إنساناً صالحاً... طيِّباً...

عرفتُ كلَّ شيء. إذا هكذا كان الأمر! هل عليَّ أن أقولَ الآن: يا سيدتي البولندي الذي قطعوا من أجلهِ رأسَ الآنسة ديكير، هو أنا، لكن مع فارقٍ بسيطٍ، إنني لستُ بولندياً. ولكن هل لهذا أيُّ معنى؟ ماذا سأشرحُ لها؟ ماذا ستفهم منه؟ ولمَ؟

نهضتُ.

* «تعالي يا حبيبتي الصغيرة...».

ذهبنا مِن دونِ أن نلقي أيَّ تحية. فلتظن ما تريد.

* «إذاً هكذا...». قلتُ ونحن في الشارع.

- «إذاً هكذا...». تنهَّدتْ حبيبتي الصغيرة.

ذهبتْ معي، وتمشَّينا في تلك الهضبة المقفرة في مركز المدينة. ثم توقَّفنا بالقرب من الخرابةِ السوداء المحروقة.

لم أكن مضطرّاً إلى قول أيِّ شيء.

ودَّعتُها أمامَ الفندُق.

«أخبِري صديقي عندما يسأل عني، بأني اضطررت إلى السفر فجأة. فليتَّصلْ بي، لنتفق متى سنلتقي».

لم تحاوِلْ ثنيي عن ذلك. قَدَّمتْ لي شفَتيها. إنها رطبةٌ وباردةٌ وطعمها كتوتِ العُلَّيق. لدي فضولٌ لمعرفة إن كانت ستقولُ شيئاً ما. لكنها لم تقلْ شيئاً.

* «إلى اللقاء يا حبيبتي الصغيرة».

- «إلى اللقاء. أخبرني... ألستَ غاضباً مني؟».

* «لا تكوني مجنونةً يا حبيبتي الصغيرة، الأمورُ هكذا جيِّدة».

- «كان ذلك جيِّداً بالنسبة إليَّ أيضاً. المرَّة القادمة عندما تأتي ستقيمُ عِندَنا، أليسَ كذلك؟».

أومأتُ برأسي. ثمَّ استدرتُ وغادرت. ذهبتُ إلى الأعلى، حزمتُ أمتعتي وركبتُ سيَّارتي وانطلقت.

سنلتقي في مرَّةٍ أخرى يا ماكس.

فأنا اليوم أريدُ أن أكونَ أبعدَ ما يمكن عن هنا...

شكر

في ظلِّ هذه الظروف العصيبة التي تمرُّ بها شعوبنا العربية من حروب وصراعات، وما يرافق ذلك من تحدِّيات مصيرية. تأتي هذه الرواية من كلاسيكيات الأدب السلوفاكي في القرن العشرين والتي تُلقي الضوء على التجربة الإنسانية خلال الحرب العالمية الثانية وما تلاها من محاولة طرفي الصراع التعامل مع آثار ونتائج هذه الحرب الدامية كلٌّ من منظوره، لتكون بمثابة ومضة على الماضي لما قد ينتظرنا مستقبلاً.

لذا كان لا بدَّ من بعض الشكر والتقدير لكلِّ من ساهم في إيصال هذه الرواية إلى القارئ العربي. بداية: أودُّ أن أشكر مركز معلومات الأدب السلوفاكي LITCentrum على منحته المخصَّصة لدعم ترجمة الأعمال السلوفاكية الأصيلة، ولكلٍّ من ساهم وعمل على إخراج هذا العمل. كذلك أودُّ أن أخصَّ بالشكر شذى معوض على تشجيعها الدائم وقراءتها للنسخة الأولية وما قدَّمته من ملاحظات وأفكار ساهمت في إغناء هذه الترجمة.

وأخيراً أودُّ أن أشكر عائلتي على ما قدَّمته، وبالأخصِّ والدتي العزيزة على دعمها اللامحدود.

رامي البيروتي

عشـرون عامـا مـرت على نهاية الحـرب العالمية الثانية. يعود رجـل أجنبي إلى مدينـة درسـدن الألمانيـة في زيارة لصديق. ولكن بدلاً مـن صديقه يلتقي بفتاة عشـرينية تعمـل في فنـدق جديد، ليـدور حديث ليلي طويل، بـين رجل قضى في تلك المدينة آخر عامين من الحرب، ونجا من القصف المدمر ومن معسـكرات الاعتقـال النازية، مسـتحضراً كل الآلام والمآسـي التي عاشـها، وبـين فتاة من جيل ما بعد الحرب الذي لم يعرف ويلاتها ولم يختبرها، لكنه يحاول التعايش مع إرث مثقل بجرائم وفظائع الآباء.

****

«لا يمكننـي مسـاعدتكِ يـا حبيبتـي الصغـيرة. إنهـا معركتكِ وعليـكِ خوضها بمفردك. لن يساعدكِ أحد ولا حتى أنا».


ISBN 978-9933-540-19-7




تابعونا